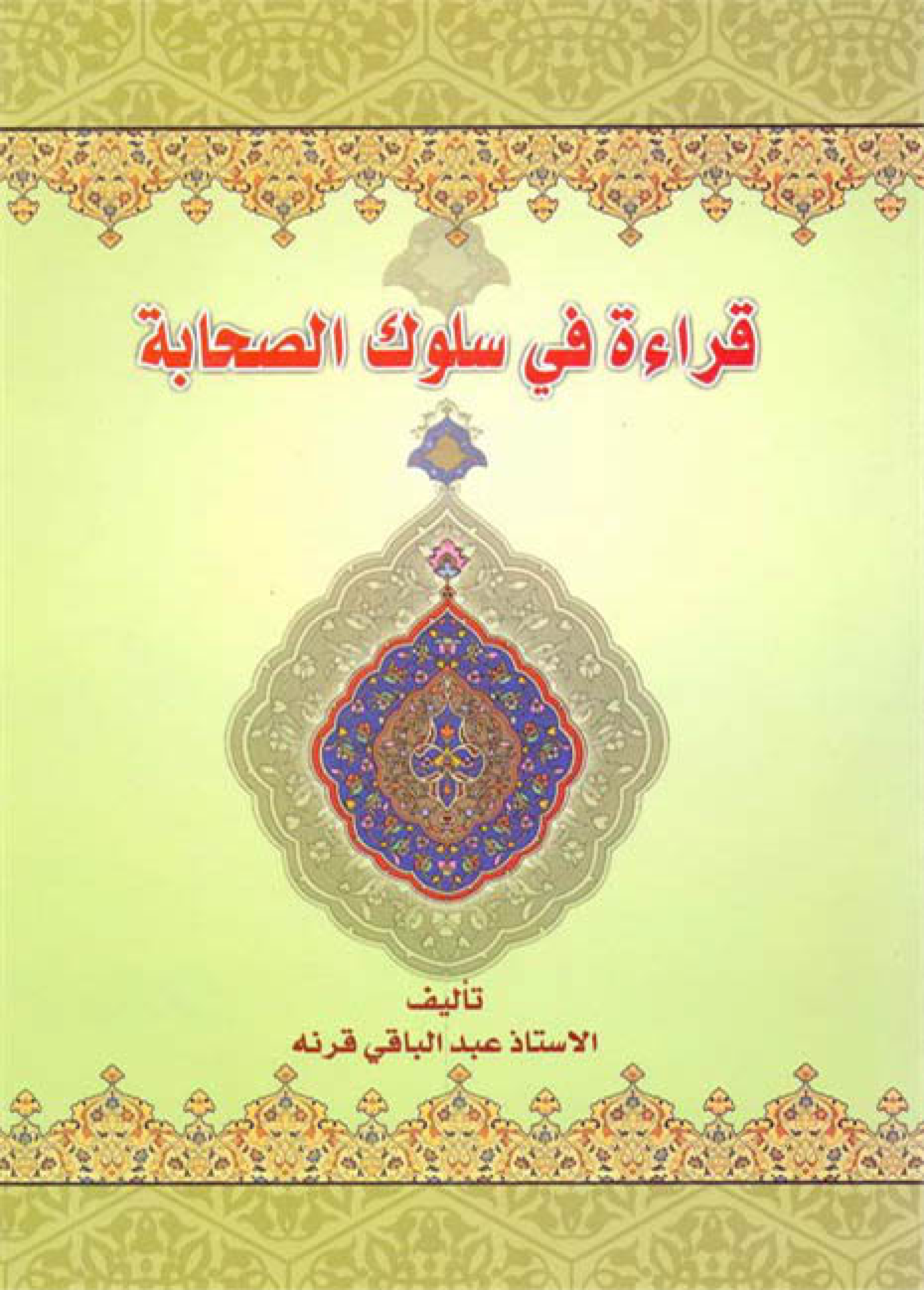
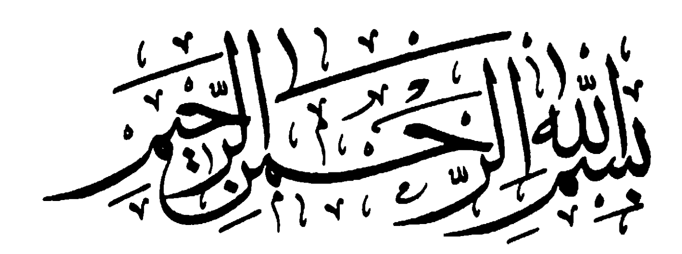


قراءة في سلوك الصحابة
تأليف
الاستاذ عبد الباقي قرنه


بسم الله الرحمن الرحيم

قراءة في سلوك الصحابة

تأليف:

عبد الباقي قرنة الجزائري

قراءة في سلوك الصحابة

تأليف: الأستاذ عبد الباقي قرنة الجزائري

الناشر: دهكده جهاني آل محمد (عليهم السلام)

تحقيق ونشر: مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

مراجعة وتصحيح: الشيخ عبد السادة الساعدي وأمير حسون كاظم

الصف والإخراج الفني: مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية / محسن الجابري

المطبعة: اميران

الطبعة الثانية/ ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

شابك: ٢ـ ١ـ ٩٠٤٨٢ـ ٦٠٠ـ ٩٧٨

هاتف: ٠٠٩٨ـ ٢٥١ـ ٧٧٣٠٩٤٤

الموقع: www. Annajat. Org

البريد الألكتروني: Adara – Alkother@yahoo.com

العنوان: قم/ شارع سمية/ زقاق ١٨ / رقم الدار ١٥

كلمة المؤسسة

إنّ مفهوم الصحابة من المفاهيم القرآنية ذات الدلالات الواضحة، وقد طرحها القرآن الكريم من خلال عرضه لسلوكيات ومواقف الصحابة تجاه الرسالة الإسلامية وتجاه بعضهم البعض، وهو عرض جميل ورائع لما تتمتع به هذه الجماعة من قوة الإيمان بالله سبحانه وتعالى ورسله، بحيث تحملت أعباء تبليغ الرسالة والدفاع عنها، ولكن هذا لا يعني أنّها تتمتع بحصانة العصمة عن الخطأ والاشتباه، فوقوع الخطأ والمعصية أمر ممكن منها، ومن الطبيعي أن تخضع الحقبة التاريخية التي عاشتها الصحابة للدراسة والتحليل والنقد وفق الأساليب العلمية وما تمليه الأدلة الثابتة، بعيداً عن روح التعصب الطائفي والمذهبي؛ لأنّ اتّباع مثل هذا المنهج يكون من شأنه زرع الفتنة والتفرقة والاختلاف بين المسلمين في الوقت الذي هم بأمس الحاجة إلى رصّ الصفوف ووحدة الكلمة.

وعليه فإنّ إظهار نقاط الضعف وإبراز شذوذ البعض ومخالفته لأحكام الدين والأخلاق الإسلامية ـ كما هو مصرح به في الذكر الحكيم، أو في روايات السنة النبوية الشريفة، أو في ما نقل عنه في التاريخ الإسلامي ـ لا يعد طعناً بجميع الصحابة وإن كان بحسب موازين العقل والبرهان المنطقي وضوابط الدين وقوانينه خرقاً لقاعدة (عدالة الصحابة) التي ما برحت تترى عليها الإشكالات والنقوض، الواحدة تلو الأخرى، حتى من كبار أتباع الفرق والمذاهب القائلين بها، وكما ورد في الحكم والمواعظ:«انظر إلى ما قيل ولا تنظر إلى من قال».

وكان من جملة الباحثين حول تقصي الحقيقة وكشفها لمن يروم الوصول إليها، سماحة الأستاذ الفاضل والمحقق البارع عبد الباقي قرنة

الجزائري، الذي رفد المكتبة الإسلامية بمزيد من الكتب والدراسات التحقيقية منتهجاً فيها الأسلوب العلمي والموضوعي بعيداً عن التعصب والتمذهب الذي لا يخدم قضايا الأمة الإسلامية وتطلعها إلى الوحدة والتكاتف والتآزر.

ومؤسستنا (مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية) وإيماناً منها برسالتها النبيلة في إحقاق الحق وخدمة العلم والعلماء، والذي ترجمته عبر تبنّيها لمشاريع تهدف إلى نشر التراث والثقافة الإسلامية، وهي لا تنطلق في ذلك من وجهة النظر المذهبية الضيقة، بل تحاول جاهدة رأب الصدع وجمع شمل المسلمين، حتى عند طرحها لبعض المسائل الخلافية التي لا تهدف من ورائه إلا تشخيص الداء ووصف الدواء المناسب له، وذلك لتقريب وجهات نظر المسلمين، بغية حلّ جميع الإشكالات التي قد يستغلها الأعداء لبثّ الفرقة والاختلاف بين المسلمين.

فارتأت المؤسسة أن تقوم بنشر هذا السِّفر القيم لتجعله بيد القرّاء الكرام؛ مساهمة منها في نشر الفكر الإسلامي الأصيل، ولتضيف إنجازاً إلى سجل إنجازاتها المتميزة في هذا المضمار، سائلين الله العلي القدير لمؤسّستنا دوام النجاح والتوفيق، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

قسم الدراسات والبحوث الإسلامية

مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

ربيع الثاني/ ١٤٢٩هـ

مقدمة الطبعة الأولى

مَا من شَكٌ في أنّ للدين الحنيف حُماةً يَذبُّونَ عَن حياضه الحَميَّة تحريفاتِ المُبْطلين، وشَطَطَ الغالين. بَيْدَ أنّ مِنَ النّاسِ مَنْ يحلو له أن يتقمّص حُلّةَ المدافعِ الذابّ، ويتظاهرَ بلباس المُحامي عَن تلكَ الحياض الشريفَة، وهو عَنْ أجواء الشَّرف في مَنأى، وليسَ يَصِلُهُ بهذا العالم الفَاضِل سوَى زَعْمٍ فارغٍ وادعاءٍ مُغرض.

ووجودُ هذا القبيل مِنَ المَصْلحيِّيْنَ ـ لا المُصلحين ـ الَّذين يُقَدِّسُونَ مَصَالحهم الذاتيَّة أكثرَ من تقديسهم للحق، بل لعلهم لا يعرفون ـ في واقعهم العَمَليّ ـ للحقّ قُدسيَةً؛ لا شكٌ له دورٌ أسَاس في تَسرِيب غير قليل من المفاهيم والمبادئ المَغلوطة الَّتي مِنْ شأنها أن تخدم مَصَالحَهُم بأكثَر ممَّا تخدمُ الحقّ وتصبُّ في مَجْراه. هذا إذا لَمْ تكُنْ مُتَمَحِّضَةً في رَفْد مَصَالحهم فحسب، ومُنقلبةً عَلى الحقّ، ووبالاً عليه وعلى أهله.

وَهُنَا تشتدُّ الحاجَةُ إلى الحُمَاة الحقيقيِّيْنَ الَّذين نذوروا أنفسهم في سبيل الحقّ والحقّ وَحده، سواءً وافق مَصالحهم الذاتيَّة أم لم يوافقها. وما أشدَّ وأثقلَ هذا العبءَ المُلْقَى على عاتقهم وَهُمْ أمَام مُعْضلتين اثنتين:

أولُهُمَا: هذا التيارُ المُتدفّق منذ قُرون مِنَ المُحامين المَصْلَحيِّيْنَ، أو لنَقُلْ: من المُصْلحين الزّائفين، الَّذين لا يعبأون بمصلحة الدين والأُمَّة بقدر ما هم في شُغل شاغل بمصالحهم الذاتيَّة الَّتي لا يُستبعد منهم أنّ يعملوا على حفظها وضمان بقائها ولو على حساب الدين كلِّه.

وثانيهما: هذا السيل الجارف من المفاهيم والمبادئ المغلوطة التي استطاع أولئكَ الحُمَاةُ المَصلحيُّون أن يزرعوها في أذهانِ الكثيرين ممَّن

ائتمنوهم على دينهم، ولعلَّهم استطاعوا أن يقنعوهم بأنّ لتلك المبادئ والمفاهيم جذوراً مُمتدّةً في القرآن الكريم والسنَّة الشريفة.

وقد يكون جديراً بالتأمُّل أنّ تجتمع هاتان المُعضلتان في موضوع واحد هو موضوع «عدالة الصحابة»؛ فإنّ هذا الموضوع يجتذبه الأمر الأول من جهة، وهو كونه يرتبط مباشرة بأشخاص حاولوا أن يسجّلوا أنفسهم كحُمَاة للدّين، وهم في منأى عن هذا الشرف، بل لعلَّ منهم مَن هو في منأى عن الدين كلِّه. وهو ـ من جهة أخرى ـ يرتبط بالمُعضلة الثانية؛ لكونه يُمثِّل حلقةً مهمّةً في سلسلة المفاهيم المغلوطة، وذلك أنَّه عنوانٌ أُريدَ له ـ بغير حقٍّ ـ أنّ يتسرَّب إلى منظومة الفكر الإسلامي، ليلعب دوره الفاعل في خدمة مصالح أولئك المَصلحيِّين، ويحفظ خطَّهُم الفكري من الاندراس.

ولعلَّه يندر أن يتَّحد هذان الجانبان في عنوانٍ واحد، اتِّحادَهما في هذا العنوان (عدالة الصحابة).

ولذلك تجد المحامين الأصليين عن الحقيقة لم يتوانوا عن تناول هذا الموضوع بالدراسة والتحليل، وكشف الخلفيّات والحقائق التي من شأنها أنّ تفضح هؤلاء المَصلَحيِّين من جهة، وتأخذ بالقلوب المنفتحة على البحث عن الحقيقة إلى برِّ الأمان.

وقد كان مؤلِّفنا المفضال «الأستاذ عبد الباقي قرنه» من أولئك المُحامين الذين عاشوا همَّ هذه القضية، وعرفوا ـ بحقٍّ ـ ما تُمَثِّلُهُ من مكانة في ما ينبغي أن يُطرح في البحوث وأن يُتَنَاولَ بالتمحيص. ومن هُنا جاء كتابه ـ وهو الذي بين أيدينا ـ كتجسيد لوعيه لهذا الجانب. ولعلَّهُ ـ وهو المستبصر ـ مِنْ أدرى الناس بما ينبغي وما لا ينبغي أن يُطرح؛ انطلاقاً من تجربته في

البحث بين المذاهب الإسلامية، هذه التجربة التي انتهت بعقله وقلبه إلى اتّخاذ القرار بركوب سفينة أهل البيت عليهم السلام واعتناق مذهبهم الشريف، مذهب الشيعة الإمامية، الَّذي يُمثِّل بحقٍّ دين الإسلام الحنيف مبرّأً من شوائب الانحراف، ومُصفّى من كدورات التضليل. وليس يخفى على القارئ اللَّبيب ما تركته هذه التجربة من وَعْيٍ وتكامُلٍ فكريٍّ يظهر جليًّا في طَيّات هذا الكتاب.

وإذْ تتقدَّم مؤسَّسة الفكر الإسلامي بهذا الكتاب إلى قرائها الكرام، فهيَ - مُمثَّلةً في أُسرتها - تبتهل إلى الله تبارك وتعالى أن يجعله نافعاً لقُرّائها الكرام، وذُخراً لمؤلفه المفضال، سائلين المولى عزَّ وجلَّ أن يُوفِّقَهُ إلى أمثاله، والله وليُّ التوفيق والحمدُ لله أولاً وآخراً.

مؤسسة الفكر الإسلامي

في هولندا

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد؛

روى الإمام أحمد بن حنبل في كتاب الفضائل بسنده عن عمرو بن موسى عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه عن علي بن أبي طالب قال: «شكوت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) حسد الناس إياي فقال: أما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة، أنا وأنت والحسن والحسين، وأزواجنا عن أيماننا وعن شمائلنا، وذرارينا خلف أزواجنا، وشيعتنا من ورائنا»[1].

أقول بعد التوكّل على الله سبحانه وتعالى:

إنّ أول أمرٍ يستفاد من هذا الحديث هو أنّ عليَّ بن أبي طالب كان محسوداً في زمن النبيﷺ، ولا زال حسد الناس إياه يتعاظم حتى لم يجد بداً من أن يشكو ذلك إلى رسول اللهﷺ ولم يشكّك النبي الأكرمﷺ في ذلك ولا راجع علياًعليه السلام، بل قابله بما يسلّيه ويزيده صبراً وثباتاً، وكأنه يقول له: يا عليّ، إنّي أعلم ذلك، لكنّه لا يضرك شيئاً، فإنّك رابع أربعة أول من يدخل الجنة.

والأمر الثاني الذي يستفاد من هذا الحديث هو أن النبيﷺ بشّر علياً بأنّه رابع أربعة أول الداخلين إلى الجنة. فبغضّ النظر عن الأحاديث التي أقحم فيها أناس إقحاماً ليعتبروا من المبشرين بالجنّة، فإنّ هذا الحديث يشهد له بحسن الخاتمة.

---

(١) أحمد بن حنبل، كتاب فضائل الصحابة: ج٢ ص٦٢٤، رقم ١٠٦٨.

الأمر الثالث الذي يُستفاد من الحديث، هو أنّ شيعة علي هم الفرقة الناجية يوم القيامة بشهادة النبي ﷺ، فإنّه يقول بصراحة وشيعتنا من ورائنا! فجعل ﷺ شيعته وشيعة علي شيئاً واحداً. فشيعة علي عليه السلام شيعة رسول الله ﷺ.

والأمر الرابع هو أنّ شيعة أهل بيت رسول الله ﷺ أول الأمم دخولاً إلى الجنة. فإن النبي ﷺ قال: وشيعتنا من ورائنا، ولم يقل شيئاً مما يوهم التّراخي أو الانقطاع، بل قال: وشيعتنا من ورائنا، فدلّ ذلك على أنه بلا فصل. فهو موكب واحد في مقدّمته رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، والأزواج عن الأيمان والشمائل، والذراري خلف الأزواج، والشيعة من ورائهم. فهو موكب واحد لا غير.

ولا ريب أن في الحديث فوائد أخرى، يحظى بها من سهّل الله لهُم سُبُل الفهم.... .

تمهيد

من حقّ المسلم أن يعرف ما جرى في تاريخ الإسلام حتّى يشخّص أسباب الداء العضال الذي تعانيه الأمة، باعتباره فرداً من أفرادها ومرتبط المصير بها. ومن حقّه أيضاً أن يتّخذ مواقفَ يمليها عليه ضميره بعيداً عن التّلقين والإيحاء. وليس من حقّ أحد أن يمنعه توظيف العقل الذي منحه الله، والذي به يثاب وبه يُعاقَب. لذلك ينبغي إعادة النظر في كثير من التّراث الذي ورثناه مسلّمين بصحّته، مصدّقين أنّ الذين أسّسوا بنيانه ثقات، عُدول، حريصون على مصلحة الإسلام والمسلمين؛ وإنّ دراسة واعية نزيهة للتّراث كفيلة بأن تؤدّي إلى رأب الصّدع، وإزالة الحصانة والقداسة التي أضفيت على بعض الرّموز التاريخية، والتي تركت كثيراً من أبناء المسلمين يعيشون في دفء وهميّ تغذّيه الأيدي الخفيّة التي تعمل ليل نهار لمنع المسلمين من السّير على الدرب المستقيم وفق المنهاج القويم. وإنّه لمن المؤسف أن يكون للباطل دُعاة يرتَقون المنابر ويخطّون بأيمانهم ما فيه مساس بساحة النّبيّ الأكرمﷺ وهم مع ذلك يجدون من يدافع عنهم ويصحّح تُرهاتهم. بينما يُضايَق الذين يأمرون بالقسط من النّاس وتوجّه إليهم التُّهم وتُشوّه صورهم وتُحرّف أقوالهم وكل ذلك باسم الإسلام وفي سبيل الإسلام.

وليس غريباً أن تحْدث بعد وفاة النبيﷺ أحداث تتنافى ومبادئ الإسلام السامية وقيمه الرفيعة، بعد أن حذّر من الرّدّة والفتنة وأخبر عن أمور انقطعت بها حجة كل متعلّل، مبيّناً أنّ الأمّة ستتبع سنن الأمم السالفة حذو النّعل بالنعل، ولكنّ الغريب أنّ يعمد مسلمون إلى الدّين فيفصّلوه

على مزاج فلان ورأي الطائفة الفلانية والفرقة الفلانية، ويعتبر كل معترض على ذلك مارقاً من الدّين! هذا المسلك له أتباعه وأعوانه الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[1]. وهذا المسلك هو المتسبب في كثير ممّا حل بالمسلمين، لأنّه يمنعهم من ممارسة حرّية التّفكير التي تنتج الفكر البنّاء وتقضي على الجهل والجمود. وإذا كان الإسلام يدعو إلى التفكّر والاعتبار، إلى درجة أن جعل تفكّر ساعة خيراً من عبادة سبعين سنة، فإنّ واقع المسلمين لم يزل يُمارس الرقابة على الفكر ويروّج للتملّق والاسترزاق باسم الدين، والمتاجرة بالمبادئ إلى أن وصلت الحال إلى ما وصلت إليه. ومنْ أنصفَ لم يخفَ عليه أنّنا في وادٍ وما يدعو إليه ديننا في واد. فديننا يمجّد القيم ويدعو إلى الإصلاح، وتاريخنا طافح بالمآسي والمظالم، ومع ذلك لا نزال نصرّ أنه كان العصر الذهبيّ وعصر النّور، وزمان عزّة الإسلام والمسلمين، وما أكثر من يحنّون إلى ذلك العهد ويتمنّون أن يعود.

مضى على رحيل النبي الأكرم ﷺ أربعة عشر قرناً، مورست أثناءها كلّ أنواع الظّلم والاضطهاد ضدّ أهل بيته عليهم السلام، منْ قتْل ونفْي وتشْريد وإهانة، هذا مع أنّه ﷺ لم يزلْ يغتنمُ الفرصة بعد الفرصة، يوصي فيها الأمة بأهل بيته عليهم السلام، ويحذّر من إيذائهم وظلمهم، ويصرّح أنّ الله تعالى سائلَ الأمّة جميعاً عنهم، نزل بذلك قرآنٌ يُتلى وأحكامٌ تجرى، ولكن لا حياة لمن تنادي؛ بل أكثر من ذلك، تعاملت الأمّة مع أهل بيته بطريقة لم يعامَل بها أحد، فغصبوا الحقوق وقتلوا الرّجال وسبوا النّساء وأعلنوا السّبّ والشّتم

---

(١) سورة البقرة: ١١.

واللّعن على المنابر وفي المحافل، وشاركت في ذلك أقلام مأجورة وحناجر مسعورة، والويل كل الويل لمن رأى في ذلك انحرافاً أو جفاءً، بل ذلك هو عين السُّنّة!

والعجيبُ أن سيرة كثير من علماء الأمّة حيالَ أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله لم تتغير عبر العصور، وكأنما يتواصون بقطيعتهم والوقيعةِ في أتباعهم مع علمهم بالحقيقة ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾(١).

ويكفي للتّحقّق من ذلك ملاحظة ردود الفعل التي تحدث حينما يذكر لأهل البيت عليهم السلام فضلٌ في محفَل أو صحيفَة أو كتاب، فإنّ جهات كثيرة لا تتردّد في تفسيق القائل واعتباره من كبار المنحرفين الضّالين، ويصل الأمر أحيانا إلى إرهابه وتهديده... .

أقول: لماذا الإصرار على هذه العداوة؟ ولماذا الإصرار على كتمان فضائل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله؟

أليس حبّهم فرضاً في الكتاب المنزل؟ ألم يهتفِ النبيّ صلى الله عليه وآله في مواطنَ عديدة ومناسبات متكرّرة بذلك؟ بمَ استحق أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله كل هذه العداوة والبغضاء؟

إنّ حب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله من صميم الإسلام، لا يدفع ذلك أحد، وإنّ القرآن يشهد بذلك وسيبقى يشهد به، كما أنّ أحاديث النبي صلى الله عليه وآله قطعت عُذر كلّ معتذر، فمن أين استحلّ منهم المسلمون ما استحلّوا؟ أليسوا يتلون قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

---

(١) النمل: ١٤.

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١].

وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ من كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً﴾**[٢].

وقوله تعالى: **﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾**[٣].

وقوله تعالى: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾**[٤]... وقد سأل أبوبكر رسول الله ﷺ: إن كان بيت فاطمة منها، فأجابه: نعم، ومن أفاضلها. ومع ذلك سولت له نفسه فسمح أن يهجم عليه بالنار، ثم تفطن لعظيم جرمه على فراش الموت فقال: وددت أني لم أكشف بيت فاطمة ولو أغلق على حرب.

وقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾**[٥].

وقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾**[٦].

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الإنسان: ٥ ـ ٨.

(٣) الشورى: ٢٣.

(٤) النور. ٣٦.

(٥) المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

(٦) الصف: ٤.

وللعاقل المنصف أن يقول: لقد وهب المولى سبحانه وتعالى النّاس حريّة التّصرف واعين بمسؤوليتهم بعد ذلك فقال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فليَذَرُوهم واخْتيَارهم. لماذا يحولون بينهم وبين معرفة أهل بيت نبيهم؟ أو ليسوا يصلّون عليهم كلّ يوم في صلواتهم تماماً وقصراً؟ أليست مودّتهم مفروضة في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]؟

فلماذا تزوَرّ الصّدور كلّما ذكرت لآل المصطفىﷺ فضيلة وكأنّما هُدّد ناموس الشّريعة فأصبح الإسلام في خطر؟!

لقد قام النبيﷺ بأداء رسالته على أحسن وجه على الرغم من كل ما لاقاه، وكان يقدّم أهل بيته إلى القتل في سبيل الله تعالى، فاستشهد عبيدة بن الحارث ثُمّ حمزة بن عبد المطلب، ثُمّ جعفر بن أبي طالب... ليرقى المنبر الشريفَ في آخر الأمْر معاوية ومروانٌ يُروّجان لثقافة الحقد، مع أنّ كلّ واحد منهما جرى لعنُه على لسان رسول اللهﷺ وليس في ذلك انحراف بل هو عين الصواب!

ولنفترضْ أنّ مسألة الإمامة ليست واضحة وأنّه لا نص عليها، أليس أهل بيت النبيﷺ مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم؟ فما بالهم يُقتلون بتلك الطّرق الفظيعة الشّنيعة المريعة؟ وفي أيّ شريعة أوجب الله على الرّضيع البيْعة وإلاّ ذُبح من الوريد إلى الوريد؟ ومن ذا الذي يحبّ أن تُسبَى نساؤه وذراريه ويُسار بهم في الفلوات أيّاماً وليالي حفاةً جياعاً ظماءً؟ إنّ الذين فعلوا ذلك بذريّة رسول اللهﷺ لم يرقُبوا فيه إلاً ولا ذمّة، ولا

---

(١) الشورى: ٢٣.

يعتريهم الحياء من الله تعالى حين يترنّمون بآياته قائلين: ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾[١]، وهم مع ذلك يجدُون من يُدافع عنهم رغم كل ما ورد في الشّريعة من نهْي عن الدّفاع عن الباطل.

إنّ تاريخنا يحتوي على كثير من المتناقضات، ولابدّ لنا من مناقشتها؛ كما أنّ تغافلَنا وتجاهلَنا لأُمور هي من صميم الدّين لا يزيد الأمور إلاّ تعقيداً. وبناءً على ذلك يغدو لزاماً في أعناقنا أن نتجرّد من التّعصّب ونُزيحَ حُجُب التّقليد لرؤية الحقيقة، كما يريد لنا القرآن الكريم لا كما يريد الذين يتّبعون الهوى. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

ثُمّ ما فائدة التّديّن إذا كنا في آخر الأمر نقف إلى جنب الباطل في وجه الحقّ ونزعم أنّ الله سبحانه وتعالى سيغفر لنا؛ لأنّ النّية حسنة ولأنّنا نريد الحفاظ على الدّين؟ أنكون أحرص على الدّين من ربّ العالمين؟! وأيّ عقل هذا الذي يعتقد أنّ الحفاظ على الدّين يتمّ بالوقوف إلى جنب الباطل في مواجهة الحقّ؟ بل أيّ دين هذا الذي يواجه الحقّ؟

أمّا الإسلام الحنيف الذي ارتضاه المولى سبحانه وتعالى للبشريّة فإنّ موقفه من الباطل وأهله لا يقبل الجدل: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾[٣]؟ وأمّا الدّين الذي صاغته الأمْزجة والهوى والحنين إلى الجاهليّة فإنّه لم يجرّ على أمّتنا سوى الويلات، وسيبقى يفعل ذلك ما دمنا نتعامى ونتغافل

---

(١) الرحمن: ٦٠.

(٢) فصلت: ٣٣.

(٣) يونس: ٣٢.

ونتمسّك بالأوهام، كما تمسّك بها أهل الكتاب من قبل. وإنّ واجبنا قبل كل شيء هو مواجهة أنفسنا ودعوتها إلى اتّباع الحقّ بما هو حقّ، لا ما سمّاه أسلافنا حقّاً حتى إذا ما عُرض على الموضوعية والنّزاهة ذهب جُفاءً، ورُحنا ننتصر له بالمعاذير الباطلة والاستدلالات العليلة؟ وإننا لن نكون من أهل الحقّ حتّى نعرف أهله الذين نصبهم الله تعالى أدلاّء عليه، وننصاع طائعين راضين. وإنّما يتيسّر ذلك إذا عملنا بالأخلاق الإسلاميّة في الحوار وتحاكمْنا إلى العقل الذي فُضّلنا به على كثير من المخلوقات، وسمّينا الأشياء بأسمائها، وقبلنا النّقد البنّاء ورفضنا المجاملة والمداهنة. وهذا من صميم ديننا الذي أمرنا الله تعالى فيه أن نكون مستجيبين للحقّ، سواء كان لنا أم علينا.

للتّأمّل

يولد الواحد منّا في بلد لم يخترْه ومن عشيرة لم يخترها، ويجد أمامه ثقافة جاهزة ينصهر فيها ويتلقّى من المعارف ما شاء الله أن يتلقى قلّ أم كثر، ثم ينضج فكره ويصبح صاحب رأي وموقف.ثم يأتي عليه يوم يلاحظ فيه تناقضات كثيرة بين ما يؤمن به وما يمارسه، وهنا تبدأ المعركة الداخلية بينه وبين ضميره. معركة داخل الإنسان بينه وبين نفسه. معركة بين الاستجابة للحقّ واتباع الهوى. معركة بين السمو الروحي والهبوط الحيواني، وبعبارة قرآنية "معركة السرائر". ماذا يقول الإنسان في سريرته حينما يلاحظ تناقضاً في دينه؟ وهنا يفترق الناس.

منهم من يريد العافية والمحافظة على وضعيّته الاجتماعية فلا يرى نفسه مكلّفاً بشيء، انطلاقاً من مبدإ ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1]! وهذا

(١) البقرة: ٢٨٦.

الصّنف من النّاس ليس لديه احترام لنفسه؛ لأنّ أهونَ شيء عنده دينُهُ، فهو إذا أراد أن يأكل تخيّر أفضل الأطعمة، وإذا أراد أن يلبس تخيّر أفضلَ الألبسة، وإذا أراد الزواج فلا تسأل عن الخبر، حتى إذا تعلّق الأمر بالدّين تساهلَ وتسامحَ وغضّ الطرْف واعتبرَ كلَّ شيء صحيحاً ومنَّى نفسه الأماني.

ومنهم من يكون قد تقدّم في تديّنه بحيث يُستمع إليه إذا تكلّم ويُستشار ويُستفتى وقد يترقّى اجتماعيّاً بسبب تديّنه، حتى إذا تشابهت الأمور كان أهمّ شيء عنده ألاّ يفقد منصبَه الديني ووضعيّته الاجتماعية، فيجنّد نفسه للدّفاع عن ذلك، ويتخلّف عمّا عاهد عليه الله من الصّدق والإخلاص، فيغتنمها منه الشّيطان ويصيب منه المقتل، فيفتح له باب الإفتاء ويحيطه بالشُّبهات ويُعتّم عليه ويُطلعه على أقوال شيوخ السّوء ممّن ساءت نيته وتلوّنت سريرته فخذله الله تعالى ووكَله إلى نفسه. وهذا الصّنف يصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ومنهم من يبقى حائراً متردّداً لا يدري ما يفعل، إذ لا هو مقتنعٌ بما هو عليه ولا هو مطّلعٌ على بديل، فيخشى على نفسه الضّلال، خصوصاً إذا كان دينُه من قلبِه بمكان.

ومنهم من هو في غنىً عن الوضعيّة الاجتماعيّة والمنصب، ومع ذلك

---

(١) الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

لأسباب يعلمُها الله تغلِبُ عليه الشَقوة ويُؤثر الباطل على الحقّ، ويصبح من دعاته المتفانين...

ومنهم الذين يستمعون القول فيتّبعون احسنه...

ومنهم...

ثمّ ماذا لو ساءل المرء نفسه كأن يقول مثلا: لو أنّني خُلقت في محيط بوذيّ أو هندوسيّ، هل أعرف من نفسي ما يطمئنني إلى أنّي أكون بسهولة من المهتدين؟

ولو أنّني ولدت في وسط يهودي أو مسيحي، أتراني كنت أعتنق الإسلام لأول ما يتبين لي الحقّ؟

أتراني أكون مستعداً لفراق الأهل والعشيرة والتّقاليد والرسوم...؟

مثل هذه الأسئلة تمثّل المحكّ الذي يكْشف عن خفايا النّفوس وخباياها، ولذلك ترى كثيراً من النّاس يفرّون من طرْحها؛ لأنّها أشبهُ ما تكون بالمرآة، تعْكس الشّيء نفسه لا أقلّ ولا أكثر، والإنسان يعرف من ذاته الدّفاع عن النّفس الأمّارة ويتمحّل في التّأويل والتّلفيق، ويريد أن يقولَ إنه دائماً على صواب ولكنّ الآخرين لا يفهمونه، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً.

نعم، لو أنّني خلقتُ في محيط بوذيّ أكنت أقبل على الإسلام لأول ما يتبيّن لي الأمر؟

إنّها نعمة لا تعدلها نعمة أنّي ولدت في مجتمع مسلم من أبوين مسلمين، فقد كُفيت مؤونةَ البحث والحيرة، ودخلت سنّ التّكليف غير ملوّث بالشّرك. وما أكثر أطفال العالم الذين لم يحظوا بهذه النّعمة، ولم يزدهم آباؤهم

وأمّهاتهم إلا بعداً عن الطريق السّويّ، إلاّ أن تدركهم العناية الإلهيّة. وقد أوتيت هذه النّعمة من غير استحقاق فهل أنا في مستوى الشّكر؟

إنها أسئلة صعبٌ طرحُها، وأجوبتُها أصعب! فإنّ قال المتسائل نعم أنا في مستوى الشّكر كان مزكّياً لنفسه، مخالفاً لقوله تعالى ﴿فلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[1] وإن قال لا، كان شاهداً على نفسه بكفران النّعمة. والسّكوت أَسلَم لكنّه لا يحلّ المشكلة.

ومن هذا القبيل أيضاً أن يقول مثلا: لو أنّني كنتُ في مكّة زمنَ البعثة النّبويّة الشّريفة، مع مَن كُنت أمضي؟ مع رسول اللهﷺ والأبرار، أم مع أبي جهل والوليد بن المغيرة و...؟

صحيحٌ أنّ ذلك من الغيْب، ولكنْ هناك أمور يُستشفّ من ورائها موقفُ الإنسان لا تكهّناً ورجماً بالغيب، بل بناءً على مؤهّلات واقعيّة اختياريّة، وهل نعجبُ عنْد سماع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2]؟ هؤلاء رأوا العذاب الذي لا طاقةَ للبشر بوصْفه، لكنّهم لأول لحْظة يتمكّنون من الاخْتيار يختارون مُتابعة الهوى، فكيف نعجبُ ممّن يتّبع هواهُ ولمْ يرَ العذاب؟

إنّ موقفَ الإنسان الواقعيّ يكشف عن موقفه الافتراضيّ، بمعنى أنّه من خلال مواقفه يستطيع أن يتصوّر بصورة تقريبيّة موقفه من رسول اللهﷺ لو وُلد في زمانه. فما عليه إلا أن يَعرضَ سلوكه المعنويّ على توْجيهات وإرشاداتِ وأوامرِ النبيﷺ ويتبيّن من خلال ذلك في أيّ صفّ يكون،

(١) النجم: ٣٢.

(٢) الأنعام: ٢٨.

معه أم عليه؟

نعم، السّلوك المعنويّ لا العبادات التي أُفرغت من محتواها فأضْحتْ من المكمّلات الشكليّة!

والمقصودُ من ذلك أنّ الإنسان إذا كان صادقاً في معتقداته فإنّه يحوطُها ويدافع عنْها، ويتأذّى من كلّ ما يسيء إليها. أمّا إذا كان لا يُبالي أن تُهان مقدساته فإنّه لا يكون إلاّ كاذباً في دعْواه. وشواهدُ ذلك لا تخفى على من كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد.

والإنسان مكرّم من عند الله تعالى ومفضّل على كثير من المخلوقات إذا هو حافظ على إنسانيّته، وتمسّك بما آتاه الله تعالى من المعرفة؛ لكنّه لن يكونَ كذلك حالَ تفريطه فيها وانقياده للهَوى، بل يسفُلُ إلى أن يغدوَ دون البهائم منزلة مهما صورّ لنفسه ولبس عليها، وديـنُ الإسلام الحنيف آخرُ الرسالات السّماوية، جاء ليسهّل على الإنسان السيّر في طريق تكامله وكدْحه إلى ربّه، فما تركَ مكْرمةً إلاّ دعا إليها، ولا رذيلةً إلا ذمّها وحذّر منها. وضَمنَ السعادةَ في الدّارين لمن أحسنَ التأسّي والاقتداء ولم ينسقْ وراء هوى النّفس وشهواتها. ومع ذلك حينما نلتفت إلى تاريخنا الذي كتبه أسلافنا نكاد لا نصدّق. نعم، لا نصدّق لأنّ المعايير الدينيّة تدخّلتْ فيها يدُ الإنسان وسنّت الكيْل بمكْيالَيْن، وأعظمُ منه أنّه يجب علينا أنّ نرضى بذلك دون أدنى نقاش وإلاّ كان الخروج من الدّين!

لقد قال رسول الله ﷺ في آل بيته ما قال، وهو لا يقول إلاّ حقّا، بشهادة القرآن الكريم له بذلك ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ

بِالْيَمِينِ﴾[١] لكن مع ذلك، إذا خالفته الأمّة وقتلت أهل بيته ومثّلت بأجسادهم وسَبَتْ بناته وحملتهنّ على العجف في الفَلوات تحت حرّ الشّمس الملْهب، وبالغت في أذاهم بما لا مزيد عليه فعرّضتهم للضّرب بالسّياط والعطش والجوع بحيث لا يسلم من ذلك امرأة ولا صبي؛ كلّ ذلك يجب حملُه على المحمل الحَسن واعتبارُه إكراماً لهم وأداءً لحقّ المودّة المفروض في القرآن الكريم. ليقلْ عنهم إنّهم سادة، فاطمة سيّدة نساء العالمين، وسيّدة نساء أهل الجنّة، والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة وأبوهما خيرٌ منهما، فإن ذلك لا يمنع الأمّة من قتلهم إذا رأت في ذلك مصلحةً للإسْلام. ألم ترَ الأمّة مصلحة الإسلام في اغتيال النبيﷺ ليلة العقبة لولا لطفُ الله ورحمته؟ إن في الأمّة من يعرفُ مصلحة الإسلام أفضل مّما يعلمه رسول اللهﷺ ولذلك فإنّه ـ حرصاً على الإسلام مِنْ أنْ يضيّعه الرّسول بقرار في الساعات الأخيرة من عمره الشّريف ـ عارضه واعترضَ عليْه وأبطل أمره ونسخ حكمه، وبقي الإسلام بخيْر والحمد لله. هذا ما تعتقده بعض العقول، وإن كانت لا تفصح عنه هكذا بشفافيّة مخافةَ التّشنيع. وعلى كلّ حال ما محمّد إلاّ بشرٌ اختاره الله لتبليغ القرآن وقد فعل فشُكْراً له، وليس لهُ أن يحكُمنا من وراء القبْر، فإنّ في الأمّة محدّثين! هذا ما تفْصح عنْه أعمالُهم.

أقول هذا لأنّه يؤلمني مُجرد تذكّري لما كنّا عليه من اعتقاد فاسد في مَقام الأنبياء بناءً على التّقليد الذي شدّ أزره المبشّرون الوهابيونَ في بلاّدنا، كما يؤلمني ما كنّا عليه حيال هؤلاء الذين يُسمّون أنفسهم سلفيّين إذ

(١) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٥.

نحسن بهم الظَنّ ونتصوّرهم من أهل الآخرة. هؤلاء الذين يرون المعتقد بعصمة الأنبياء من شرار الخلق، لأنّ ذلك يؤدّي ـ بزعمهم ـ إلى ردّ القرآن والسنّة، وفي نفس الوقت يرون الصّحابة معصومين من الخطإ، مَرضيّاً عنهم أحسنوا أم أساءوا!

لكنّ الذي يحترم نفسه ويربأ بها عن التفاهات لا يقتدي إلا بمن تحلّى بصفات الخير ونأى عن الشّرّ، وقدّم المصلحة العامّة على مصلحة نفسه، ودفع الأثرةَ بالإيثار والرّياءَ بالتّواضع. ذلك هو الذي إذا ادّعى التّديّن صدّقه الملائكة والصّالحون وطابق قولُه فعلَه، فلم يحتجْ إلى مدح المادحين ولم يُبال بذمّ السّاخطين، لأنّه على بصيرة من أمْره، في كلّ صغيرة وكبيرة فيعيش سعيداً، ويمضي شهيداً ولو مات على فراشه. إنّه إذا ادّعى حُبّ رسول اللهﷺ وأهل بيته كان له من عمله شاهدٌ، وإذا ادّعى الحُبّ في الله والبُغض في الله كانت مباينته للظّالمين دليلاً على صدقه، فلا يحتال ولا يغشّ ولا يلبّس على نفسه، وكيف تحدّثه نفسه بشيء من ذلك وقد أيقن أنّ الشّاهدَ هو الحاكم؟!

وبين المسلمين خلافاتٌ فكريّة كثيرة وقديمة، ومن أكْبرها وأرْسخها في النّفوس ما يتجلّى في مسألة عدالة جميع الصحابة، إذ عليها ترتّبت نزاعات وأُريقت دماء وانتشرت تيّارات. وإنّما اختلفوا فيها لاختلافهم في الاعتبارات والبصائر لا غير. ولا شكّ أنّ مَن جعل كلامه حاكماً على كلام مولاه تائهٌ عن طريق الحقّ متسكّعٌ في سُبُل الباطل، ولا تزيده سرعةُ السّير إلا تيهاً وضلالاً. يتباينُ النّاس في القوْل والاعتقاد بعدالة الصحابة بين قائل بعدالتهم جميعاً وقائل بكونهم كغيرِهم في الإحسان والإساءة وما يترتّب على ذلك، وأنّ ليس للإنسان إلا ما سعى. والمشكلة في هذا الأمر أنّ

الباحث يجد القول بعدالة جميع الصّحابة عند التمعّن والرّجوع إلى القرآن مستلزماً التشكيك في كتاب الله تعالى بخصوص من أخبر بسوء خاتمتهم، كما يستلزم ردّ كثير من السُّنّة الواردة في كتب المسلمين من كل المذاهب. وبين عدالة الصَحابة وعصمة الأنبياء بَوْنٌ شاسعٌ من شتّى الجهات. وقد جرت العادة لدى كثير من علماء الجمهور بكتمان أو تأويل كلَّ ما لا يُلائم مدّعياتهم ومبانيَهم، ولو صدر من أخيارهم. لكن ذلك لم يمنع بعضَهم من التّصريح بما يُخالف ما هو شائع عندهم تقليدا بغير علم، وإن كان لا يُرضي كثيرا ممن حوله، والحقّ يُنطقُ منصفاً وعنيداً.



الفصل الأول

مسألة عدالة الصحابة



مسألة عدالة الصحابة

يقول سعد الدين التفتازاني في (شرح المقاصد) بخصوص مسألة عدالة الصحابة، ما نصّه:

«... يعني أنّ ما وقع بين الصّحابة من المحاربات والمُشاجرات على الوجه المسطور في كتب التّواريخ والمذكور على ألسنة الثّقات يدلُّ بظاهره على أنّ بعضهم قد حادَ عن طريق الحقّ وبلغَ حدّ الظّلم والفسق! وكان الباعثُ عليه الحقدَ والعنادَ والحسدَ واللّدادَ وطلبَ الملك والرّياسات والميلَ إلى اللّذّات والشّهوات؛ إذ ليس كلّ صحابيّ معصوماً، ولا كلُّ من لقي النبيّ بالخيْر موسوماً؛ إلاّ أنّ العلماء لحُسن ظنّهم بأصحاب رسول الله ﷺ ذكروا لها محاملَ وتأويلات تَليقُ بها، وذهبوا إلى أنّهم محفوظون عمّا يوجب التّضليل والتّفسيقَ، صوناً لعقائد المسلمينَ من الزّيغ والضّلالة في حقّ كبارِ الصّحابة، سيما المهاجرينَ منهمْ والأنصار المبشرينَ بالثّواب في دار القرار. وأمّا ما جرى بعدهم من الظُّلم على أهل بيت النبي (صلى الله عليه وسلّم) فمن الظُّهور بحيثُ لا مجالَ للإخفاء ومن الشّناعَة بحيث لا اشتبَاهَ على الآراء إذ تكاد تشهد به الجمادُ والعجماءُ ويبكي له من في الأرض والسماء وتنهدُّ منه الجبال وتتشقّق الصّخور ويبقى سوء عمله على كرّ الشّهور ومرّ الدهور فلعنة الله على من باشره أو رضي أو سعى ولعذاب الآخرة أشد وأبقى»[1].

وهو كما ترى يلعن المباشرين والسّاعين والرّاضين، ومن السّاعين مروان بن الحكم، ومن الرّاضين النّعمان بن بشير الذي حفلت بأحاديثه

---

(١) شرح المقاصد، التفتازاني: ج٥ ص٣١٠ـ ٣١١، منشورات الشريف الرضي ١٤٠٩هـ.

صحاح المسلمين، مع انّه كان من وزراء معاوية المقرّبين. ومن المباشـرين بصورة خاصّة عُمر بن سعد بن أبي وقّاص. الذي يقولـون عنـه فـي علـم الرّجال "صَدُوقٌ"، وإنّما مقته النّاس لأنّه كان على رأس الجيش الـذي قتـل الحسين".

لكن، لسائلٍ أن يسأل عن معنى صون عقائد المسلمين فـي حـقّ كبـار الصّحابة والحالُ أنّ كثيراً منهم لم يكونوا في المستوى المطلوب، سواء كان ذلك من ناحية صحّة المُعتقد، أم من ناحيةِ استقامة السلوك. فقد جـاء فـي كتاب سيرة ابن هشام ما يلي: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، وكانت لكفّار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقـال لهـا ذات أنواط، يأتُونها كلّ سَنة يعلّقون عليها أسلحتّهم ويذْبحون عنْـدها، يعكفُـون عندها يوماً. فرأينا يوماً ونحن نسيرُ مع النبـيّ ﷺ شجرة عظيمـة خـضراء فسترتنا من جانب الطريق فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنْواط كما لهـم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر. الله أكبر قُلتُم والذي نفـسي بيـده كما قال قومُ موسى اجعلْ لنا إلهاً كما لهُم آلهةٌ قال إنّكم قوم تجهلون»[١].

إنّ هذه الواقعة كانتْ في الطّريق إلى حنين، وغزوة حنين كانت بعد فتح مكة في السنّة الثامنة للهجرة، وقد كان مرّ علـى بعثـة النّبـيّ وابتـداء نـزول الوحْي يومَها عشرونَ سنة! وإنّ أُناساً يسيرون في جيْش على رأسه رسـول الله ﷺ يُعرّضـون أنفُسَهم للقتـل، ويريـدون فـي نفـس الوقـت التـشبُّهَ بالمشركين في طقوسهم لفي حَيرة ما بعدها حيرة؛ كما أنّ القرآنَ وهـو أوّل مصدرٍ من مصادرِ التشريع الإسلامي يُبطل مقولة عدالتهم جميعاً وينفي عن

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام: ج٤ ص٨٦.

كثير منهم الإيمانَ صريحاً. فهذه سورةُ التوبة وهي من أواخر السّوَر نـزولاً، تتناول غزوة تبوك التي هي آخر غـزوات النبـيﷺ باتّفـاق المـؤرخين، وتقسّم الصحابة أصنافاً وطوائفَ، وتشير إلى مصير بعـضهم بـسوء العاقبـة وما هُو من ذاك القَبيل. وقبل النَّظرِ فـي مـسالة عدالـة الـصحابة فـي ضـوء القرآن الكريمِ لا بأسَ بالإشارة إلى عاقبـة بعـضِ الـصَّحابة الـسَّابقين إلـى الإسلام، فإن فيها عبرةً لمَن تدبّر، وأعملَ الفكر؛ فهَذان رَجُـلان مـنْهم هُمَـا عُبيد الله بن جحش بن رئاب وعبد الرحمن بن عديس البلويّ:

أما عبدالرحمن بن عديس البلوي فإنّهُ ممّن بَـايَع تحـتَ الـشجرة، ومـع ذلك فقد كانَ على رأسِ الجيش الذي توَجهَ من مصْر إلى المدينة في الفتنـة التي انتهتْ بقتلِ عُثمان، والحالُ أنّ عثمان قُتلَ مظلوماً على ما يـذهبونَ إليـه. ذكرَ أمر ابن عديس كلٌّ من ابن أبي شيبة في مصنفه[1] وابن حجر فـي فـتح الباري[2]، وذكر في تلخيص الحبير أنّه كان يصلي بالنّاس تارة طلحـة وتـارة عبد الرّحمن بن عديس وتارة غيرهُما أيّام حصار عثمان[3].

وأما عبيد الله بن جحش فهو من أصحابِ الهِجرةِ الأُولى إلـى الحبـشة، تنصّر ومات على النّصرانيّة، كما هو مذكور فـي المـستدرك وحاشية ابـن القيم وتاريخ دمشق[4].

وأوضحُ منه ما جاء في المعجم الكبير عن عبد الرحمن بـن جـابر عـن

---

(١) المصنف: ابن شيبة: ج٧ ص٤٩٢، وج٨ ص٤٣، وج٨ ص٤٤٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر: ج٢ ص١٥٩ وج٣ ص٤٨١.

(٣) تلخيص الحبير، ابن حجر: ج٤ ص٥٣٧.

(٤) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٤ ص٢٠، كتاب معرفـة الـصحابة وحاشية ابـن القيم: ج٦ ص٧٤ـ ٧٥ وفي تهذيب الكمال: ج٣٥ ص١٧٥ وتاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣ ص١٧٣.

أبيه، قال: «كان بين عمّار بن ياسر ووديعة بن ثابت كلامٌ، فقال: وديعةُ لعمّار: إنّما أنت عبدُ أبي حُذيفةَ بن المغيرة ما أعتقكَ بَعْدُ، قال عمّار: كم كان أصحاب العقبة؟ فقال: الله أعلم، قال: أخبرني عن علمكَ: فسكَتَ وَديعَةُ، فقال: من حَضَرَهُ أَخبَره عمّا سألك، وإنّمَا أراد عمارُ أن يُخبرَهُ أنّهُ كَانَ فيهم، فقَالَ: كنّا نتحدّثُ أنهُمْ أربعةَ عشَر رجلاً، فقال عمّار: فإن كنتَ فيهم فإنهم خمسةَ عشرَ، فقال وديعةُ: مهلاً يا أبا اليقظان أنشدك الله أن تفضَحني، فقال عمّار: والله ما سمّيْتُ أحداً ولا أسميّه أبداً ولكنّي أشهدُ أنّ الخمسةَ عشرَ رجلاً اثنا عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»(١).

الصحابة في القرآن الكريم:

القرآن الكريم أوّل مصدر من مصادر التّشريع، وقد تكفّل الله سبحانه وتعالى بحفظه من تلاعب المتلاعبين وتحريف المحرّفين. ولم يختلف المسلمون في أنّه قطعيّ الصّدور، وأنّه هذا الذي بين الدّفتين يتوارثونه جيلاً عن جيل، وإنَّمَا اختلفوا في التّفسير والتأويل؛ وذلك راجعٌ إلى اختلاف المباني وتباين انتماءات المفسّرين والمتأوّلين. وقد وُجدت أحاديثٌ لدى الفريقين تُوهمُ بوجود الزيادة تارةً والنقص أخرى، وهي أحاديث لم يلتفت إليها أهلُ العلم ولم يرتّبوا عليها أثراً. لكنّ المُغرضينَ وجدوا فيها ما تشتهي أنفسُهم لإيقاد نار الفتنة والتّشكيك في أمور العقيدة ورمي الأبرياء بالكفر. وقد تحدّث القرآن الكريم عن كثير من الأحداث

---

(١) المعجم الكبير، الطبراني: ج٣ ص١٦٦.

التي وقعت في زمن النبيّ ﷺ والتي كان بعضها مقدّمة أو سبباً لتشريع الأحكام. ومع التمعّن في أسباب النّزول كما وصلت إلينا، يُمكن استشفافُ الواقع آنذاك وقراءةُ أفكار معاصري النبي ﷺ من خلال سلوكاتهم وأقوالهم ومواقفهم منه وتعاملهم معه ﷺ. ولا شكّ أنّ الصّحابة كانوا عرباً بسطاء قبل مجيء الإسلام، متأثرين بمُحيطهم سائرين وفْقَ التقاليد التي وَجدوا عليها مجتمَعهم والتي قضى النّبيّ ﷺ قسماً كبيراً من عمره الشريف في محاربتها؛ لتخليص النّفوس من شرّها حتى تصبحَ ذات أهليّة لحملِ رسالة الإسلام، وهذا الأمر في غاية الصُّعوبة؛ لأن التَّربية تنْفع بصورةٍ ناجعةٍ إذا صادفتْ سلامةَ النّفس من انحراف سابق، كما هو الشأن لدى الأطفال. أما بعد أن يبلغ الإنسان الثّلاثين فما فوق فإنّ النتائج تدورُ مدارَ الاستعدادات والملكات، فإذا كانت الملكاتُ السيئةُ راسخةً في النّفس فإنّ نتائَج التّربيةِ والتّزكية لا تَكون إلا شكليةً قابلةً للاضمحلال. بخلاف النّفسِ المستعدّة لطلبِ الكمالاتِ بسبب سلامةِ الفطرةِ ونقاءِ المحيطِ، وهذا الأمر واضحٌ جداً في سلوك سلمان وأبي ذر (رضي الله عنهما)، فإنهما لم يكونا متأثرين بالمحيطِ الذي كانا يعيشان فيه، بل كانا يبحثان عن الحقيقة مُتعطِّشَيْن إليها. وحينما وُفّقا لملاقاة النبي ﷺ والتعرّف على الدّين الجديد، لم يزالاَ يترقّيان في مدارج السّمُوّ الرّوحيّ حتّى انتقلا من هذا العالم، تاركيْن للإنسانيةِ صوراً من أرقى ما يصلُ إليه استعدادُ الإنسانِ في الوفاءِ والاستقامة والتّضحية.

في سورة التوبة تَتَبُّعٌ دقيقٌ للمنحرفينَ من الصّحابة الذين حقّت عليهِم كلمةُ العذابِ وعلمَ الله أنّهم يموتون على الكُفر، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾(٢).

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(٤).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾(٥).

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(٦).

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(٧).

---

(١) التوبة: ٦١.
(٢) التوبة: ٧٥ ـ ٧٧.
(٣) التوبة: ٩٨.
(٤) التوبة: ١٠٧.
(٥) التوبة: ٥٨.
(٦) التوبة: ٤٧.
(٧) التوبة: ٥٣.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾[١].

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[٢].

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[٣].

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[٤]. أقول: [هاهنا سؤال يطرح نفسَه: إذا كان الرسول الكريم لا يعلمهم فكيف يعلمهم غيره ولم يشاركه في الوحي أحد؟!]

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٥].

أي ماتوا على الكفر. ومصير من مات على الكفر معلوم عند أولي الألباب.

وفي الواقع، ترى الذين يصرّون على عَدالة جميع الصّحابة ويحاولون إثباتها من القرآن الكريم يستشهدون بآياتٍ لا تفي بذلك، ولو أنهم أنصفوا

---

(١) التوبة: ٦٥.

(٢) التوبة: ٧٤.

(٣) التوبة: ٩٥.

(٤) التوبة: ١٠١.

(٥) التوبة: ١٢٥.

من أنفسهم ويَددوا عن أعينهم غِشاوة الهوى لرأوا بـأعيُنِهم أنّ تلـك الآيـات تنسفُ نظرية عَدالة الصّحابة من أساسها. والآيات من بـاب: لقـد رضـي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة... مع أنّه سبحانه وتعالى لم يقل عن الذين يبايعونك تحت الشجرة وإنما قال "المـؤمنين" إضـافة إلـى أنّ الـذين كانوا تحت الشجرة حدود ٤٠٠ /١ صحابيّ لا أكثر، بينما حضر واقعة الغدير أكثرُ من ٠٠٠ /١٠٠ شخص، فحتّى على فرض عدالة ٤٠٠ /١ الذين بايعوا تحت الشجرة، منْ أيْن لهُم الدّليل على عدالة الباقي؟!!!

قال جلال الدين السيوطي

«وأخرج ابن أبى حاتم عن السدي (رضي الله عنه) قال: بلغنا أنّ طلحة بـن عبيد الله قال: أيحجبنا محمّد عن بنات عمّنا ويتزوّج نساءنا من بعـدنا لـئن حدث به حدثٌ لنتزوّجنّ نساءه من بعده!! فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾[1] وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة (رضي الله عنه) قال: قال طلحة بن عبيد الله: لو قبض النبيّ (صلى الله عليـه وسـلّم) تزوّجت عائشة (رضي الله عنها)، فنزلت ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم في قولَه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال: نزلت في طلحة بن عبيـد الله لأنّه قال: إذا تُوفّي رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) تزوّجـتُ عائـشة (رضي الله عنهـا). بلغنا أنّ طلحة بن عبيد الله قال: أيحجبنا محمـد عـن بنـات

(١) الأحزاب: ٥٣.

عمّنا ويتزوج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوّجنّ نساءه من بعده فنزلت الآية»[1].

والآية المعنية هي قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا**﴾[2].

صاحب هذا التطاول على مقام النبوّة معدودٌ في المبشّرين بالجنّة، وهو أيضاً أحد القادة العسكريّين المتورّطين في معركة الجمل التي راح ضحيّتها سبعة عشر ألف مسلم. وهو مع ذلك يتحدّث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فيسمّيه باسمه، وقد قال الله تعالى: ﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾! من مثل هذا يُفهَم معنى قوله صلى الله عليه وآله: «ما أُوذيَ نبيَ مثل ما أوذيت قطّ»، فلقد رأى من الأذى في ثلاث وعشرين سنةً ما لم يَرهُ نوح في تسعمائة وخمسين.

ألم يرفعوا صوتهم فوق صوته صلى الله عليه وآله فنزل قوله تعالى: ﴿**لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾[3] ؟!

ألم يسيئوا التّصرّف بيْن يديه صلى الله عليه وآله في أمور ليس لهم أن يتدخلوا فيها من دون إذن منه، فنزل قوله تعالى: ﴿**لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[4]؟!

ألم يحرجوه في دخولهم بيته؟! فنزل قوله تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ**

---

(١) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٥ ص٢١٤.

(٢) الأحزاب: ٥٣.

(٣) الحجرات: ٢.

(٤) الحجرات: ١.

نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾[١].

جاء في أسباب نزول الآيات مايلي:

«قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ قال أكثر المفسرين: لما بنى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بزينب بنت جحش أولم عليها بتمرٍ وسُويقٍ وذبح شاة، قال أنس: وبعثت إليه أمي أمّ سليم بحيسٍ في تورٍ من حجارة، فأمرني النبيّ (صلى الله عليه وسلّم) أن أدعو أصحابَه إلى الطّعام، فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون، ثم يجئ القوم ويأكلون ويخرجون، فقلت: يا نبي الله قد دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه فقال: ارفعوا طعامكم، فرفعوا وخرج القوم وبقي ثلاثة أنفار يتحدثون في البيت[٢]، فأطالوا المكث، فتأذّى منهم رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وكان شديد الحياء، فنزلت هذه الآية، وضرب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بيني وبينه سترا. أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الفقيه قال: أخبرنا أبو عمر محمد بن أحمد الحيرى قال: أخبرنا عمران بن موسى بن مجاشع قال: أخبرنا عبد الأعلى بن حماد النرسي قال: أخبرنا المعتمر بن سليمان،

---

(١) الأحزاب: ٥٣.

(٢) من هم الأنفار الثلاثة ولماذا لم يسمّهم أنس بأسمائهم علماً أنّهم من الصحابة ولم يأتوا من بلد بعيد؟!

عن أبيه عن أبي مجلز، عن أنس بن مالك قال: لما تزوّج النبيّ (صلى الله عليه وسلّم) زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، قال: فأخذ كأنّه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلمّا رأى ذلك قام وقام من القوم من قام وقعد ثلاثةٌ، وأنّ النبيّ (صلى الله عليه وسلّم) جاء فدخل فإذا القوم جلوسٌ وأنّهم قاموا وانطلقوا، فجئت وأخبرت النبي (صلى الله عليه وسلّم) أنهم قد انطلقوا، قال: فجاء حتى دخل قال: وذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، رواه البخاريّ، عن محمّد بن عبد الله الرقاشيّ، ورواه مسلم عن يحيى بن حبيب الحارثيّ، كلاهما عن المعتمر»[1].

ثم إن القرآن الكريم يشهد على كثير من الصحابة بسوء الأدب مع النبيﷺ:

ألم يسيئوا الأدب في مخاطبته ومناداته؟ فنزل قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[2]؟

ألم يشاركوا اليهود في الاستخفاف بشخصه الكريم. فنزل قوله تعالى: ﴿لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾[3]؟

ألم يحاولوا اغتياله أثناء رجوعه من غزوة تبوك... فسجل عليهم القرآن ذلك: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾[4]؟

---

(١) أسباب نزول الآيات ـ الواحدي النيسابوري: ٢٤١ـ ٢٤٢.

(٢) النور: ٦٣.

(٣) النور: ٦٣ .

(٤) البقرة: ١٠٤.

إضافة إلى أنّ من بين الصحابة من كان كثير المخالفة للنبيّ ﷺ في حياته وبعد مماته. وتقرير ذلك متيسّرٌ إن شاء الله تعالى، استناداً إلى ما هو ثابت في كتب الجمهور.

وليس العجبُ من غفلة كثير من المسلمين عن هذه الحقائق، إذ طالما عاش المستبصرون ذلك تجربةً شعوريةً خفيتْ عليهم أسبابُها أيّام الحيرة، نظراً لما يكتنف المحيط فكرياً واجتماعياً، وإنّما العجب ممّن يدّعي طريقة الأنبياء والأولياء حتّى إذا صدع الحقُّ راح يُحاول إطفاء نوره بكلّ ما أوتي من جهد وقوّة. ومن يطالع كتب الصحاح والمعاجم والمسانيد بعينٍ غير كليلةٍ يطّلع علَى أمور خطيرة.

الصحابة في كتب الحديث والتاريخ:

وقد رووا في فضل عشرة من الصّحابة ما رووا، وقالوا إنّهم من المبشّرين بالجنّة. فمن ذلك ما ذكره المحب الطبريّ في الرّياض: عن أنس (رضي الله عنه) قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): معاشر المسلمين لو عبدتم الله حتى تكونوا كالحنايا وصُمتم حتى تكونوا كالأوتاد وصليتم حتى قف الركب منكم ثم أبغضتم واحداً من أصحابي العشرة لأكبكم الله في النار على مناخركم. أخرجه أبو سعد في شرف النبوة»[1].

فإنّ يكن الحديثُ صحيحاً فقد هلك أكثرُهم؛ لأنّهم أبغضوا علياً عليه السلام وتآمروا عليه وغصبوه حقّه وحاربوه ولعنوه على المنابر وقتلوا ذرّيّته من بعده، مع علمهم أنّه حبيب الله ورسوله وهو أحد المبشّرين!!

---

(١) الرياض النضرة ـ محب الدين الطبريّ ١: ٢١١ـ ٢١٢.

وإن يكن الحديث باطلاً فقد افتروا على رسول الله ﷺ متعمّدين، وقد علموا قوله ﷺ «من كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعدَه من النّار»[(١)].

وأيضا في الرياض عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): «أرحم أمتي بأمّتي أبوبكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأشدّهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، ولكل نبيّ حواريّ وحواريّ طلحة والزبير، وحيث ما كان سعد بن أبي وقّاص كان الحقّ معه، وسعيد بن زيد من أحبّاء الرحمن، وعبد الرحمن بن عوف من تجار الرحمن، وأبو عبيدة بن الجراح أمين الله وأمين رسول الله، ولكل نبيّ صاحب سرّ وصاحب سرّي معاوية بن أبي سفيان، [!] فمن أحبّهم فقد نجا ومن أبغضهم فقد هلك[(٢)].

وقد أبغض عليّ عليه السلام معاوية في الله تعالى وأبغض معاويةُ عليّاً عليه السلام انتصاراً لأسلافه الذين ماتوا على الشّرك. وسنّ معاويةُ لعنَ عليّ عليه السلام على المنابر فدامَ ذلك ثمانين سنة.

وفيه أيضا: اللهم صلّ على أبي بكر فإنّه يحبّك ويحبّ رسولك اللهمّ صلّ على عمر فإنّه يحبّك ويحبّ رسولك، اللهمّ صلّ على عثمان فإنّه يحبّك ويحبّ رسولك، اللهم صلّ على أبي عبيدة بن الجراح فإنّه يحبك ويحبّ رسولك، اللهمّ صلّ على عمرو بن العاص فإنّه يحبّك ويحبّ رسولك، أخرجه الخلعي[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري، البخاري: ج٢ ص٨١؛ صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ج١ ص٨؛ مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٢ ص٤١٣.

(٢) الرياض النضرة، محب الدين الطبري: ج١ ص٢١٦.

(٣) المصدر نفسه: ج١ ص٢٣٠.

ولا يخفى على القارئ الكريم قفزُ الرّاوي من عثمان إلى أبي عبيدة بغضاً لعليّ بن أبي طالب، وقد علموا قول النبي لعليﷺ: لا يبغضك إلاّ منافق. ولابدّ من الإشارة إلى أنّ هذا الحديث لا يتّفق مضمونه مع ما جاء في القرآن الكريم ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ...﴾[1].

فإذا كان كل واحد من المذكورين يحبّ الله تعالى فلمَ عصَوا رسولَه ولم يتّبعوه بعد أن سمعوا قوله عزوجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ...﴾؟!

لقد تخبّط القومُ في حديث المبشّرين بالجنّة تخبّطاً لا يرتضيه لنفسه عاقل، وليس في العشرة أبو ذرّ ولا سلمان ولا المقداد ولا عمّار، وهم الذين تشتاق إليهم الجنّة. وليتهُم بيّنوا ما امتاز به العشرة عن غيرهم باستثناء أمير المؤمنين علي بن أبي طالبﷺ المطهّر بنصّ الكتاب الكريم.

وفي كتاب العبَر في خبر من غَبر: «صحّ عن أبي وائل عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: رأيت قباباً في رياض، فقلت: لمن هذه، قالوا: لذي الكلاع وأصحابه. ورأيت قباباً في رياض فقيل: هذه لعمّار بن ياسر وأصحابه فقلت: كيف وقد قتل بعضُهم بعضاً؟! قال: إنّهم وجدوا الله واسعَ المغْفرة»[2].

أقول: نعم! لقد اتّسعتْ مغفرتُه سبحانه وتعالى بحيثُ قضتْ على عدله وحكْمته، واستوَى الظّالم والمظلوم والموفي والنّاكث.

هؤلاء قومٌ وجدُوا الطّرق الشّرعية مسدودةً في وجوههم بعدَ أن خالفُوا رسول اللهﷺ مخالفةً لا عُذر لهم فيها، فعمدُوا إلى عالَم صعْبٍ تحديدُ

---

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) العبر في خبر مَن غبر، الذهبي: ج١ ص٣٣، دار الفكر.

معالمه، وانتهجوا في ذلك طريقة الدّراويش، وإلاّ فما قيمة رؤيا رآها مفتونٌ في دينه بعد أن خالف الله ورسولَه وأصرّ على المعصية حتى خرج من الدّنيا؟ وهل يتابعُه على رؤياه إلاّ مفتونٌ مثلُه؟ وعلى كلّ حال هذه الرؤيا ومثيلاتها تصبّ في هوى المرجئة والذين اتّخذوا دينَهم لهواً ولعباً.

وانتقلَ ذلك إلى عالَم الجنّ، حيث أصبحَ فيهم مُدافعون عن الشيخين، كما ذكر عبد الحي الدمشقي في كتابه شذرات الذهب عن الأعمش قال: خرجت في ليلة مقمرة أريد المسجد فإذا أنا بشيء عارضني فاقشعرّ منه جسدي، وقلت: أمن الجنّ أم من الإنس؟ قال: من الجنّ، فقلت مؤمن أم كافر؟ فقال: بل مؤمن، فقلت هل فيكم من هذه الأهواء والبدع شيء؟ قال: نعم، ثم قال، وقع بيني وبين عفريت من الجنّ اختلاف في أبي بكر وعمر، فقال العفريت: إنهما ظلما عليّاً واعتديا عليه، فقلتُ: بمن ترضى حكماً، فقال: بإبليس [!!] فأتيناه فقصصنا عليه القصّة فضحك: ثم قال: هؤلاء من شيعتي وأنصاري وأهل مودّتي، ثم قال: ألا أحدّثكم بحديث، قلنا: بلى، قال: أُعلمكم أنّي عبدتُ الله تعالى في السماء الدنيا ألفَ عام فسُمّيت فيها العابد: وعبدتُ الله في الثانية ألف عام فسميت فيها الزّاهد: وعبدت الله في الثالثة ألف عام فسميت فيها الرّاغب، ثم رُفعت إلى الرّابعة فرأيت فيها سبعين ألف صفّ من الملائكة يستغفرون لمُحبّي أبي بكر وعمر، ثم رُفعت إلى الخامسة فرأيت فيها سبعين ألف ملك يلعنون مبغضي أبي بكر وعمر»[(١)].

وقال أيضاً: «وفي الصحيحين أنّه ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلاّ ربا من أسفلها أكثرُ منها فشبعُوا وصارت أكثرَ ما

---

(١) شذرات الذهب في أبخر مَن ذهب، ابن العماد الحنبلي: ج١ ص٣٨.

هي قبل ذلك، فنظر إليها أبوبكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها»[١].

أقول: لله درّ الراوي كيف جاء بها واضحة جليّة «إنّهما ظلما عليّاً واعتديا عليه..» وكيف أفلتتْ هذه الكلمة من مقصّ الرقابة المشدّدة والحصار الفكريّ المضروب على التّراث!!!

إن الذين يريدون إثبات عدالة جميع الصحابة لا يمتلكون دليلاً يرفع الهامة، لذلك فهم يتمسّكون بشبهات لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تعدو أن تنبئ عن سخافة عقل قائلها متعمّداً وسذاجة المعتقد بها تقليداً. ولذلك تراها لا تثبت لأدنى نقاش حرّ نزيه.

على أنّ ههنا إشكالاً في قضيّة المبشّرين بالجنّة، فإنّ المفروض أنّ المبشّر بالجنّة لا يفكّر إلاّ في ساعة الرّحيل التي يتخلص فيها نهائياً من دار الغرور؛ ليلتحق بربّ غفور، وليست الحال كذلك بالنّسبة للصّحابة المعنيّين. وهذه كلماتهم، وعلى وجه الخصوص ما كان منها على فراش الموت تشهد عليهم، وإقرار العاقل حُجّة عليه.

---

(١) المصدر نفسه.

كلمات أبي بكر بن أبي قحافة:

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: «وأخرج البيهقيّ في شعب الإيمان عن الضّحّاك قال: قال أبوبكر: والله لوددت أني كنت شجرة إلى جنب الطريق فمرّ عليّ بعير فأخذني فأدخلني فاه فلاكني ثم ازدردني ثم أخرجني بعراً ولم أكن بشراً، فقال عمر: يا ليتني كنت كبش أهلي سّمنوني ما بدا لهم حتى إذا كنت كأسمن ما يكون زارهم من يحبّون فذبحوني لهم فجعلوا بعضي شواءً وبعضي قديداً ثم أكلوني ولم أكن بشراً»[1].

عجيب مثل هذا الكلام من رجلين أحدهما لو وضع إيمان الأمّة في كفّة وإيمانه في كفّة لرجحت كفّته، والثاني ينطق روح القدس على لسانه!

أليس الرجلان مبشّرين بالجنّة؟

أهكذا يتكلّم المبشّر بالجنّة حينما يدنو موعد لقاء الحبيب؟

إنّ هذا الكلام أشبه ما يكون بكلام يائسٍ من رحمة الله، ولا يُشتمّ منه رائحةُ استبشار.

نعم، القول ما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: فزت ورب الكعبة. والقول ما قال بلالٌ وهو على فراش الموت: غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه.

وفي المنتظم: «وقال قيس: رأيت أبا بكر (رضي الله عنه) آخذاً بطرف لسانه وهو يقول: هذا أوردني الموارد. وقال الحسن: قال أبوبكر الصديق: ليتني كنت شجرةً تعضد ثم تؤكل. وقال أبو عمران الجوني: قال أبوبكر: لوددت أني شعرةٌ في جنب عبد مؤمن»[2].

---

(١) تاريخ الخلفاء، السيوطي: ج١ ص١٢٤.

(٢) المنتظم، ابن الجوزي: ج٤ ص٦٣، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢.

ومن حقّه أن يقول ذلك عن لسان افترى على رسول الله ﷺ حديثاً يعارض القرآن، ولم يقبل من فاطمة ولا علي عليهما السلام وهما المطهّران بنصّ الكتاب العزيز.

وفي كتاب الشفاء:

وقال أبوبكر (رضي الله عنه): «ارقبوا محمداً في أهل بيته، وقال أيضا: والذى نفسي بيده لقرابة رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أحبُّ إليّ أن أصل من قرابتي»[1].

صدق القائل، وعلامة ذلك أنّه رعى حرمتهم وهم في حزنهم لفقدهم سيّد الكائنات، فأمر بالهجوم على البيت وتهديد أهله بإحراقهم بالنّار، وكان جراء ذلك ما كان من هلع الحسنين وزينب وأمّ كلثوم. ومن علامات حبّه لأهل البيت عليهم السلام أن حرمهم حقّهم الذي آتاهم الله في كتابه، باختلاق حديث يخالف القرآن الكريم، ولو كان الحديث صحيحاً ثابتاً لما غاب عن باب مدينة العلم!

وفي تاريخ مدينة دمشق:

«... وكان جند عمرو الذين خرجوا معه من المدينة ثلاثة آلاف فيهم ناس كثير من المهاجرين والأنصار، وخرج أبوبكر الصديق يمشي إلى جنب راحلة عمرو بن العاص وهو يوصيه ويقول: يا عمرو اتق الله في سرّ أمرك وعلانيته واستحيه فإنه يراك ويرى عملك، وقد رأيت تقديمي إيّاك على من هو أقدم سابقة منك ومن كان أعظم غناء عن الإسلام وأهله منك!! فكن من عمّال الآخرة وأرد بما تعمل وجه الله، وكن والداً لمن معك ولا

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: ج٢ ص٤٩.

تكشفنّ الناس عن أستارهم واكتف بعلانيتهم، وكن مجداً في أمرك واصدق اللّقاء إذا لاقيت ولا تجبن، وتقدّم في الغلول وعاقب عليه، وإذا وعظت أصحابك فأوجز، وأصلح نفسك تصلح لك رعيّتك، في وصيّة له طويلة وعهد عهده إليه يعمل به»[١].

يقول الخليفة لابن العاص: وقد رأيت تقديمي إيّاك على من هو أقدم سابقة منك ومن كان أعظم غناء عن الإسلام وأهله منك...

والكلام هنا في أصل الفعل، هل يجوز؟، وإذا كان جائزاً هل هو راجح أم مرجوح؟

قد يقول قائل إن رسول الله ﷺ كان يؤمّر أحياناً أناساً من المتأخرين، فيجعل أحدهم أمير سرّية؟ والجواب: أن تصرّفات النبي بما يريه الله تعالى وقد كانت حكمة تصرفاته سرعان ما تأتي بثمارها، كما هو الشّأن في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فإن توليته على صدقات بني المصطلق فضحته وكشفت حقيقته لأهل ذلك العهد وللأجيال من بعدهم، فقد نزل في حقه قرآن يتلى فأغنى أهل البصائر عن الفحص في حاله من ناحية العدالة، فهو الفاسق بنص الآية الشريفة، وقد استمرّ على فسقه إذ كان ممن يلعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وشرب الخمر وهو أمير على الكوفة، وصلى بالناس الصبح أربعاً وهو سكران... وأيضا كما هو الشأن في حق خالد بن الوليد، الذي خالف أمر رسول الله ﷺ وعصاه وحنّ إلى الجاهلية فراح يقتل الأبرياء ثأراً من قتلة عمّه المشرك، وتبرأ النبي ﷺ من فعلته ورآه الصحابة يرفع يديه قائلا: اللهمّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد، اللهم إني أبرأ إليك

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢ ص٦٦.

مما صنع خالد. وتبيّنت حكمة ذلك بعد وفاة النبي، إذ فعل خالد ما فعل من مشاركة في الهجوم على بيت فاطمةﷺ وقتل مالك بن نويرة (رضي الله عنه)، وما تلا ذلك من أعمال وعاها من وعاها وجهلها من جهلها.

إنّ الخليفة أبا بكر لم يولّ إلا أعداء الإسلام من قريش ممّن له إحنٌ وتراتٌ حسبما تقتضيه المصلحة السّياسية القرشيّة. لذلك ولّى يزيد بن أبي سفيان على رأس جيش متوجّه إلى الشّام وسيوف المسلمين لما تجفّ من دماء إخوته وأخواله. وهذا التعيين هو الأصل الذي تفرّع عليه تعيين معاوية الذي أحدث في الإسلام ما أحدث. ولا نراه يولّي أحداً من بني هاشم الذين بهم لا بغيرهم نال ما نال ووصل إلى ما وصل إليه.

وفي تاريخ مدينة دمشق:

«قال [أبوبكر]: وإنكم ستجدون أقواماً قد حبسوا أنفسهم في هذه الصّوامع فاتركوهم وما حبسوا له أنفسهم وستجدون أقواماً قد اتخذ الشيطان على رؤوسهم مقاعد يعني الشمامسة فاضربوا تلك الأعناق ولا تقتلوا كبيراً هرماً ولا امرأة ولا وليداً ولا تخربوا عمراناً ولا تقطعوا شجرة إلا لنفع ولا تعقرنّ بهيمة إلا لنفع ولا تحرقنّ نخلاً ولا تعزقنه ولا تغدر ولا تمثّل ولا تجبن ولا تغلل»[1].

أما كانت بضعة رسول الله جديرةً بشيء من هذا؟ ألا تعدل بنت رسول الله عند الخليفة امرأة أو وليداً أو كبيراً هرماً من النصارى؟

وفي تاريخ مدينة دمشق:

«فأما الثلاث التي فعلتهنّ فوددت أني تركتهنّ، أني يوم سقيفة بني

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢ ص٧٨.

ساعدة ألقيت هذا الأمر في عنق هذين الرّجلين، يعني عمر وأبا عبيدة فكان أحدهماً أميرا وكنت وزيراً وودت آنّي لم أكن كشفت بيت فاطمة عن شيء مع أنهم أغلقوه على الحرب، ووددت أني لم أكن حرقت الفجاءة السّلمى وأني كنت قتلته سريحاً أو خليّته نجيحاً، وأما الثلاث التي تركتهن ووددت أني كنت فعلتهن، وددت أني يوم وجّهت خالد بن الوليد إلى أهل الشام وجهت عمر بن الخطاب إلى أهل العراق، فكنت قد بسطت كلتا يدي في سبيل الله، ووددت أني حين أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً ضربت عنقه، فإنه يخيّل إلي أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه، ووددت أني سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) لمَنْ هذا الأمر بعده فلا ينازعه أحد، ووددت آنّي سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) هل للأنصار فيه شيء، ووددت أني سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) عن ميراث بنت الأخ والعمة فإن في نفسي منها شيئا»[١].

يستشفّ من هذا الكلام أن الخليفة كان في شك من أمره في كثير مما فعل وكثير مما لم يفعل، وأمور أخرى بقي الشّكّ يراوده فيها ففي نفسه منها شيء، لكنه يصرّح بالندم على فعل بعضها كما هو الشأن في الهجوم على بيت فاطمةعليها السلام. وأنّى له تدارك ذلك وقد ماتت فاطمةعليها السلام ساخطةً عليه، وإنما يكون الندم توبة إذا سارع صاحبه إلى ردّ الحقوق إلى أهلها، أما إذا استمرّ في تجاهله وغَمْطِ الناس حقوقهم فإنّه لا يزيد بذلك إلا توكيداً للحجّة على نفسه.

ثم إنه يتحسّر على عدم سؤاله رسولَ الله لمن هذا الأمر بعده، فإذا كان

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٠ ص٤١٨.

كذلك فما معنى قوله يوم السقيفة كما جاء في تاريخ الطبري:

«أما بعد يا معشر الانصار فإنّكم لا تذكرون منكم فضلاً إلا وأنتم له أهل، وإنّ العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، وهم أوسط داراً ونسباً ولكن قد رضيت لكم أحد هذين الرّجلين فبايعوا أيّهما شئتم»[1].

فكيف يقول بعد ذلك الطبري: «وودت أنّى كنت سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) لمن هذا الأمر فلا ينازعه أحد، ووددت أنى كنت سألته هل للأنصار في هذا الأمر نصيب»[2].

إنه لتخبّطٌ عجيبٌ لا يخلو من قصور في النظر أو تسفيه للعقول، لأنّه إذا كانت الخلافة منحصرة في قريش كما استدلّ به الخليفة فإنّه ليس للأنصار إليها سبيل، وإن احتُمل للأنصار فيها نصيب فإنه ليس إلى حصرها في قريش سبيل، فما معنى هذين السؤالين في نفس الوقت؟!

وأمّا عن قوله إن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، فمتى كانت رؤية العرب ووجهة نظرهم حجّة شرعيّة في الأصول والفروع؟ ثم إن الأنصار من العرب ـ ومن صميمهم ـ وهم لا يعرفون ذلك ولا يرونه بتلك الصورة؟ وإنما انحصرت الخلافة شرعاً في بني هاشم بأحاديث النبيﷺ التي ضربت حولها القيادة القرشيّة رقابة مشدّدة، وحصاراً فكرياً ليس إلى فكّه سبيل حتى تناساها كثير من الناس، لا بمعرفة العرب، فإن العرب ـ وقريشاً بالذات ـ فضّلت بسفاهتها ومعاييرها السّقيمة

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٢ ص٤٤٦.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص٦٢٠.

رجلاً من القريتين عظيماً على سيّد الأولين والآخرين.

على أنه يشهد بالظّلم على كل من ينازع عشيرة النبّي ﷺ هذا الأمر، كما جاء في جمهرة خطب العرب: «... وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدّين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام رضيكم الله انصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته وفيكم جلّة أزواجه وأصحابه»[1] وقد نازع بني هاشم أو نازعه بنو هاشم، وجميعهم من قريش فمن الظّالم ومن المظلوم؟

وكيف يشكّ بعد هذا القول؟

لقد كان النبي ﷺ واضحاً بخصوص هذه المسألة، وأخذ عليهم البيعة جميعاً يوم الغدير، وبذلك قطع الطّريق على كل متأول، ووضع كلّ فرد من أفراد الأمة أمام مسؤوليته لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيي عن بيّنة.

من أجل مثل تلك التخبّطات التي جرّت على الأمة الإسلامية الويلات ينبغي قراءة تاريخ الإسلام بنظرة أخرى غير التي أورثناها المتعصبون والمتحجّرون الذين إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سيلاً.

وفي الطبقات الكبرى:

«قال: أخبرنا روح بن عبادة قال: أخبرنا هشام بن أبي عبدالله عن قتادة،

---

(١) جمهرة خطب العرب: ج١ ص١٧٥.

قال: بلغني أن أبا بكر قال وددت أني خضرة تأكلني الدّواب»[١].

وفي تاريخ الطبري: «... يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً، قال: أفعل، فقال له أبوبكر: لو تركته ما عدوتك وما أدري لعلّه تاركه والخيرة له ألاّ يلي من أموركم شيئاً، ولوددت أني كنت خلواً من أموركم وآنّى كنت فيمن مضى من سلفكم، يا أبا عبد الله لا تذكرنّ مما قلت لك من أمر عُمَر ولا مما دعوتك له شيئا»[٢].

العجب من إصرارهم على صرف الأمر عن وصيّ رسول الله والسّماح لأنفسهم بالتصرّف بهذا الشّكل الذي تأباه العقول السّليمة، وإلا فإنّه يقول لعثمان لو تركته ـ أي عمر ـ لما عدوتك، ولو أنه فعل لما زاد على تعجيل فتنة بني أميّة، ولكنّه لم يكن ليترك صاحبه، وحتى لو فعل فإنّه لم يكن ليوليّ عثمان وسيوف المهاجرين والأنصار حديثة عهد بدماء رؤوس الشّرك من بني أمية.

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٣ ص١٩٨.

(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج٢ ص٦١٨.

كلمات عمر بن الخطاب:

في تاريخ مدينة دمشق:

«... عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال في حديث عطاء بن يسار أنه قال، قلت للوليد بن عبد الملك، قال عمر بن الخطاب، وددت أني سلمت من الخلافة طباقاً لا علي ولا لي فقال، كذبت ألْلخليفة تقول هذا؟ أو كذبت، قال: فأفلت منه بجريعة الذقن»[1].

«وعن سهل بن محمد عن الأصمعي أنه قال هذا مَثَلٌ يقال أفْلَتَ فلان بجريعة الذَّقن يُرادُ أنّ نفسَه صارت في فِيه»[2].

وفي تاريخ مدينة دمشق:

«... ويجيء قوم آخرون فيثنون عليه، فقال عمر: أما والله على ما يقولون وددت إني خرجت منها كفافاً لا عليَّ ولا لي، وإن صحبة رسول الله (صلى الله عليه وسلَّم) قد سلمت لي، فتكلَّمَ عبد الله بن عباس وكان عند رأسه وكان خليطه كأنه من أهله، وكان ابن عباس يقرأ القرآن فتكلم عبد الله بن عباس فقال: والله لا تخرج منها كفافاً، لقد صحبت رسول الله (صلى الله عليه وسلَّم) فصحبته بخير ما صحبه خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلَّم) وكنت تنفذ أمره وكنت له وكنت له وكنت، ثم وليتها يا أمير المؤمنين أنت فوليتها بخير ما وليها وال كنت تفعل وكنت تفعل فكان عمر يستريح إلى حديث ابن عباس، فقال عمر: يا ابن عباس كرر علي حديثك

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٠ ص٤٥١.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٠ ص٤٥١.

فكرر عليه. وقال ابن المقرئ: كر علي حديثك فكر عليه، فقال عمر: أما والله على ما تقولون لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به اليوم من هول المطّلع قد جعلتها شورى في ستة. وقال ابن المقرئ: في ستة عثمان وعلي وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص»[(١)].

وفي تاريخ مدينة دمشق:

«عن سماك عن ابن عباس قال: دخلت على عمر حين طعن، فقلت أبشر يا أمير المؤمنين والله لقد مصر الله بك الأمصار وأوسع بك الرزق وأظهر بك الحق، فقال عمر: قبلها أو بعدها، فقلت: بعدها وقبلها، قال: فوالله وددت أني أنجو منها كفافاً لا أؤجر ولا أؤزر»[(٢)].

وفي الطبقات الكبرى:

«قال: أخبرنا عبد الملك بن عمرو أبو عامر العقدي، قال: أخبرنا مسعر عن سماك، قال: سمعت ابن عباس قال دخلت على عمر حين طُعن فجعلت أُثني عليه، فقال بأي شيء تثني علي بالإمرة أو بغيرها قال قلت بكلّ، قال: ليتني أخرج منها كفافاً لا أجر ولا وزر. قال أخبرنا محمد بن عبيد الطنافسي وعبيد الله بن موسى عن مسعر عن سماك الحنفي، قال سمعت ابن عباس يقول قلت لعمر مصر الله بك الأمصار وفتح بك الفتوح وفعل بك وفعل فقال: لوددت أني أنجو منه لا أجر ولا وزر»[(٣)].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٤ ص٤١١.

(٢) المصدر نفسه: ج٤٤ ص٤٢٣.

(٣) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٣ ص٣٥١.

في الطبقات الكبرى:

«قال أخبرنا يزيد بن هارون ووهب بن جرير وكثير بن هشام، قال أخبرنا شعبة عن عاصم بن عاصم بن عبيد الله بن عاصم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنةً من الأرض فقال: ليتني كنت هذه التبنة ليتني لم أخلق، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أك شيئاً، ليتني كنت نسياً منسياً»[1].

كان الأولى بالخليفة أن يقول: الحمد لله الذي فضلني على كثير من خلقه، فقد أدركت الإسلام، ورأيت رسول الله وسمعت صوته وحسه، وعاشرته من قريب وهو الذي بشّرتْ به الأنبياءُ والرسلُ، ووصلتُ إلى الحكم أنصّب وأعزل وأقيم الحدود ويأتمر الناس بأوامري في الشرق والغرب، ويحسب لي ملوك الدنيا ألف حساب. والحمد لله الذي عرفني على الإسلام فأنا أصلي وأصوم وأحج، وأنا مبشر بالجنة.....!!!!! ليس بيني وبينها إلا مفارقة روحي لبدني.

على كل حالٍ هو أعلمُ بنفسه وحاله، وإقرار العقلاء على أنفسهم حُجة.

وفي الطبقات الكبرى:

«... عن أبيه عن عثمان بن عفان قال: أنا آخركُم عهداً بعمر دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبد الله بن عمر فقال له: ضع خدّي بالأرض، قال: فهل فخذي والأرض إلا سواء، قال: ضع خدّي بالأرض لا أم لك، في الثانية، أو في الثالثة ثم شبك بين رجليه فسمعته يقول: ويلي وويل أمي إن

(١) المصدر نفسه: ج٣ ص٣٦٠.

لم يغفر الله لي حتى فاضت نفسه، قال: أخبرنا قبيصة بن عقبة قال: أخبرنا سفيان عن عاصم بن عبيد الله قال حدثني: أبان بن عثمان عن عثمان، قال: آخر كلمة قالها عمر حتى قضى: ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي، قال: أخبرنا أبوبكر بن عبد الله بن أبي أويس قال: أخبرنا سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد وعبيد الله بن عمر عن عاصم بن عبيد الله عن سالم بن عبد الله أن عمر بن الخطاب قال: ليتني لم أكن شيئا قط ليتني كنت نسياً منسياً، قال: ثم أخذ كالتبنة أو كالعود عن ثوبه فقال: ليتني كنت مثل هذا...»[1].

وفي الامامة والسياسة:

«... قال: ومن أين لي بالشهادة وأنا بجزيرة العرب؟ ثم جعل الناس يثنون عليه ويذكرون فضله. فقال: إنّ من غررتموه لمغرور، إني والله وددت أن أخرج منها كفافاً كما دخلت فيها، والله لو كان لي اليوم ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطّلع، فقالوا: يا أمير المؤمنين لا بأس عليك، فقال: إن يكن القتل بأساً، فقد قتلني أبو لؤلؤة، قالوا: فإن يكن ذلك فجزاك الله عنا خيراً. فقال: لا أراكم تغبطونني بها، فو الذي نفس عمر بيده ما أدري عَلامَ أهجم، ولوددت أني نجوت منها كفافاً لا لي ولا عليّ، فيكون خيرها بشرها، ويسلم لي ما كان قبلها من الخير»[2].

وفي الامامة والسياسة:

«قال: والله لا أحملكم حياً وميتاً، ثم قال: إن استخلفت فقد استخلف من

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٣ ص٣٦٠.

(٢) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج١ ص٤٠، تحقيق الشيري.

هو خير مني، يعنى أبا بكر، وإن أدع فقد ودع من هو خير مني، يعنى النبي عليه الصلاة والسلام، فقالوا: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين، فقال: ما شاء الله راغباً، وددت أن أنجو منها لا لي ولا عليّ. فلما أحسّ بالموت قال لابنه: اذهب إلى عائشة، وأقرئها مني السلام، واستأذنها أن أُقبر في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر، فأتاها عبد الله بن عمر، فأعلمها، فقالت: نعم وكرامة ثم قالت: يا بني أبلغ عمر سلامي، وقل له: لا تدع أمة محمد بلا راع، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً، فإني أخشى عليهم الفتنة، فأتى عبد الله فأعلمه، فقال: ومن تأمرني أن أستخلف؟ لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح باقياً استخلفته ووليته، فإذا قدمت على ربي فسألني وقال لي: من وليت على أمة محمد؟ قلت إي ربي، سمعت عبدك ونبيك يقول: لكل أمة أمين وأمين هذه الامة أبو عبيدة بن الجراح، ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته، فإذا قدمت على ربي فسألني: من وليت على أمة محمد؟ قلت: إي ربي، سمعت عبدك ونبيك يقول: إن معاذ بن جبل يأتي بين يدي العلماء يوم القيامة. ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته، فإذا قدمت على ربي فسألني: من وليت على أمة محمد؟ قلت إي ربي، سمعت عبدك ونبيك يقول: خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه على المشركين...»[1].

هذا كلام جدير بأن يُفحَص، والتمعّن فيه كفيلٌ بتبديد بعض الشبهات التي يتمسك بها المدافعون عن الباطل. فالمرشّحون للخلافة حسب اقتراح الخليفة عمر بن الخطاب ثلاثة: أبو عبيدة بن الجراح، ثم معاذ بن جبل، ثم

---

(١) المصدر نفسه: ج١ ص٢٨، تحقيق الزيني.

خالد بن الوليد. هؤلاء هم الذين يستحقُون أن يقودوا الأمة. لكن قبل الشّروع في مناقشة ذلك تجدر الإشارة إلى أن هؤلاء فيهم متّهمان بالمشاركة في الهجوم على بيت كان جبريل يستأذن قبل دخوله! والثالث محل تأمّل. وقد برّر الخليفة هذا التّرشيح بكلمات يحسبها فضائل وهي أوهى وأوهن من بيت العنكبوت إذا قيست بغيرها مما ورد في حق الإمام علي عليه السلام. ولو لم يكن إلا حديث المنزلة الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» أقول لو لم يكن إلا ذلك لكفى، فكيف وقد صُنّفت في فضائله عليه السلام كتب مستقلة، منها كتاب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للحافظ النسائي وكتاب فضل آل البيت للمقريزي، والرجلان من كبار علماء السّنّة لا سبيل للتشكيك في منزلتهما العلمية واستقامتهما وصحة معتقدهما عندهم. ألم ير الخليفة في واحدة من تلك الفضائل ما يجعله في مصافّ من سمّاهم؟ ليت الخليفة ذكر آيةً واحدة نازلة في فضل واحد ممن ذكر! لكنّ القرآن حافل بالآي النازلِ في فضل علي وأهل بيته عليهم السلام، وهو المولود في الكعبة والذي تربّى في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة، وهو كفؤ فاطمة عليها السلام وأبو سيدي شباب أهل الجنة ...

إن عمر بن الخطاب نفسه يشهد لعلي عليه السلام أنه مولاه ومولى كلى مؤمن ومؤمنة، وقد قال له يومها: «بخ بخ لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»، فإن يكن أبو عبيدة وخالد ومعاذ من المؤمنين فعليّ عليه السلام مولاهم ومولى زعمائهم ومرشّحيهم، وليس أحدٌ منهم مولًى له،

وكفى بذلك دليلاً لمن تنوّرت بصيرته وصفت سريرته.

وقد كان رسول الله يؤمّر علياً عليه السلام عليهم في السرايا ولم يؤمّر أحداً منهم عليه.

وقد خطب زعماؤهم ومقدموهم فاطمة عليها السلام وردّهم رسول الله صلى الله عليه وآله وهو القائل: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير». وزوّجها علياً عليه السلام رغم حسد الحاسدين.

في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى:

«ولما فرض عمر بن الخطاب لابنه عبد الله في ثلاثة آلاف ولأسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسمائة قال عبد الله لأبيه: لم فضلته فوالله ما سبقني إلى مشهد؟ فقال له: لأن زيداً كان أحبُّ إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) من أبيك وأسامة أحب إليه منك، فآثرت حبّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) على حبّي»[1].

هل كان أسامة بن زيد أحب إلى رسول الله من فاطمة عليها السلام؟ هل قال رسول الله أسامة بضعة مني؟! وأعجب منه قوله: آثرت حب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) على حبي!!

---

(١) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: ج٢ ص٥٠.

كلمات أبي الدرداء:

في تاريخ مدينة دمشق:

«قالا أنا أحمد بن عبدان أنا محمد بن سهل أنا محمد بن إسماعيل، قال محمد بن يزيد بن عفيف عن أم الدرداء عن أبي الدرداء: وددت أني شجرة أعضد، قاله محمد بن مبارك عن صدقة»(١).

كلمات عمرو بن العاص:

في المستطرف في كل فن مستظرف:

«ولما احتُضر عمرو بن العاص دعا بغلّ وقيد وقال ألبسوني إيّاهما فإني سمعت رسول الله يقول: إن التوبة مقبولة ما لم يغرْغر ابن آدم بنفسه، ثم استقبل القبلة وقال: اللهم إنك أمرتنا فعصينا فارتكبنا وهذا مقام العائذ بك، فان تغفُ فأنتَ أهلُ العفو وإن تعاقب فبما قدمت يداي، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ثم مات وهو مغلولُ القَيد، فبلغ ذلك الحسنَ بن علي بن أبي طالب (رضي الله تعالى عنهما) فقال استسلم الشيخ ولعلها تنفعه»(٢).

وفي تاريخ اليعقوبي: «ولما حضرت عَمراً الوفاة قال لابنه: لَودَّ أبوك أنه كان مات في غزاة ذات السلاسل، إني قد دخلت في أمورٍ لا أدري ما حُجتي عند الله فيها، ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته قال: يا ليته كان بَعْراً يا

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٦ ص٢٦٨.

(٢) المستطرف في كل من مستظرف: ج٢ ص٥٧٤.

ليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة، أصلحتُ لمعاوية دنياه وأفسدت ديني آثرت دنياي وتركت آخرتي، عمي علي رشدي حتى حضرني أجلي، كأني بمعاوية قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي، وتوفي عمرو ليلة الفطر سنة ٤٣ فأقر معاوية ابنه عبد الله بن عمرو، ثم استصفى مال عمرو فكان أول من استصفى مال عاملٍ، ولم يكن يموت لمعاوية عاملٌ إلاّ شاطر ورثته ماله، فكان يكلّم في ذلك فيقول: هذه سنّة سنّها عمر بن الخطاب»[1].

قال ابن عبد البر في الاستيعاب: «دخل ابن عباس على عمرو بن العاص في مرضه فسلم عليه وقال: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصلحت من دنياي قليلا، وأفسدت من ديني كثيراً، فلو كان الذي أصلحت هو الذي أفسدت، والذي أفسدت هو الذي أصلحت لفُزْت، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان ينجيني أن أهرب هربت، فصرت كالمنْخَنق بين السماء والأرض، لا أرقى بيدين ولا أهبط برجلين، فعظني بعظة أنتفع بها يا بن أخي. فقال له ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله؟ صار ابن أخيك أخاك، ولا تشاء أن تبكي إلا بكيت كيف يؤمن برحيل من هو مقيم؟ فقال عمرو: وعلى حينها، حين ابن بضع وثمانين سنةً تُقَنِّطُني من رحمة ربي؟ أللهمّ إن ابن عباس يقنطني من رحمتك، فخذ مني حتى ترضى. قال ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله؟ أخذتَ جديداً وتعطي خلقاً. فقال عمرو: مالي ولك يا ابن عباس؟! ما أرسلت كلمةً إلا أرسلت نقيضها»[2].

وفي كتاب الحُلّة السيراء للقضاعي:

---

(١) تاريخ العيقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص٢٢٢.

(٢) الاستيعاب، ابن عبد البر: ج٣ ص١١٨٩.

«وقال يخاطب معاوية بن أبي سفيان (رض):

معاوي إني بعت ديني ولم أنل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع.

وما الدين والدنيا سواء وإنني لآخذ ما تعطى ورأسي مقنع.

فإن تعطني مصراً فأربحْ بصفقةٍ أخذتَ بها شيخاً يضرّ وينفع.

قال عمرو هذا لأنه شرط على معاوية لما تحيز إليه، وكان معه في حروبه لعلي (رضي الله عنهم) أن يولّيه إذا ظهر مصر طعمة فوفى له بذلك. ورُوِيَ أنّ عتبة بن أبي سفيان دخل على معاوية أخيه وهو يكلّم عمراً في مصر، وعمرو يقول له: إنما بعتك بها ديني. فقال له عتبة: أئْمنِ الرّجُلَ بدينه، فإنّه صاحبٌ من أصحاب محمد»[1].

أقول: بئس صاحبُ محمد رجلٌ يبيع دينه بدنيا فانية ويفتح بذلك على المسلمين باب فتنة لا تزال آثارها إلى اليوم. وبئس الصاحب رجلٌ يقّرِه على ذلك ويرى للصّفقة مشروعية. وبئس الصاحب من اشترى من عمرو ابن العاص دينه.

وفي كتاب وصايا العلماء: «حدثنا أبوبكر محمد بن جعفر السامري، نا علي بن داود، نا عبد الله بن صالح، قال حدثني يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه أن عمرو بن العاص حين حضرتْه الوفاةُ ذرفتْ عيناه فبكى، فقال له أبنه عبد الله: يا أبت ما كنت أخشى أن ينزل بك أمر من الله عز وجل إلاّ صبرت عليه: فقال: يا بني إنّه نزل بأبيك خصال ثلاث أما أولاهن فانقطاعُ عمله، وأما الثانية فهولُ المُطّلع، وأما الثالثة ففراق الأحبّة، وهي أيْسَرُهُنّ، ثمّ قال: اللّهم

(١) الحلّة السيراء، القضاعي: ج١ ص١٦.

إنّك أمرت فتوانيتُ ونهيتَ فعصيتُ اللهم ومن شيمَتكَ العفوُ والتجاوُز»[١].

وفيه أيضا: «عاصم حدثنا حيوة بن شريح، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبن شماسة، قال: حضْرنا عمرَو بنَ العاصِ وهو في سياقَة الموت فحولَ وجههَ إلى الحائط، وجعل يبكي طويلاً، فقال له ابنهُ: يا أبه أما بشّرك رسول الله بكذا، فأقبل بوجهه علينا فقال: إنّ أفضل ما نعد به شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وقد كنتُ على أطباق ثلاثة، قد كنت وما أحدٌ أبغض إليّ من رسول الله ولا احبّ إلي من أن أستمكن منه فاقتله، فلو مت على تلك الحال كنتُ من أهل النار، فلما جعل الله عز وجل الإسلام في قلبي أتيت النبي فقلت: يا محمد أبسط يمينك أبايعك، قال: فبسط يده فقبضت يدي فقال ما لك يا عمرو؟ فقلت: أريد أن أشترط، فقال: أشترط ماذا قلت: يغفر لي ما كان، قال: أما علمت أن الإسلام يمحو ما كان قبله، وأن الهجرة تمحو ما كان قبلها، وأن الحجّ يهدم ما كان قبله، قال: فبايعت رسول الله فما كان أحب إليّ من رسول الله ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أُطيق أن أملأ عيني إجلالاً له، ولو شئت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أنظر إليه إجلالاً له فلو مت على ذلك لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا بعد أشياء لا أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تتبعوني نائحة ولا ناراً، فإذا دفتموني فشنّوا علي التراب شنّا، ثم أقيموا عند قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها كي أستأنس بكم حتى أنظر ما أراجع به رسل ربي»[٢].

ما أبعد كلام عمرو بن العاص عند الموت من كلامه أيام عزّه وزهوه.

---

(١) كتاب وصايا العلماء: ص٦٨.

(٢) كتاب وصايا العلماء: ص٦٩ ـ ص٧٠.

وإن الذي لم يطّلع على سيرة الرجل وعداوته لأهل بيت النبوة لا يملك إلا أن يشفق عليه ويرجو له. فكلماته كلها ضراعة وتذلّل واستكانة. لكن القرآن الكريم يخبرنا أن فرعون الذي ادّعى ما ادّعى، ضرع واستكان حينما أيقن بالهلاك وقال بكل وضوح: آمنت أنه لاإله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. وجاء التعليق واضحاً بينا: ألآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين؟!

وأحسن وصف لشخص عمرو بن العاص عثرت عليه هو ما جاء على لسان الحسن بن علي بن أبي طالبعليه السلام في كتاب جمهرة خطب العرب. «قالعليه السلام: فلا أراك فخرت إلا بالغدر ولا مننت إلا بالفجور والغشّ وذكرت مشاهدك بصفين فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك ولا نكأتنا فيها حربك ولقد كشفت فيها عورتك وإن كنت فيها لطويل اللسان قصير السّنان آخر الخيل إذا أقبلت وأولها إذا أدبرت لك يدان يد لا تبسطها إلى خير وأخرى لا تقبضها عن شر ولسان غرور ووجهان وجه موحش ووجه مؤنس ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحرى أن يطول حزنه على ما باع واشترى. لك بيان وفيك خطل ولك رأى وفيك نكد ولك قدر وفيك حسد وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك»[1].

---

(١) جمهرة خطب العرب: ج٢ ص١١٢.

كلمات معاوية بن أبي سفيان:

في تاريخ مدينة دمشق:

«وكان يقول رحم الله عبدا دعا لي بالعافية وقد رميت في أحسني وما يبدو مني ولولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي ولما اعتلّ قال وددت أني لا أعمّر فوق ثلاث فقيل إلى رحمة الله ومغفرته فقال إلى ما شاء وقضى قد علم أني لم آل وما كره الله غيّر وكان عنده قميص رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وإزاره ورداؤه وشعره فأوصاهم عند موته فقال كفّنوني في قميصه وأدرجوني في ردائه وآزروني بإزاره واحشوا منخري وشدقي بشعره وخلّوا بيني وبين رحمة أرحم الراحمين كان حليما وقورا ولي العمالة من قبل الخلفاء عشرين سنة واستولى على الإمارة بعد قتل علي عشرين سنة فكانت الجماعة عليه عشرين سنة من سنة أربعين إلى سنة ستين فلما نزل به الموت قال ليتني كنت رجلا من قريش بذي طوى وإني لم آل من هذا الأمر شيئا»[1].

العجب من ابن عساكر يقول عمّن فعل الأفاعيل إنّه كان حليما، اللهم إلاّ أن يقصد ابن عساكر من الحلم غير ما يريد العرب في كلامهم، وإلاّ فكيف يكون حليماً من يحاسب الناس على مشاعرهم، ويسبّ الأموات؟ إنّ الحليم لا يذكر الأموات إلاّ بخير أو يسكت عنهم، ولكّن معاوية يسبّ علياعليه السلام ويلعنه ويسنّ لعنه ويفرضه على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ويدفن المسلم حيّاً؛ لأنّه رفض البراءة من علي؟ ومع ذلك يراه

---

(١) تاريخ دمشق، ابن عساكر: ج٥٩ ص٦١.

ابن عساكر حليماً وقوراً.

إنّ الحليم لا يفرض رأيه على الآخرين، ولا يحاسبهم على ميولهم ورغباتهم، ويعفو عند المقدرة ويتجاوز ويتغافل، ولم يكن في معاوية شيء من ذلك. وهو الذي استعمل كل أساليب المكر والخداع والكذب والزور، وشهد على أبيه بالزّنا ... كيف يكون حليماً مَنْ هذه سيرته؟ وهو الذي أمر بقتل عبد الرحمن العنزي شرّ قتلة، فدُفن المسكين حياً بقس الناطف.

وفي كتاب المستطرف في كل فن مستظرف: «ولما مرض معاوية (رضي الله عنه) مرضه الذي مات فيه، وفد إليه الناس يعودونه، فقال لأهله مهّدوا لي فراشاً واسندوني، وأوسعوا رأسي دهاناً، ثم أكحلوا عيني بالإثمد، ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا عليّ قياماً ولا تجلسوا عندي أحداً، ففعلوا ذلك، فلما خرجوا من عنده أنشد يقول.

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع»[1]

وفي الكامل: «خطب معاوية قبل مرضه وقال: إني كزرع مستحصد، وقد طالت إمرتي عليكم، حتى مللتكم ومللتموني، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي، ولن يأتيكم بعدي إلاّ من أنا خيرٌ منه، كما أنّ من قبلي كان خيراً مني، وقد قيل: من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه، اللهم إنّي قد أحببت لقاءك فاحبب لقائي وبارك لي فيه!»[2] [!!!].

---

(١) المستطرق في كل فن مستظرف: ج٢ ص٥٧٢.
(٢) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٣٦٨ ـ ص٣٧٠، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

وقيل لما اشتدت علته وأرجف بـه، قـال لأهلـه: احـشوا عينـي أثمـداً، وادهنوا رأسي، ففعلوا وبرقوا وجهـه بالـدهن، ثـم مهـد لـه فجلـس، وأذن للناس فسلموا قياماً، ولم يجلس أحد فلما خرجوا عنـه، قـالوا: هـو أصـح الناس، فقال معاوية عند خروجهم من عنده:

وتجلـدي للـشامتين أريهـم   أنـي لريـب الـدهر لا أتضعـضع

وإذا المنيـة أنـشبت أظفارهـا   ألفيـت كـل تميمـة لا تنفـع

وكان به التفاتات، فمات من يومه، فلما حضرته الوفاة قال: إنّ رسول الله كساني قميصاً فحفظته، وقلّم أظفاره يومـاً، فأخـذت قلامتـه فجعلتهـا فـي قارورة، فإذا مت فألبسوني ذلك القميص، واسحقوا تلـك القلامـة وذروهـا في عيني وفمي، فعسى الله أن يرحمني ببركتها!!

ثم تمثل بشعر الأشهب بن زميلة النهشلي: يعني بالإثمد.

وتجلـدي للـشامتين أريهـم   أنـي لريـب الـدهر لا أتضعـضع

وإذا المنية أنشبت أظفاره، إذا مت مات الجود وانقطع الندى من النـاس، إلاّ من قليل مصرد.

وردت أكف السائلين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلف مجدد.

فقالت إحدى بناته، كلا يا أمير المؤمنين، بل يدفع الله عنك، فقال متمثلاً بشعر الهذلي: وإذا المنية... البيت، وقال لأهله: اتقوا الله فإنّه لا واقي لمـن لا يتقي الله، ثم قضى وأوصى أن يرد نصف ماله إلي بيت المال، كأنّـه أراد أن يطيب له الباقي... .

ولما اشتد مرضه أخذت ابنته رملة رأسه فـي حجرهـا وجعلـت تقلبـه،

فقال: إنّك لتقلبين حولاً قلّبا جمع المال من شب إلي دب. فليته لا يـدخل النار، ثم تمثل:

لقد سعيت لكم من سعي ذي نصب وقـــد كفيـــتكم التّطـــواف والـــرحلا

وبلغه أن قومه يفرحون بموته فأنشد:

فهـــل مـــن خالـــد إن مـــا هلكنـــا وهـــل بـــالموت يـــا للنـــاس عـــار

وكان في مرضه ربما اختلط في بعض الأوقات، فقال مرّة: كم بيننا وبين الغوطة، فصاحت بنته واحزناه، فأفاق فقال: إن تنفري فقد رأيت منفراً[(١)].

وفي سير أعلام النبلاء: «محمد بن الحسن بن أبي يزيد، عن مجالد، عن الشعبي، قال: لما أصاب معاوية اللّقوة بكى، فقال له مروان: ما يبكيـك قـال راجعت ما كنت عنه عزوفاً، كبرت سنّي، ورقّ عظمي، وكثر دمعي»[(٢)].

وفي سير أعلام النبلاء أيضاً: «عن أبي بردة، قـال دخلـت علـى معاويـة حين أصابته قرحته، فقال: هلّم يا بن أخي، فـانظر فنظـرت، فـإذا هـي قـد سرت. قال أبو عمرو بن العلاء لما احتضر معاوية قيل له: ألا توصي، فقـال اللهم أقل العثرة واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل مـن لـم يـرج غيرك، فما وراءك مذهب، وقال:

هو الموت لا منجى من الموت والذي نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

قال أبو مسهر: صلى الضحاك بن قيس الفهري على معاوية، ودفـن بـين

---

(١) انظر: المصدر السابق: ج٤ ص٦، دار صادر للطباعة والنشر.

(٢) سير أعلام النبلاء: ج٣ ص١٥٥.

باب الجابية، وباب الصغير فيما بلغني. قال أبو عبيدة: عن أبي يعقوب الثقفي، عن عبد الملك بن عمير قال: لما ثقل معاوية قال: احشوا عيني بالأثمد وأوسعوا رأسي دهناً، ففعلوا وبرقوا وجههُ بالدهن ثم مهد لهُ وجلس وسند، ثُم قال: لدين الناس، فليسلموا قياماً فيدخل الرجل ويقول: هو لما به، وهو أصح الناس، فلما خرجوا، قال معاوية:

وتجلدي للشامتين أريهم ... إني لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

... إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس قال: أخرج معاوية يديه كأنهما عسيباً نخل، فقال هل الدنيا إلاّ ما ذقنا وجربنا، والله لوددت أني لم أغبر فيكم إلاّ ثلاثاً ثم الله أني لم آل ولو أراد الله أن يغير غير. اهـ ألحق بالله قالوا إلى مغفرة الله ورضوانه قال إلى ما شاء الله قد علم.

يقول معاوية قد علم الله أني لم آل، وهذا صحيح، فقد علم المسلمون السابقون منهم والمتأخرون أنّ معاوية لم يأل جهداً في محاولة إطفاء نور الله، كما فعل أبوه وأمه من قبل، وكما فعل ابنه من بعده، فكيف لا يعلم الله وهو اللطيف الخبير.

كلمات أبي عبيدة بن الجراح:

«في تاريخ مدينة دمشق:

أخبرنا أبو القاسم زاهر بن طاهر أنا أبوبكر البيهقي أنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو عبد الله الصغاني نا إسحاق بن إبراهيم أنا عبد الرزاق أنا معمر عن قتادة قال قال أبو عبيدة بن الجراح وددت أني كنت كبشا فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقي. قال: وقال عمران بن حصين وددت أني رماد على أكمة تسفيني الرياح في يوم عاصف»[١].

كلمات عائشة زوج النبي ﷺ:

في الطبقات الكبرى:

أخبرنا عبيد الله بن موسى أخبرنا أسامة بن زيد عن بعض أصحابه عن عائشة أنها قالت حين حضرتها الوفاة يا ليتني لم أخلق، يا ليتني كنت شجرة أسبّح وأقضي ما عليّ. أخبرنا الفضل بن دكين حدثنا هشام بن المغيرة حدثني يحيى بن عمرو عن أبيه عمرو بن سلمة أن عائشة قالت: والله لوددت أني كنت شجرةً، والله لوددت أنّي كنت مدرة، والله لوددت أن الله لم يكن خلقني شيئاً قطّ. أخبرنا الفضل بن دكين، حدثنا عيسى بن دينار، قال: سألت أبا جعفر عن عائشة، فقال: استغفر الله لها، أما علمت ما كانت تقول يا ليتني كنت شجرة، يا ليتني كنت حجراً، يا ليتني كنت مدرة. قلت: وما ذاك منها. قال: توبة. أخبرنا الفضل بن دكين حدثنا حسن بن

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢٥ ص٤٨٢.

صالح عن إسماعيل عن قيس قال: قالت عائشة عند وفاتها: «إني قد أحدثت بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فادفنوني مع أزواج النبي (صلى الله عليه وسلّم)». أخبرنا محمد بن عبد الله الاسدي، حدثني عمر بن سعيد بن أبي حسين عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس دخل على عائشة قبل موتها فأثنى عليها قال:

أبشري زوجة رسول الله ولم ينكح بكراً غيرك، ونزل عذرك من السماء، فدخل عليها ابن الزبير خلافه، فقالت أثنى عليّ عبد الله بنُ عباس ولم أكن أحبّ أن أسمع أحداً اليوم يثني علي، لوددت أني كنت نسياً منسياً، أخبرنا محمد بن عبد الله الأسدي، حدثنا مسعر عن حماد عن إبراهيم، قال قالت عائشة «يا ليتني كنت ورقة من هذه الشجرة. أخبرنا قبيصة بن عقبة قال سفيان: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم عن القاسم أن عائشة كانت تسرد الصوم، أخبرنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن الاعمش عن خيثمة قال: كانت عائشة إذا سئلت كيف أصبحت، قالت: صالحة والحمد لله، أخبرنا مالك بن إسماعيل، حدثنا زهير، حدثنا عبد الله بن عثمان، قال حدثني عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة أنه حدثه ذكوان حاجب عائشة أنه جاء يستأذن على عائشة فجئت وعند رأسها بن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن، فقلت: هذا عبد الله بن عباس يستأذن عليك فأكب عليها بن أخيها، فقال: هذا ابن عباس يستأذن عليك وهي تموت فقالت:

دعني من ابن عباس فإنه لا حاجة لي به ولا بتزكيته، فقال: يا أمتاه إنّ ابن عباس من صالحي بنيك يسلم عليك ويودعك. قالت: فاذن له إن شئت، فأدخلته، فلما أن سلّم وجلس، قال: أبشري، قالت: بم، قال: ما بينك

وبين أن تلقي محمداً (صلى الله عليه وسلّم) والأحبّة إلا أن تخرج الروح من الجسد، كنت أحب نساء رسول الله إلى رسول الله، ولم يكن رسول الله يحب إلا طيباً، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ليطلبها حين يصبح في المنزل، فأصبح الناس ليس معهم ماء فأنزل الله أن تيمموا صعيداً طيباً، فكان ذلك من سببك، وما أذن الله لهذه الأمّة من الرخصة فأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات جاء بها الروح الامين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيه إلا هي تتلى فيه آناء الليل والنهار، فقالت: دعني منك يا ابن عباس فوالذي نفسي بيده لوددت أنّي كنت نسياً منسيّاً!»[(١)].

وفي تاريخ مدينة دمشق:

«معشر عن محمد بن قيس قال: ذكر لعائشة يوم الجمل فقالت والناس يقولون يوم الجمل قالوا لها نعم فقالت عائشة: وددت إني كنت جلست كما جلس أصحابي فكان أحب ألي من أن أكون ولدت من رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بضعة عشر رجلاً كلهم مثل: عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أو مثل: عبد الله بن الزبير»[(٢)].

وفي الطبقات الكبرى:

«أخبرنا عبد الله بن نمير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: وددت أني إذا مت كنت نسياً منسيا»[(٣)].

وفي الطبقات الكبرى:

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج٨ ص٧٤ ـ ٧٥.
(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٤ ص٢٧٤.
(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج٨ ص٧٣ ـ ٧٤.

«أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا أسامة بن زيد عن بعض أصحابه، عن عائشة، أنها قالت حين حضرتها الوفاة: يا ليتني لم أخلق، يا ليتني كنت شجرة أسبح وأقضي ما عليّ، أخبرنا الفضل بن دكين، حدثنا هشام بن المغيرة، حدثني يحيى بن عمرو عن أبيه عمرو بن سلمة، أن عائشة قالت: والله لوددت أني كنت شجرة، والله لوددت أني كنت مدرة، والله لوددت أن الله لم يكن خلقني شيئا قط!، أخبرنا الفضل بن دكين، حدثنا عيسى بن دينار، قال سألت أبا جعفر عن عائشة، فقال: استغفر الله لها، أما علمت ما كانت تقول يا ليتني كنت شجرة، يا ليتني كنت حجراً، يا ليتني كنت مدرة. قلت: وما ذاك منها، قال: توبة. أخبرنا الفضل بن دكين، حدثنا حسن بن صالح عن إسماعيل عن قيس، قال، قالت عائشة عند وفاتها: إني قد أحدثت بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فادفنوني مع أزواج النبي (صلى الله عليه وسلّم). أخبرنا محمد بن عبد الله الاسدي، حدثني عمر بن سعيد بن أبي حسين عن بن أبي مليكة أن ابن عباس دخل على عائشة قبل موتها فأثنى عليها، قال أبشري زوجة رسول الله ولم ينكح بكراً غيرك ونزل عذرك من السماء، فدخل عليها ابن الزبير خلافه، فقالت: أثنى عليّ عبد الله بن عباس ولم أكن أحب أن أسمع أحداً اليوم يثني عليّ، لوددت أني كنت نسياً منسياً»[١].

وفي الطبقات الكبرى: «حدثنا مسعر عن حماد عن إبراهيم قال قالت عائشة يا ليتني كنت وَرَقَةً من هذه الشجرة»[٢].

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج٨ ص٧٤.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج٨ ص٧٤ ـ ٧٥.

أقول: أليست زوجة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، كما نسبوا إلى عمار بن ياسر (ره) فكيف تتمنى أن لو كانت ورقة من شجرة أو نسياً منسياً أو حجراً أو مدرة، أليس هذا من العجب؟

كان المفروض أن يَغْمُرَ زَوْجَ رسول الله سرور لا يوصف، وسعادة لا ينالها بيان؛ لقرب سفرها من هذا العالم السافل ولحاقها برسول الله والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فالمقام مقام فرح وسرور لا مقام تحسر وتأسّف، هو أشبه بالقنوط منه بشيء آخر، وإن شرّقوا وغرّبوا في التأويل. لكنّ فاطمة (سلام الله عليها) حينما بشرها النبي ﷺ بأنها أول من يلحق به من أهل بيته سُرّت ولم تستطع أن تخفي مشاعرها، بحيث ضحكت! ضحكت في ذلك المقام الصعب حين توديع أبيها ووليها ونبيها، مع علمها بأنه سيجري عليها بلاء صعب تحمّله، وقد كانت في الثامنة عشرة من عمرها (سلام الله عليها) وهي السنّ التي تستلذ فيها الحياة عند النساء، فما بالها لم تحزن لهذا العمر الذي يخترم في عزّه، ويسبّب يتم الحسن والحسين وزينب وأمّ كلثوم عليهم السلام؟!

وقد سُجّل لعائشة أقوال مشابهة في الطبقات الكبري في ترجمة عائشة ومستدرك الصحيحين: في ذكر أزواج النبي ﷺ والمعارف لابن قتيبة، وبلاغات النساء لابن طيفور، ومسند ابن عباس، ومناقب الخوارزمي، وتاريخ بغداد، وصفوة الصفوة، والمعجم الكبير في ترجمة ابن عباس، وأنساب الاشراف. وكلّها أقوال تؤول إلى ما يستشعر منه الإحساس بسوء الخاتمة، وهي أدرى بحالها، وإقرار العقلاء على أنفسهم حجة.

كلمات عمران بن حصين:

في سير أعلام النبلاء:

«وروى هشام، عن محمد، قال: ما قدم البصرة أحد يفضل على عمران بن حصين. قال قتادة: بلغني أن عمران قال: [وددت] أني رماد [تذروني الرياح]. قلت: وكان ممّن اعتزل الفتنة، ولم يحارب مع علي»[١].

عَهِدَ رسولُ الله إلى عليّ عليه السلام أنه يقاتل بعده الناكثين والمارقين والقاسطين، وعَلم عمران بذلك وعاش حتى تيسّرت له فرصة محاربة الطوائف المذكورة، لكنه لم يحارب معه واحدة منها!!! فحقّ له أن يتحسّر ويتمنّى لو كان رمادا تذروه الرياح.

كلمات عبد الله بن مسعود:

في تاريخ مدينة دمشق:

«قال: ونا يعقوب، نا سعيد، نا هشيم عن سيار عن أبي وائل، قال، قال عبد الله: وددت أن الله غفر لي ذنباً من ذنوبي وأنه لا يعرف نسبي، أخبرنا أبو غالب بن البنا، أنا أبو محمد الجوهري، أنا أبو عمر بن حيوية، نا أبوبكر بن إسماعيل قالا: نا يحيى بن محمد بن صاعد، نا الحسين بن الحسن، أنا هشيم عن سيار عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود، قال: وددت أنه يغفر لي ذنب واحد ولا يعرف نسبي، أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي وأبو الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام، قالا: أنا أبو محمد الصريفيني، أنا

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٢ ص٥٠٩.

أبو القاسم بن حبابة، أنا أبو القاسم البغوي، نا علي بن الجعد، أنا شعبة عن سيار قال: سمعت أبا وائل قال، قال عبد الله: وددت أن الله جل وعز غفر لي خطيئة من خطاياي وأنه لم يعرف نسبي»(١).

وفي تاريخ مدينة دمشق:

«عن مسلم البطين عن عدسة الطائي، قال: مر بنا ابن مسعود ونحن أظنه قال بزبالة فأتينا بطائر، فقال: من أين صيد هذا الطائر فقلنا من مسيرة ثلاث، فقال: وددت أني حيث صيد هذا الطائر لا يكلمني بشر ولا أكلمه حتى ألقى الله عز وجل»(٢).

الطبقات الكبرى:

«... أخبرنا يعلى بن عبيد قال: أخبرنا إسماعيل، عن جرير رجل من بجيلة قال: قال: عبد الله وددت أني إذا ما مت لم أبعث!!!!!»(٣).

أقول: هذا الكلام محل نظر وتأمّل؛ لأن الذي بلغنا عن الصحابة في كتب الجمهور أنّهم كانوا أهل تعلّق بالآخرة، وأنهم كانوا من المتجافين عن دار الغرور. فأين ابن مسعود من الحديث الذي يقول: من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه؟ وهل هذا الكلام كلام من يحبّ لقاء الله تعالى؟

كلمات أبي ذر الغفاري:

وإنما أُوردُ كلام أبي ذر لأنه يتضمّن شهادة على أهل زمانه، وإلا فإن

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٣ ص١٦٩.
(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٣ ص١٧٣.
(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج٣ ص١٥٨.

تزكية النبيﷺ له تجعله فوق كل اعتبار؛ فقد ثبت قوله في حقه: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق ذي لهجة من أبي ذر». وقد علم المتقدّمون والمتأخرون كيف كانت نهايته وهو الرجل الذي صحب رسول الله ووفى بما عاهد الله عليه في جميع المواطن، وثبت على ولاء أهل اليت النبوي الشريف ولم ينل من الدنيا، ولا طلب المنصب والثروة. وإنّ في تقديم كعب الأحبار اليهودي عليه من طرف السلطة الحاكمة لعبرة لأولي الألباب. وهذه كلماته شاهدة على تلك الأيام وما كان يجري فيها:

في المنتظم لابن الجوزي: «... أتسمعون؟ لو كان لي ثوب يسعني كفناً لم أكفن به إلا في ثوب هو لي أو ثوب يسعني كفناً إلا في ثوبها، فأنشدكم الله والإسلام أن يكفنني رجل منكم أميراً أو عريفاً أو نقيباً أو بريداً فكل القوم قد كان قارف بعض ذلك إلا فتى، قال: أنا أكفنك فإني لم أصب مما ذكرت شيئاً، أكفنك في ردائي هذا الذي عليّ وفي عيبتي من غزل أمي حاكتهما لي، قال: أنت فكفني، قال: فكفنه الأنصاري والنفر الذين شهدوه فيهم جحش بن الأدبر ومالك بن الأشتر في نفر كلهم يمان»[1].

---

(١) المنتظم، ابن الجوزي: ج٤ ص٣٤٧.

كلمات أكابر من السلف لها صلة بالموضوع:

وإنما أوردها لأنها منسوبة إلى رجال يسمّونهم السّلف الصّالح، وقد أحلّوهم محلّ العترة فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. والقصد من إيرادها أن يطّلع العاقل على الأمر كما هو، لا كما تقدّمه أيدي المتأوّلين.

كلمات سفيان الثوري:

في تاريخ مدينة دمشق:

«عن المعافى بن عمران قال سمعت سفيان الثوري يقول وددت: أن كلّ حديث في صدري وكلّ حديث حفظه الرجال عنّي نُسِخ من صدري وصدورهم، فقلت: يا أبا عبد الله ذا العلم الصحيح وذا السنة الواضحة التي بثثها تمنى أن ينسخ من صدرك وصدور الرجال، قال: اسكت وما يدريك، لست أريد أن أقف يوم القيامة حتى أسأل عن كل مجلسٍ جلسته وعن كل حديث حدثته أيش أردت به؟»[1]

وفي سير أعلام النبلاء:

«قال عطاء بن السائب: سمعت عبدالله بن شداد يقول: وددت أني قمت على المنبر من غدوة إلى الظهر، فأذكر فضائل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ثم أنزل فيضرب عنقي. قلت [أي الذهبي]: هذا غلوّ وإسراف. سمعها خالد الطحان من عطاء. حديث عبدالله مخرج في

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٣ ص٣٦١.

الكتب الستة، ولا نزاع في ثقته»[١].

يقول الذهبي إذن هذا غلو وإسراف، لكن الذهبي نفسه وعينه وذاته يذكر في سيره:

«عن أحمد بن محمود بن صبيح: سمعت أبا مسعود الرازي يقول: وددت أني أقتل في حب أبي بكر وعمر»[٢]. ولا يرى في ذلك غلواً وإسرافاً، بل يفتح باباً واسعاً عالياً للثناء على أبي مسعود الرازي فيقول:

«قال أبوبكر الخطيب: كان أبو مسعود أحد الحفاظ، سافر الكثير، وجمع في الرحلة بين البصرة والكوفة، والحجاز، واليمن، والشام، ومصر والجزيرة. وقدم بغداد، وذاكر حفّاظها بحضرة أحمد بن حنبل، وكان أحمد يقدّمه. قال أبو أحمد بن عدي: لا أعلم لأبي مسعود الرازي رواية منكرة، وهو من أهل الصّدق والحفظ. قال أبو عمران الطرسوسي: سمعت أبا بكر الأثرم يقول: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما تحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) من أبي مسعود الرازي. قال أبو الشيخ: سمعت ابن الأصفر يقول: جالست أحمد، وأثنى على ابن أبي شيبة، وذكر عدة، قال: فما رأيت رجلا أحفظ لما ليس عنده من أبي مسعود»[٣].

لا غلوّ ولا إسراف في قول الرجل، بل هو من أهل الصدق والحفظ، مع أنه قال نفس ماقال عبد الله بن شداد المتّهم بالغلو عند الذهبي مع اختلاف المقول في حقه. وهكذا الكيل بمكيالين سواء تعلق ذلك بالرجال أو

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص٤٨٩.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٢ ص٥٨٤.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٢ ص٤٨٤ ـ ٤٨٥.

الحديث أو التفسير! وإذن فالذهبي ينهى عن خلق ويأتي مثله ولا عار عليه في ذلك ولا إثم!!

وفي سير أعلام النبلاء:

«وحدثنا أبو معين الحسين بن الحسن الرازي، حدثنا ابن أبي مريم قال: كنا عند مالك، فجعل النّاس يذكرون أحاديث لا يأخذ بها أهل المدينة، فقال مالك: ماذا عند النّاس من هذه الأحاديث؟ ثمّ قال مالك: وددت أنّي أُضرب بكلّ حديث حدثت به ممّا لا يوخذ به سوطاً وأني لم أحدّث به»(١).

وقال في معرض ترجمة أبي المعالي الجويني:

«قال المازري في شرح "البرهان" في قوله: إن الله يعلم الكليات لا الجزئيات، وددت لو محوتها بدمي. وقيل: لم يقل بهذه المسألة تصريحاً، بل ألزم بها؛ لأنه قال بمسألة الاسترسال فيما ليس بمتناه من نعيم أهل الجنة، فالله أعلم. قلت: هذه هفوة اعتزال، هجر أبو المعالي عليها، وحلف أبو القاسم القشيري لا يكلمه، ونفي بسببها فجاور وتعبّد، وتاب ـ ولله الحمد ـ منها، كما أنه في الآخر رجّح مذهب السلف في الصفات وأقرّه»(٢).

وأورد القاضي عياض في الشفا ما يلي:

«وقال أبوبكر بن عياش: لو أتاني أبوبكر وعمر وعليّ لبدأت بحاجة علي قبلهما لقرابته من رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ولأن أخرّ من السماء إلى الأرض أحب إلى من أن أقدّمه عليهما»(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٤ ص٥٤٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ـ الذهبي: ج١٨ ص٤٧٢.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: ج٢ ص٥١.

في سير أعلام النبلاء:

«قال أبو قطن: سمعت شعبة بن الحجاج يقول: ما شيء أخوف عندي من أن يدخلني النّار من الحديث. وعنه قال: وددت أني وقاد حمّام، وأني لم أعرف الحديث. قلت [الذهبي]: كل من حاقق نفسه في صحة نيته في طلب العلم يخاف من مثل هذا، ويودّ أن ينجو كفافا. قال عفان: كان شعبة من العبّاد»[1].

وقال أبو الأحوص: «سمعت سفيان يقول: وددت أني أنجو من هذا الأمر كفافاً، لا عليّ ولا لي. وقال أبو أسامة: سمعت سفيان يقول: ليس طلب الحديث من عدّة الموت، لكنه علّة يتشاغل به الرجل. قلت: يقول هذا مع قوله للخريبي: ليس شئ أنفع للناس من الحديث؟! وقال أبو داود: سمعت الثوري يقول: ما أخاف على شئ أن يدخلني النار إلاّ الحديث. وعن سفيان قال: وددت أني قرأت القرآن ووقفت عنده لم أتجاوزه إلى غيره. وعن سفيان قال: من يزدد علما يزدد وجعا، ولو لم أعلم كان أيسر لحزني. وعنه قال: وددت أن علمي نسخ من صدري، لَسْتُ أريد أن أسأل غدا عن كل حديث رويته: أيش أردت به؟ قال يحيى القطان: كان الثوري قد غلبت عليه شهوة الحديث، ما أخاف عليه إلا من حبه للحديث»[2].

وسئل سفيان عن أحاديث الصفات، فقال: «أمروها كما جاءت. وقال أبو نعيم عنه: وددت أني أفلت من الحديث كفافا. وقال أبو أسامة: قال سفيان: وددت أن يدي قطعت ولم أطلب حديثا»[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٧ ص٢١٣.
(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٧ ص٢٥٥.
(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٧ ص٢٧٤.

وقال صالح بن أحمد: كان أبي إذا دعا له رجل، يقول: الاعمال بخواتيمها. وقال عبدالله بن أحمد: سمعت أبي يقول: وددت أني نجوت من هذا الامر كفافا لا علي ولا لي»[(١)].

قال ابن عيينة: «سمعت مسعراً يقول: وددت أن الحديث كان قوارير على رأسي، فسقطت، فتكسّرت»[(٢)].

في الطبقات الكبرى ـ محمد بن سعد:

«أخبرنا قبيصة بن عقبة، قال حدثنا سفيان، قال أخبرني من سمع الشعبي، يقول: ليتني انفلت من علمي كفافاً لا علي ولا لي»[(٣)].

وقال أبو يعلى الموصلي: «حدثنا هاشم بن الحارث، حدثنا أبو المليح الرقي، عن حبيب بن أبي مرزوق، قال، قال ميمون: وددت أن إحدى عيني ذهبت وبقيت الأخرى أتمتع بها، وإني لم أل عملا قطّ. قلت: ولا لعمر بن عبد العزيز؟ قال: ولا لعمر بن عبد العزيز، لا خير في العمل لا لعمر ولا لغيره»[(٤)].

قال: «وكان هشام من أكره الناس لسفك الدّماء، ولقد دخل عليه من مقتل زيد بن علي وابنه يحيى أمر شديد وقال: وددت أني افتديتهما بجميع ما أملك»[(٥)].

قال: «وذكر غيره أن هشاما نظر إلى أولاده وهم يبكون حوله فقال: جاد

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١١ ص٢٢٦.
(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٧ ص١٦٦.
(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج٦ ص٢٥٠.
(٤) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٩ ص٣٤٥؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٥ ص٧٧.
(٥) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٩ ص٣٨٤.

لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما جمع، وتركتم له ما كسب، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له»[١].

قال ابن كثير: «وروي أن الرّشيد كان يقول: لعن الله من أغراني بالبرامكة فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رجاء، وددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على حالهم»[٢].

كلمات عبد الملك بن مروان:

جاء في تاريخ مدينة دمشق:

«... أن عبد الملك بن مروان حين ثقل جعل يلوم نفسه ويضرب بيده على راسه، وقال: وددت أني كنت أكتسب يوماً بيوم ما يقوتني وأشتغل بطاعة الله فذكر ذلك لأبي حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه، أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي، أنا أبوبكر اللالكائي، أنا أبو الحسين المعدل، أنا أبو علي بن صفوان، نا أبوبكر بن أبي الدنيا، حدثني أبو زيد النميري، نا أبو غسان محمد بن يحيى الكناني، حدثني عبد العزير بن عمران بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن جده، قال: لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسّال بجانب دمشق يلوي ثوباً بيده، ثم يضرب به المغسلة، فقال عبد الملك: والله ليتني كنت غسّالاً آكل كسب يدي يوماً

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٩ ص٣٨٦.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج١٠ ص٢٠٨.

بيوم، وإني لم أل من أمر الناس شيئاً قال عبد العزيز عن أبي عن جدّه، قال أبو حازم: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنّون ما نحن فيه، وإذا حضر أحدنا الموت لم نتمنّ ما هم فيه، قال وحدثنا ابن أبي الدنيا، حدثني سلمة بن شبيب، حدثنا سهل عن عاصم بن مسعود بن خلق، قال، قال عبد الملك بن مروان في مرضه: والله وددت أني عبد لرجل من تهامة أرعى غنماً في جبالها وأني لم أل»[1].

هكذا يقولون في مرض الموت حين يكشف عنهم غطاؤهم...!

أين كل هذه الكلمات من كلمة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام: فزت ورب الكعبة. جاء في البداية والنهاية ما يلي:

«عن عثمان بن صهيب عن أبيه، قال، قال علي: قال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): "من أشقى الاولين؟ قلت: عاقر الناقة، قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟ قلت: لا علم لي يا رسول الله، قال: الذي يضربك على هذه ـ وأشار بيده ـ على يافوخه فيخضب هذه، يعني لحيته من دم رأسه قال:" فكان يقول: وددت أنه قد انبعث أشقاكم»[2].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٧ ص١٥٧ـ ١٥٨.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٧ ص٣٥٨ـ ٣٥٩.



الفصل الثاني

ماذا يريد القائلون بعدالة جميع الصحابة



ماذا يريد القائلون بعدالة جميع الصحابة؟

يبرر القائلون بعدالة جميع الصحابة موقفهم هذا بأن فيه حفاظاً على الدين، وأنه بذهاب عدالة الصحابة ينفتح باب لهدم الدّين، وينسون أو يتناسون أن نقد الصحابة وشتمهم وسبّهم وقتلهم بدأ على أيدي الصّحابة أنفسهم. لذلك تراهم لا يخرجون من تناقض إلا ليقعوا في آخر. وحين أعيتهم الأمور وانقطعت السّبل، ربطوا مسألة عدالة الصحابة بصحّة الاعتقاد، بحيث يكون المشكّك في عدالتهم مارقاً من الدّين.

روى الخطيب البغدادي في الكفاية بسنده إلى أبي زرعة الرازي قال: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فاعلم أنّه زنديق، وذلك أن الرسول حق، والقرآن حقّ، وإنّما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسّنّة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة»[1].

وقال القاضي عياض[2]:

«ومن توقيره وبّره (صلى الله عليه وسلّم) توقير أصحابه، وبرهم ومعرفة حقهم، والاقتداء بهم، وحسن الثّناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عمّا شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرّخين وجهلة الرّواة وضلاّل الشيعة، والمبتدعين القادحة في أحد منهم، وأن يلتمس لهم فيما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفِتن أحسن التأويلات، ويخرج لهم أصوب المخارج إذ هم أهل ذلك ولا يذكر أحد منهم بسوء،

---

(١) الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي: ص٦٧.

(٢) الشفا بتعريف، حقوق المصطفى: ج٢ ص٥٢ـ ٥٣.

ولا يغمص عليه أمر، بل نذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرهم، ويسكت عمّا وراء ذلك، كما قال (صلى الله عليه وسلّم) (إذا ذكر أصحابي فأمسكوا) قال الله تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾[1] إلى آخر السورة [!]، وقال ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾[2] وقال تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[3] وقال ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[4]»[5].

وأورد ابن عبد البرّ في كتابه (الاستيعاب) أحاديث كثيرة في الثّناء على الصحابة وذمّ من يتجرأ وينتقد أعمالهم، فملأ بذلك سبع عشرة صفحةً (مقدّمة الكتاب) لكنّه ذكر خلال ذلك من المتناقضات ما يحار له اللبيب فمن ذلك قوله: «ثبتت عدالة جميعهم بثناء الله عزّ وجلّ عليهم وثناء رسوله ﷺ، ولا أعدل ممّن ارتضاه الله لصحبة نبيّه ونصرته، ولا تزكية أفضل من ذلك، ولا تعديل أكمل منه، قال الله تعالى ذكره: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[6] فهذه صفة من بادر إلى تصديقه والإيمان به وآزره ونصره ولصق به وصحبه، وليس كذلك جميع من رآه ولا جميع من آمن به وسترى منازلهم من الدّين والإيمان،

---

(١) الفتح: ٢٨.

(٢) التوبة: ١٠٠.

(٣) الفتح: ١٨.

(٤) الأحزاب: ٢٣.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: ج٢ ص٥٢ ـ ٥٣.

(٦) الفتح: ٢٩.

وفضائل ذوي الفضل والتقدّم منهم، فالله قد فضّل بعض النبيّين على بعض وكذلك سائر المسلمين والحمد الله رب العالمين، وقال عزّ وجل ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾(١)(٢).

ومن ذلك قوله «وذكر سنيد، قال حدثنا حجّاج عن شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي سعيد الخدري، قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾(٣) قرأها رسول الله حتى ختمها، وقال النّاس خير وأنا وأصحابي خَيْرٌ، وقال لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة، فقال له مروان بن الحكم: كذبت! وعنده زيد بن ثابت ورافع بن خديج وهما قاعدان معه على السّرير، فقال أبو سعيد: لوشاء هذان لحدّثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصّدقة، فرفع عليه مروان دّرته ليضربه، فلما رأيا ذلك قالا صدق»(٤).

وهذه قصّة أخرى تدع اللّبيب حيران ذكرَها كلّ من الطّبريّ وابن الأثير وابن عساكر:

«... ثم أقبل [أي معاوية] على عبدالرحمن العنزيّ فقال: إيه يا أخا ربيعة ما قولك في علي؟ قال: دعني ولا تسألني فإنّه خير لك، قال: والله لا أدعك حتى تخبرني عنه، قال: أشهد أنّه كان من الذّاكرين الله كثيراً، ومن الآمرين بالحقّ والقائمين بالقسط والعافين عن النّاس، قال: فما قولك في عثمان؟

---

(١) التوبة: ١٠٠.

(٢) الاستيعاب، ابن عبد البر: ج١ ص١.

(٣) النصر: ١.

(٤) الاستيعاب، ابن عبد البر: ج١ ص٩.

قال: هو أول من فتح باب الظّلم وأرتج أبواب الحقّ، قال: قتلتَ نفسك، قال: بل إياك قتلت، ولا ربيعة بالوادي يقول حين كلّم شمر الخثعميّ في كريم بن عفيف الخثعمي ولم يكن له أحد من قومه يكلّمه فيه فبعث به معاوية إلى زياد وكتب إليه أمّا بعد فإنّ هذا العنزيّ شرٌّ من بعثت فعاقبه عقوبته التي هو أهلها واقتله شرّ قتلة فلمّا قدم به على زياد بعث به زياد إلى قسّ النّاطف فدفن به حيًا[1]. [!!!!!].

ولا يفوت التنبيه هنا إلى أن الآمر بهذه القتلة الشّنيعة هو الشخص الذي يذكره العلماء والمؤرخون بالحلم، فإذا كان هذا هو شأن الحليم، فإنّه يتعيّن إعادة النظر في معاني الأخلاق في الإسلام من الأساس.

نعم، لأنّ مسألة عدالة جميع الصّحابة هشّة لا ترتضيها العقول السّليمة المتحرّرة من التقليد، كان أول من وُجّهت إليه سهام التّكفير شيعةَ أهل البيت عليهم السلام. وبما أن الأدلّة في إثبات تلك العدالة لم تكن تملك من المصداقيّة ما يرفع به أصحابها هاماتهم، فقد ترقّوا إلى أعلى من ذلك فأباحوا دماء علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ووقعت مجازر وفتن وأمورٌ يعجز اللّسان عن وصفها؛ والذي يطالع كتاب شهداء الفضيلة للأميني (رحمه الله تعالى) يقف على العجب ويصعب عليه أن يثبت للمتورّطين في ذلك قليلاً من الإنسانية، فضلاً عن الإيمان. فلقد تفنّنوا في تعذيب وقتل علماء شيعة أهل البيت عليهم السلام بطرقٍ لم يسبقهم إليها أحد، هذا مع العلم أن الأميني (ره) لم يذكر إلا قليلاً مما ثبت من طريقهم. وأمرّ ما في الأمر أنهم كانوا

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٤ ص٢٠٦؛ تاريخ دمشق، ابن عساكر: ج٨ ص٢٧؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٣ ص٤٨٦.

ينسبون ذلك إلى الشّريعة المقدّسة، فيفتون شرعاً بقتل العالم بطريقة شنيعة، مع أنّ النبيّﷺ قد نهى عن المثلة ولو بالكلب العقور، ويستحلّون دمَ امرئ مسلمٍ لا لشيءٍ إلاّ لأنه رفض الكفر بكتاب الله في ما يتعلّق بمسألة عدالة الصحابة! وأوّل من رفض الاعتقاد بصحّة وشرعية خلافة أصحاب السقيفة فاطمة بنت رسول اللهﷺ، ولا يشكّك في إيمانها وكونها سيّدة نساء أهل الجنة إلاّ مارق من الدّين. ولم يزل ذلك ديدنَ المكفّرين طيلة القرون الماضية حتّى هضم كثير من النّاس الفكرة، وصار مقبولاً عندهم أنّ الصحابي معصومٌ وأنّ النبيّﷺ غير معصوم، وتراهم يدافعون عن ذلك بصرامةٍ وحزمٍ، وحكومات الجور واقفةٌ إلى جانبهم. فماذا هم قائلون لربِّ العالمين، فإنّه جل شأنه لا يقول بعدالة الصّحابة، ولا يقرّ القائلين بها على صحّة معتقد. إنّه وصف بعضهم بأنّهم رجس، وآخرين بأنّ في قلوبهم مرضاً، وآخرين بأنهم كانوا قوماً فاسقين و.... .

فهل يجرون عليه نفس الحكم؟

لا شكّ أنّ أصل مَنْشَأ نظرية عدالة الصّحابة لا يستند إلى ركن وثيق، وأنّ من أسّس ذلك ينطوي على دهاءٍ عجيب، بحيث استطاع أن يُلبّس على المثقّفين والمتديّنين، ويستعملهم في ضرب دينهم وهم لا يشعرون. وللغفلة عن تدبّر القرآن الكريم دور كبير في بسط هذه القضية ونشْرها، وإلاّ فإنّ مجرّد التوجّه لكلام المولى سبحانه وتعالى حينما يتحدّث عن ظالمي أنفسهم، كاف لإيقاظ العَبد لمُراعاة الحُرمة. وكفى المرءَ سفَهاً أنّ يسأل مولاه جلّ شأنُه أن يتخلّى عن حكمته ويكذّب نفسَه ويجعلَهم سواء، برّهم وفاجرَهم، صادقَهم ومُنافقَهم، عفيفَهم وزانيَهم، ظالمَهم ومظلومَهم

وغيرَ ذلك من الأضداد. أليس يقول جل شأنه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١]؟! ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾؟[٢] ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[٣]. إنّه جلَّ شأنُه يقول بوضوح وبيان لا يستوون، لكنَّ النّظريّة تقول يستوُون! ﴿إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٤].

---

(١) القلم: ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) ص: ٢٨.

(٣) السجدة: ١٨.

(٤) الحج: ٤٦.

الصحبة والعدالة

هل يكفي مجرّد رؤية النبيّ وصحبته لتحصيل ملكة العدالة؟

أمّا القرآن الكريم فينفي ذلك، ويذكر قصص كثير من الأمم التي عاش بينها أنبياء حتّى طال عليها الأمد، ولم يكن إيمان ولا خشعت قلوبٌ، فمنْهم من خسفَ الله به الأرضَ، ومنهم من أغرقَه، ومنهُم من أهلكَه بالرّيح العقيم، فلو أنّ مجرّد رؤية نبيٍّ أوْ صحبته ينفع صاحبَه ـ ونحن لا نفّرق بين أحد من رُسله ـ لما انتهوا إلى تلك النهاية المشؤومة. ثم إنّ الصّحبة لا تعني وحدة المُعتقَد. وقد ناقش هذه المسألة أحمد حسين يعقوب في كتابه نظرية عدالة الصّحابة، فقال: «فقد تكون ـ أي الصحبة ـ بين مؤمن ومؤمن»[1]، وقد تكون بين ولد ووالدين مختلفين بالاعتقاد[2]، وقد تكون بين رفيقي سفر[3]، وقد تكون بين تابع ومتبوع[4]، وقد تكون بين مؤمن وكافر[5]، وقد تكون شمولية على الشر بين كافر وكافرين[6]، وقد تكون بين نبيّ وقومه الكافرين النبيّ يحاول أن يشدّهم نحو الخير وهم يحاولون إعادته إلى حظيرة الشرّ[7]، وقد تكون الصحبة اضطرارية[8]، وقد تكون

---

(١) راجع الآية (٢٥) من سورة الكهف: ج٣ ص٩٢ ـ ٩٣ من تفسير ابن كثير على سبيل المثال.

(٢) راجع الآية (١٥) من سورة لقمان: ج٣ ص٤٤٤ من تفسير ابن كثير.

(٣) راجع الآية (٦٣) من سورة النساء: وج١ ص٤٩٤ من تفسير ابن كثير.

(٤) راجع الآية (٤٠) من سورة التوبة: ج٢ ص٣٥٢ من تفسير ابن كثير.

(٥) راجع الآيتين (٣٤ ـ ٣٧) من سورة الكهف وج٣ ص٨٣ من تفسير ابن كثير.

(٦) راجع الآية (٢٩) من سورة القمر؛ وج٤ ص٢٦٥ من تفسير ابن كثير.

(٧) راجع الآية (٢) من سورة النجم، والآية (٤) من سورة سبأ، وج٣ ص٥٤٣ وج٤ ص٢٤٦ من تفسير ابن كثير.

(٨) راجع الآية (٣١) من سورة يوسف، ج٢ ص٤٧٩ لابن كثير.

صحبة أثر فيقتدي فاسدٌ بفعل فاسد وينسج على منواله[1]، وقد تكون الصّحبة انقياداً لعقيدة إلهيّة وولاء مُطلق لقيادتها السياسية كانقياد الآل الكرام للعقيدة الإلهيّة وولائهم المطلق لقيادة النّبيّ السياسيّة وتضحياتهم الجسام، وكانقياد وولاء الصّفوة الصادقة من أصحاب محمّد ﷺ. فمحور الصّحبة ـ بالضّم ـ محور شموليّ يرتكز على عقيدة وقيادة وأهداف ومثل عُليا يسْعى القائد وأصحابُه لتحقيقها وسيادتها على مجتمع معيّن»[2].

ثمّ إن الصّحابة لم يختاروا زمن ولادتهم حتى يكونَ لهم في ذاك فضيلة، بل إنّ ذلك محسوبٌ عليهم، لا لهم؛ لأنّ الحجّة عليهم أشدّ وأبقى. فقد شهدوا الوحْيَ والمعجزات، وأخذ عليهم الميثاق أن يسمعوا ويطيعوا، وألاّ ينقلبوا بعد وفاة النبيﷺ، وثبت أنّهم لم يفُوا بما عاهدوا الله عليه إلاّ قليلاً منهم، وقليلٌ من العباد الشكور "وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين". نعم، هناك ثلّة منهم تعتبر مفخرةً للإنسانية كلّها لا للمسلمين وحدهم، لأنّهم كانوا مثالاً يُقتدى به في الصّدق والوفاء والنّزاهة ومُجاهدة النّفس؛ أولئك تزكّيهم أعمالُهم، بل هم فوق ما يقال فيهم، ذاكرُهم يتشرّف بذكرهم، ومحبّهم ينتظر الرّحمة ومبغضهم ينتظر السّطوة.

يحقّ للعاقل أن يتمعّن في هذا الكلام الوارد في مقدّمة كتاب النّصائح الكافية.

«انقسم المسلمون إلى قسمين: قسم ألبس صحابة النّبيّ ﷺ ثوباً من القداسة غير المحدودة بحدّ ولا يمكن أن تتناولها يدٌ، ولا يمكن للعقول أن

(١) راجع الآية (٥٩) من سورة الذاريات، وج٢ ص٢٣٨ لابن كثير.
(٢) نظرية عدالة الصحابة، محمد حسين يعقوب: ص١٢.

تحوم حولها في لحظة من اللّحظات ولا في حال من الأحوال، وهؤلاء اعتبروا أنّ الصّحبة لا يُمكن أن تنتج إلاّ ما يصحّ أن يكون، وهي وحدها كافيةٌ لتبديل آثار البيئة والوراثة، وهي قادرةٌ على تحويل النّفوس الشّرّيرة إلى نفوس صالحة فحكموا على جميعهم بالطّهر والقداسة!

وقسم من المسلمين لم يعتبر الصّحبة إلاّ شرفاً يُغبط عليه الصّحابي فقط وأمّا القداسة والطّهر فأمران خارجان عن الصّحبة، ومرجعهما واقع الأمر في كلّ صحابيّ؛ فمن عمل منهم صالحاً واتّقى الله سبحانه حقّ تقاته وعمل بأوامر الله ورسوله، ولم يقترف إثماً من قتْل وظلْم واعتداء فذلك هو الصّحابي الواجب علينا تقديسُه وإكبارُه. وأمّا من اقترف شيئا من إثم فليست الصّحبة حارسةً له وهو كغيره من المسلمين الذين يلقون آثاما. وعند هذا القسم من المسلمين الصّحبة وتقوى الله يتعاونان على قداسة الصّحابيّ وطُهره. وإذاً لابدّ لهذا القسم أن يأخذ الغربال فيُغربِلَ ويأخذَ مبْضعَ الطّبيب فيشرّح. وهكذا فعل هذا القسم»[١].

والحقّ أنّ الأحداث التي وقعت فيما بعد حيث نكث من نكث ومرق من مرق وقسط من قسط، كفيلة ببيان مدى تأثير وعدم تأثير الإسلام والتديّن في نفوس من عاصروا النّبيّ صلى الله عليه وآله؛ فإنّ وقائع الجمل وصفّين والنّهروان لم تكن ضدّ يهودٍ أو نصارى، بل كان فيها جميعاً من رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبَه وسمعَ منه. وأبعدُ من ذلك فإنّ منهم من حذّره النبيّ صلى الله عليه وآله الفتنة وشدّد عليه شخصياً، كما هو حال عائشة بنت أبي بكر زوْج النّبيّ صلى الله عليه وآله، وأبي موسى الأشعريّ، والزّبير، فإنّ عذرهم منقطع؛ لأنّ

(١) النصائح الكافية، محمد بن عقل: ص١٣.

النبيّ ﷺ. حذّرهم وبيّن لهم بشكلٍ قاطعٍ لا يقبل التأويل، فهل امتثلوا؟

كانت عائشة زوج النّبيّ ﷺ على علمٍ بالواقع، وسَمَّى لها رسول الله ﷺ ماء الحوأب، ولكنّ عبد الله بن الزّبير ـ الولد المشؤوم على حدّ تعبير الإمام علي عليه السلام ـ استطاع أن يموّه عليها وصادف ذلك هوىً في نفسها. قال: ابن قتيبة: «فلمّا انتهوا إلى ماء الحوأب في بعض الطّريق ومعهم عائشة، نبحها كلاب الحوأب فقالت لمحمّد بن طلحة، أيّ ماء هذا؟ فقال: ماء الحوأب، فقالت: ما أراني إلاّ راجعة، قال: ولمَ؟ قالت: سمعتُ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يقول لنسائه: كأنّي بإحداكن قد نبحها كلابُ الحوأب، وإياك أن تكوني أنت يا حميراء. فقال لها محمّد بن طلحة: تقدّمي رحمك الله، ودعي هذا القول! وأتى عبد الله بن الزّبير، فحلف لها بالله لقد خلّفته أوّل الليل، وأتاها ببيّنة زُور من الأعراب، فشهدوا بذلك، فزعموا أنّها أوّل شهادة زُور شُهد بها في الإسلام»[1].

زعمَ ابنُ الزّبير كاذباً أنّه ليس ماءَ الحوأب، وصدّقته زوجُ النبيّ ﷺ وتركت قول من يوحَى إليه، وتبيّن لها ولغيرها فيما بعد أنّه ماء الحوأب. والعجبُ من محمّد بن طلحة كيف يستهزئ بحديث رسول الله ﷺ، تقول له سمعتُ رسول الله ويقول لها دعي عنك هذاالقول!!

إنّهم كانوا عاصين لرسول الله ﷺ مستخفّين بحديث يعتبره علماء المسلمين من دلائل النبوّة، فهل تابوا من ذلك؟ أم أنّهم غيّروا المنهجية، والتحق من نجا منهم بمعاوية لإعادة الكرّة؟! لقد كان يحرّكهم جميعاً حسدُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وبقي يحرّكهم بعد شهادته أيضاً، هذا مع أنّهم هم

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج١ ص٦٠، تحقيق الزيني.

أنفسهم يروون فضائلَه التي سمعوها من فم رسول الله ﷺ، فأيَّ نفوس هذه التي تحمل الحقد والحسد لمن تعلم أنّه حبيب الله وحبيب رسوله؟ وبأيّة طريقة يفكّرون؟ تدبّر حالهم ـ رحمك الله ـ لو جاءكَ شخصٌ وقال لك: أنا أُحبّك لكنّني أبغضُ أحبَّ الناس إليك، هل تقبلُ منْه؟ هل يعقل أن يكونوا يحبّون الله ورسوله وهم يبغضون حبيب الله ورسوله؟! لاشكَّ أنّهم قد ابتعدوا عن الإسلام بالقدر الذي لم يعودوا يميّزون به بين الحقّ والباطل، وإن كانوا قد احتفظوا بالجانب السّهل الذي لا منافسة فيه ولا حظوظ، المتمثّل في الصّلاة والصّيام. ونحن إنّما نحترم الصّحابة لتديّنهم وإخلاصهم فإذا تبيّن لنا خلاف ذلك في حقّ كثيرٍ منهم فما الوجه في موالاتهم جميعاً؟

جاء في صحيح مسلم ما يلي:

«... عن معدان بن أبى طلحة أنّ عمر بن الخطّاب خطب يوم الجمعة فذكر نبيّ الله (صلى الله عليه وسلّم) وذكر أبا بكر، قال: إنّي رأيت كأنّ ديكاً نقرني ثلاثَ نقَرات، وإنّي لا أراه إلا حضور أجلي، وإنّ أقواماً يأمرونني أن أستخلف، وإنّ الله لم يكن ليضيّع دينه ولا خلافته، ولا الذي بعث به نبيّه (صلى الله عليه وسلّم) فإن عجل بي أمر فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفّي رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، وهو عنهم راض، وإنّي قد علمت أنّ أقواماً يطعنون في هذا الأمر! أنا ضربتهم بيدي هذه على الإسلام، فإنّ فعلوا ذلك فأولئك أعداء الله الكفرة الضّلال»[1].

هذا عمر يشهد على أقوامٍ من مُعاصريه من أهل القبلة بأنّهم أعداء الله

---

(١) صحيح مسلم ٢: ٨١

الكفرة الضّلال! فما هو الموقف؟ إن يكن صادقاً فهم كفرة ضلالٌ، وإن يكن كاذباً سقطت عدالتُه، وإن لم يكنْ لا هذا ولا ذاك فعلى العقول السلام.

إنّ الذين اختاروا سيرة أهل البيت عليهم السلام والموقفَ الوسطَ من الصّحابة، ليس لهم عداوة شخصيّة ضدّ فلان وفلان كما يصوّره من يصوّره، ولا هو بدافع قوميّ كما يُوهمه القوميّون العرب الذين خانوا أمّتهم وتنكّروا لدينهم. إنّما اقتدى بأهل البيت عليهم السلام من اقتدى بهم لأنّه ليس له إلا ذلك - في ما وصل إليه فهمُه - أو معارضة القرآن والسنّة النبويّة الشّريفة، ولا يدين المؤمن مولاه بما يعتقد بطلانه والحق أحقّ أن يُتبع؛ فإن العاقل حينما يأتي ليتصفّح سيرة أهل البيت عليهم السلام وأخلاقهم وفقههم تنتعش روحه ويهتزّ إعجاباً وعرفاناً لتلك المقامات السّامية التي لا يدانيها ولا يجاريها شيء، فيحمد الله على معرفتهم والانضواء تحت رايتهم. ثم إذا هو تصفّح تاريخ أعدائهم وخصومهم وأمْعن النّظر، ضاق به الرّحب الفسيح لما يراه من الظّلم والجوْر الذي يُمارَس باسْم الإسلام دين الرحمة والعدل.



الفصل الثالث

الصحابة وطاعة النبي صلى الله عليه وآله



الصحابة وطاعة النبي صلى الله عليه وآله

معنى الطاعة:

قال أبو هلال العسكري في الفروق:

المستفادُ من الروايات هو أنّ الطاعة: الانقيادُ لمطلوب الشّارع بما أمر بـه واجباً كان أم مستحبّاً. والتّقوى: كفـّ النّفس عمّا نهى الشّارع عنه حراماً كان أم مكرُوها. قال العسكريّ: وهو المناسب لمعناهما عند اللّغويين أيضاً[1].

حكم طاعة النبي:

للنبيّ صلى الله عليه وآله ولاية عامّة على المسلمين بنصّ القرآن الكـريم النّبـيّ أولـى بالمؤمنين من أنفسهم، وهذه الولاية تخوّل له أنّ يكُون الآمرَ النّاهيَ في كلّ حال، في بيته وخارج بيته، طالما هو حيّ يرزق ويبقى الحكـم ساريا بعـد وفاته أيضاً بموجب قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَـا نَهَـاكُمْ عَنْـهُ فَانتَهُوا﴾[2]، وقوله صلى الله عليه وآله: «حلال محمّد حلال أبداً إلـى يـوم القيامـة وحـرام محمد حرام أبداً إلى يوم القيامة»[3]؛ وبموجب ذلك يكون المعترض عليـه عاصياً، وقد أخبر المولى سبحانه وتعالى أنّه يرسـلَ الرّسـلَ ليُطـاعوا لا لأن يُخْتَلَف عليهم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾[4].

وقرن سبحانه وتعالى بين طاعته وطاعة النبي فقال:

---

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري: ص١٣٧.

(٢) الحشر: ٧.

(٣) الكافي، الكليني: ج١ ص٥٨، ح١٩.

(٤) النساء: ٦٤.

﴿وأَطِيعُواْ اللَّهَ وأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾(١).

﴿مَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾(٢).

بل جُعل طاعة النبي عين طاعته جل شأنه:

﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(٣).

كما أنه أخبر عن سوء مصير من يعصي الرسول:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤).

وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُّبِينًا﴾(٥).

وقال: ﴿يَوْمَئِذ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾(٦) فكيف غابتْ كلَ هذه الأوامر والنَواهي القرآنيَة عن قوم تنزَلَ الوحْي بين أظهرهم؟

وقال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٧). وفي هذه الآية سرَ كبير للّذين يتدبرّون كلام الله تعالى، فإنَه جلَ شأنه نفى عنهم الإيمان إذا هُم وجدُوا في أنفسهم حرجاً مما قضى، وقد عَلمَ المطالعون لما جرى في صدر الإسلام أنّ الصحابة وجدوا في أنفسهم حرجاً مرات ومرات وطعنوا

---

(١) التغابن: ١٢.

(٢) النساء: ١٣.

(٣) النساء: ٨٠

(٤) النور: ٦٣.

(٥) الأحزاب: ٣٦.

(٦) النساء: ٤٢.

(٧) النساء: ٦٥.

في تصرّف رسول الله ﷺ، فآذوه بذلك واضطرّوه إلى الخروج من بيته إلى المسجد وهو مَريض يجُرّ رجليه، وقال حين خطبهم: «كما طعنتم في إمارة أبيه من قبل»[1]، وهو ما يدلّ على أنّهم اعتادُوا الطّعن في تصرّفاته، وأقلّ ما يكون في ذلك سوءُ الأدب مع ما يقتضيه نامُوس النبوة. ولقد خطأهم ﷺ في ذلك، وأكّد مرّة أخرى أنّ أسامة خليقٌ بالإمارة وأنّ أباه أيضًا كان خليقاً بها!!

وقد عقد القاضي عياض في الجزء الثاني من كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» فصلين مستقلّين، أحدُهما تحت عنوان وُجوب طاعة النبي ﷺ والثاني تحت عنوان وجوب اتّباعه ركز فيهما على ما من شأنه أن يعزّز موقع عدالة جميع الصحابة فليطالع هناك.

سلوك المؤمنين قبال سنّة النبي الأكرم ﷺ

ما هو سلوك المؤمنين قبال أقوال وأفعال وتقريرات النبي الأكرم ﷺ؟

والمقصود من وراء عنوان هذه الفقرة أنّ هناك سلوكاً معيّناً أمر به الشّارع قبال أقوال النبيّ ﷺ وأفعاله وتقريراته، يُتوقّع من المسلمين أن يأتوا به دون نقاش، بناءً على إيمانهم وتسليمهم. وهذا الموقف يُفهم من القرآن الكريم النّازل بلُغَة يفهمُها كلّ من كان مع النبي ﷺ في ذلك الزمن. وليكن اسمُه في هذا البحث السّلوكَ الشّرعيّ.

السّلوك الشّرعيّ:

وضّح القرآن هذا السّلوك كما لو أنّه كان يَتوجّه إلى صبيان صغار يلقّنهم

(١) صحيح البخاري، البخاري: ج٤ ص٢١٣.

الآداب الضّروريّة: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾[(١)]، ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[(٢)] ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[(٣)] فكلّ هذه النّواهي سهلة الفهم لا تحتاج إلى إعمال فكْر ورويّة وإنّما تحتاج إلى توجّه وانْتباه وصدْق في احترام وتوقير النبيّ ﷺ، وهذا السّلوك هو السّلوك الشّرعيّ المتوقّع منْ قوْم يُفترضُ فيهم أنّهم يفعلون ما يُؤمَرُون. وقد جسّد هذا السّلوكَ عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام، إذْ لم يُؤثَر عنْه أنّه عارض النبيّ ﷺ أو قدّم بين يديْه أو رفع صوْته بحضرته الشريفة، بل كان يراقب نفسَه بدقّة في كلّ كبير وصغير، مسلّماً لرسول الله ﷺ حتى حين يتعلّق الأمْر بأخصّ أموره الشّخصية. ويتبيّن ذلك واضحاً حين سأله النبيّ ﷺ عن اسم مولُوده الأوّل، فأجابَه قائلاً: ما كُنتُ لأسبقَك بذلك يا رسولَ الله. فعليّ كان يُترجم القرآن عمليّاً بصورة لم يلتفتْ إليْها من مُعاصريه أحدٌ، ولا أدركَه فيها أحدٌ ممّن جاء بعْده.

السّلوك الواقعيّ:

والمقصود به ما أُثر عن الأصحاب من مواقفَ تجاه قوْل وفعْل وتقْرير النّبيّ ﷺ، اعتماداً على ما جاء في كتب الجمهور (السّنّة والجماعة) وكتب التّاريخ المُعتبَرة. ولا يُعقل أن تكونَ تلك المواقف مجرّدَ ارتجالات عشوائية، لأنّ معْنى ذلك أنّه كان مسمُوحاً بالتّصرّفات الفوضويّة، وأنّ الأوامر والنّواهيَ الإلهيّة لم تكن مَحلَّ قَبولٍ من الأصحاب، ناهيك عمّا

(١) الحجرات: ٢.

(٢) الحجرات: ١.

(٣) النور: ٦٣.

يترتّب عن ذلك من الاختلال والفَساد بناءً على الفرض الأول، وما تؤول إليه صُورة الأصْحاب بناءً على الثّاني.

وإذاً، فالمفروض أنّنا أمام مجتمع بشريّ واعٍ ومسؤول يُسَارع أفرادُه إلى النّبيّ ﷺ ليستمعوا منه إلى ما يتوقّف عليه مصيرهم، وأنّهم أحياناً يستمعون إليه مبتدئاً وأحياناً يسألونه مُبتدرين، وأنّ بيْن أفراد هذا المجتمع من لا يعتقدُ بنبوّة النبيّ ﷺ، وأنّه يحضُر مجالسَه لا للتبرّك والطّاعة وإنّما ليكونَ على علْم واطّلاع بما يجري ليحدّد موْقفَه، وحتّى لا تفتضحَ حالُه. وهذا الصّنف من النّاس قد صرّح القرآن الكريم بوجودهم حول النبيّ ﷺ وسمّوا المنافقين، ونزلت سورة باسْمهم أُشيرَ فيها إلى بعْض أوصافهم. وقد قرع القرآن الكريمُ طوائفَ منهم أثْناء وبعْد غزْوة تبوك التي اتّفق المسلمون على أنّها أخر غزوات النبيّ ﷺ.

ثم يأتي بيان المواقف المأثورة التي وردت في صحاح الجمهور والوقائع التاريخيّة الثّابتة، وتترك الحريّة التّامة للقارئ في حكمه على ذلك، بعيداً عن التّلقين والإيهام. ولو أنّا كنا في مدارسنا نتحرى هذا النّوع من التّمييز بين الأشياء لكانت التّربية في بلداننا أحسن بكثير ممّا هي عليه. فإنّنا ومنذ عقود نربّي أبناءنا على كثير من التّعصّب القوميّ والطّائفيّ، فنفوّتُ عليهم بذلك المقوّمات الأساسيّة لبناء الشّخصيّة العلميّة من موضوعيّة ونزاهة وأمانة علميّة واستجابة لنداء الضمير؛ لذلك ترى من مثقّفينا ممّن هم أبناء أصول طيّبة وذوو نيّات حسنة، يقعون فرائس وضحايا الحكومات الضّالة المُضلّة، كلّ ذلك لا لخبث انطوت عليه قلوبهم مسبقاً ولكن لأنّ المناهج التي ربّوا طبْقها لم تكن تتحلّى بالنّزاهة والإنْصاف،لأنّ النّزاهة والإنصاف ينسفان بناء

الحكومات الجائرة من الأساس. وإنّه لمن السّذاجة التي لا تناسب أحوال العقلاء أن يعتقد الإنسان أنّ المناهج التّربويّة والدراسيّة في البلدان ذات الأغلبيّة الإسلاميّة مرسومة ومخطّطة بمعزل عن الأهداف السّياسيّة الحزبيّة، أو أنّ تلك الأهداف السّياسيّة في أكثرها غير معارضة للإسلام.

ولنا أن نسأل: إلام يستند موقف الإنسان من أمر ما في حياته؟

إلى مُعتقدَه وارتكازاته؟

أم إلى ما يتوقّعه من جلب منفعة أو دفع ضرر؟

لعلّ الجواب يكون سهلاً في ما يخصّ موضوعَنا باعتباره يتعلّق بسلوك يُفترضُ أن يتّحد أصحاب الموقف فيه. بمعنى أنّ الأوامر واحدة والنّواهي واحدة، والأمر المُباح خارج عن مجال البحث، وبعبارة أخرى نحن بصدد سلوك تابع للمولويّة، فهؤلاء قد أقرّوا أنّ الله تعالى مولاهم أصالة وأنّ الله تعالى جعل لنبيّه ولاية عليهم، بحيث لا يحقّ لهم أن يناقشوه في أمر قُضي؛ لأنّه لا معقّب لحكم المولى سبحانه وتعالى، والنّبيّ ﷺ إنما يبلّغ حكم المولى، وطاعته واجبة. فالمفروض أنّ الطاعة هنا مسلّمة لا تقبل الجدل. وقد وقعت المعارضة فانتفت الطّاعة المطلوبة من طرف كثير من الصّحابة، لكنّها ثبتتْ من طريق عليّ عليه السلام. وقد تفاوتت درجات الطّاعة والاعتراض قبال أوامر النّبيّ ﷺ بتفاوت الأشخاص واستعداداتهم وأمزجتهم.



الفصل الرابع

المخالفات



المخالفات

مخالفات جماعية

وقد ثبت أيضاً أنّ الصّحابة اتّفقت مواقفهم على مخالفة النّبـيّ ﷺ فـي مواطن عديدة، من بينها ما ذُكر في صحيح مسلم:

«(حدثني) محمّد بن المثنّى، حدثّنا عبد الوهاب يعنى ابن عبد المجيـد، حدثنا جعفر عن أبيه عن جابر بن عبـد الله (رضـي الله عنهمـا) أنّ رسـول الله (صلى الله عليه وسلّم) خرج عام الفتح إلى مكّة في رمضان فصام حتّى بلغ كراع الغميم، فصام النّاس، ثُمّ دعا بقدح من ماء فرفعه حتّى نظر النّاس إليه، ثُمّ شرب، فقيل له بعد ذلك إنّ بعض النّاس قد صام، فقال: أولئـك العـصاة أولئك العصاة»[1].

ولا أدري لمَ لا ينطبق على العصاة قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾[2].

وفي صحيح مسلم أيضاً:

«عن جرير بن عبد الله قال: جاء ناس مـن الأعـراب إلـى رسـول الله (صلى الله عليه وسلّم) فقالوا إنّ ناسا من المصدّقين يأتوننـا فيظلموننـا، قال: فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): ارضوا مصدّقيكم، قال جرير ما صدر عنّي مصدقٌ منذُ سمعتُ هذا مـن رسـول الله (صـلى الله عليـه وسلّم) إلاّ وهو عنّي راض»[3].

---

(١) صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ج٣ ص١٤١.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

(٣) صحيح مسلم، النيسابوري: ج٣ ص٧٤.

وفيه:

«عن ثابت عن أنس (رضي الله عنه)، قال: واصل رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) في أول شهر رمضان، فواصل ناس من المسلمين فبلغه ذلك، فقال: لو مُدّ لنا الشّهر لواصلنا وصالاً يدعُ المتعمّقون تعمّقهم، إنّكم لستم مثلي (أو قال): إنّي لست مثلكم إنّى أظلّ يُطعمني ربّي ويسقيني، (وحدّثنا) إسحاق بن إبراهيم وعثمان بن أبي شيبة جميعاً عن عبدة، قال إسحاق: أخبرنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: نهاهم النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) عن الوصال رحمةً لهُم، فقالوا: إنّك تواصل قال إنّى لست كهيئتكم إنّى يطعمنى ربى ويسقيني»[1].

وفي صحيح البخاري[2]:

«فقال عمر بن الخطاب فأتيت نبيّ الله (صلى الله عليه وسلّم) فقلت: ألستَ نبيّ الله حقّاً، قال: بلى، قلتُ: ألسْنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل، قال: بلى، قلتُ: فلمَ نُعطي الدّنيّة في ديننا إذاً، قال: إنّي رسول الله ولست أعْصيه وهو ناصري، قلت: أوليس كُنتَ تُحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به، قال: بلى فأخبرتك أنّا نأتيه العام، قال قلتُ: لا، قال: فإنّك آتيه ومطوف به، قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبيّ الله حقّاً، قال: بلى، قلت: ألسْنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل، قال: بلى، قلتُ: فلمَ نُعطى الدّنيّة في ديننا إذاً، قال: أيّها الرّجل إنّه لَرسولُ الله (صلى الله عليه وسلّم) وليس يعصي ربّه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه، فوالله إنّه على الحقّ، قلت: أليس

---

(١) صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ج٣ ص١٣٤.
(٢) صحيح البخاري، البخاري: ج٣ ص١٨٢.

كان يحدّثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى أفأخبرك أنّك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنّك آتيه ومطوّف به.

قال الزّهريّ، قال عُمر: فعملت لذلك أعمالاً! قال: فلمّا فرغ من قضيّة الكتاب، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) لأصحابه: قوموا فانحروا ثمّ احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل! حتّى قال ذلك ثلاث مرات، فلمّا لم يقُمْ منْهُم أحد دخل على أمّ سلمة فذكر لها ما لقي من النّاس، فقالت أمّ سلمة: يا نبيّ الله أتحبّ ذلك، اخرج ثم لا تكلّم أحداً منهُم كلمةً حتّى تنْحر بُدنَك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحداً منهُم حتّى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلمّا رأوا ذلك قاموا، فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما[!] ثمّ جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[١]»[٢].

لقد بقي الغيظ يغلي في صدورهم، لأن رسول الله ﷺ خالف هواهم، ولشدّة الغيظ كاد بعضهم يقتل بعضاً أثناء حلق الرّؤوس. فأين هذا من التّسليم ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[٣]؟!

وفي صحيح مسلم:

«أخبرني أبو الزبير أنّه سمع جابر بن عبد الله يقول: صلّى بنا النّبيّ (صلى

(١) الممتحنة: ١٠.
(٢)صحيح البخاري، البخاري: ج٣ ص١٨٢.
(٣) النساء: ٦٥.

الله عليه وسلّم) يوم النّحر بالمدينة، فتقدّم رجال فنحروا وظنّوا أنّ النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) قد نحر، فأمر النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) من كان نحر قبله أن يعيد بنحرٍ آخر ولا ينْحروا حتى ينْحر النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم)»[١].

أقول: في زمان النبيﷺ ومعه في نفس المدينة يقع مثل هذا، لأنّهم كانوا يعملون بظنّهم دون تثبّت. فمن ذا الذي يصحّح لهم بعد وفاتهﷺ؟

وفي صحيح مسلم:

«عن الأعمش، عن أبي الضّحى، عن مسروق، عن عائشة، قالت صنع رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أمراً فترخّص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه فكأنّهم كرهوه وتنزّهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً فقال: ما بالُ رجال بلغهم عنّي أمرٌ ترخّصتُ فيه فكرهُوه وتنزّهوا عنه، فوالله لأنا أعلمُهم بالله وأشدّهم له خشْيةً»[٢].

وفي الطبقات الكبرى:

«... فخرج [أي أسمة بن زيد] بلوائه معقوداً، فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمي وعسكر بالجرف، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأوّلين والأنصار إلاّ انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبوبكر الصّديق وعمر بن الخطّاب وأبو عبيدة بن الجرّاح وسعد بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد وقتادة بن النّعمان وسلمة بن أسلم بن حريش، فتكلّم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين؟ فغضب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)

---

(١) صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ج٦ ص٧٧.

(٢) صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ج٧ ص٩٠.

غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عصابةً وعليه قطيفة فصعد المنْبر فحمد الله وأثنى عليْه ثمّ قال: أمّا بعد أيّها النّاس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله! وأيم الله إن كان للإمارة لخليقاً وإنّ ابنَه من بعده لخليقٌ للإمارة وإنّ كان لمن أحبَّ النّاس إليّ وإنّهما لمخيّلان لكلّ خير»(١).

في الطبقات الكبرى:

«قالوا فلما رأت الأنصار ما أعطى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فيقريش والعرب تكلّموا في ذلك، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع النّاس بالشّاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم، قالوا رضينا يا رسول الله بك حظّا وقسماً، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، وانصرف رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وتفرّقوا»(٢).

لما رأى الأنصار ما أعطى رسول اللهﷺ للمؤلّفة قلوبهم تكلّموا في ذلك، أي فيما بينهم، وبلغ الكلام رسول اللهﷺ فهلاّ سألوه مباشرةً؟ أتراهم يتّهمونه وهو الذي جاء ليؤسّس العدل بين جميع البشر لا بين الأنصار والمهاجرين فحسب؟ وبهذه السّرعة يفقدون ثقتهم في النبيﷺ لأجل عدد محدود من الجمال؟

قال ابن سعد في الطبقات:

«واستشار رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) نوفل بن معاوية الدّيلي

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٢ ص١٩٠.

(٢) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٢ ص١٥٤.

فقال: ما ترى، فقال: ثعلب في جحر إن أقمتَ عليه أخذتَه وإن تركتَه لم يضرك فأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) عمر بن الخطّاب، فأذّن بالنّاس بالرّحيل فضجّ النّاس من ذلك [!] وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطّائف، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): فاغدوا على القتال فغدوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، إنّا قافلون إن شاء الله، فسُرّوا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يضحك، وقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): قولوا لاإله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، فلما ارتحلوا واستقلّوا قال: قولوا آئبون عابدون لربنا حامدون»[١].

قال الجوهري في صحاحه: ذعن أي خضع له وذل[٢]. وفي القاموس المحيط: خضع وذلّ وأقرّ وأسرع في الطّاعة وانقاد».[٣]

أقول: وإنّما يُقال ذلك لمن كان رافضاً آبياً مُعانداً، وأمّا المطيع فهو من يقول: «سمعنا وأطعنا».

وقول ابن سعد أذعنوا يشعر أنّ اعتراضهم على النبيﷺ كان نوعاً من التمرّد، فإنّه قال: ضجّ النّاس، والضجيج إنّما يكون بارتفاع الأصوات الكثيرة، فالذين كانوا معهﷺ يوم حنين قد أساؤوا التّصرّف مهما هُذّبت العبارة، وأساؤوا الظنّ برسول اللهﷺ على أنّ ابن سعد قال: «ولم يؤذن لرسول الله (صلى الله عليه وسلّم) في فتح الطّائف واستشار رسول الله

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٢ ص١٥٩.

(٢) الصحاح، الجوهري: ج٥ ص٢١١٩.

(٣) القاموس المحيط، الفيروز آبادي: ج٤ ص٢٢٥.

(صلى الله عليه وسلّم) نوفل بن معاوية الدّيلي فقال ما ترى فقال ثعلب في جحر إن أقمتَ عليه أخذتَه وإن تركتَه لم يضرك فأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) عمر بن الخطاب فأذّن بالنّاس بالرحيل[1]، فهوﷺ لم يؤذن بالرّحيل إلاّ بعد الحصار وتعذّر الفتح، إضافة إلى استشارة نوفل بن معاوية الديلي والمفروض أنهﷺ حريص عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنّه أولى بالمؤمنين من أنفسهم. لكن يبدو أنّ ذهنيّة الغنائم التي فعلت ما فعلت يوم أُحُد لازالت تعشّش في الرّؤوس، فاستعجلوا الفتح ووقعوا في ما وقعوا فيه يوم الحديبية، حيث قالوا: كيف نرجع ولم نطف بالكعبة، ولم يستفيدوا من الدّرس ونسُوا قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾[2]. وهكذا غدا فتح الطائف أهمّ من طاعة الرسول».

جاء في صحيح مسلم النيسابوري مايلي:

«عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فقد ناسا في بعض الصّلوات، فقال: لقد هممتُ أن آمر رجلاً يصلّي بالنّاس، ثمّ أخالف إلى رجال يتخلّفون عنها فأمر بهم فيحرّقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم ولو علم أحدهم أنّه يجد عظماً سميناً لشهدها، يعنى صلاة العشاء»[3].

وفي أسد الغابة:

«... حدّثنا محمّد بن فضيل، حدّثنا الأعمش عن أبي الزبير، عن جابر،

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٢ ص١٥٩.

(٢) الفتح: ٢٧.

(٣) صحيح مسلم: ج٢ ص١٢٣.

قال: لمّا كان يوم الطائف دعا رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) عليّاً فناجاه طويلاً، فقال بعض أصحابه: لقد أطال نجوى ابن عمّه، قال ـ يعني رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ـ: ما أنا انتجيته ولكن الله انتجاه»[(١)].

وفي تاريخ اليعقوبي:

«وقدم علي بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله وذلك قبل نكاحه إيّاها، وكان يسير اللّيل ويكمُن النّهار حتّى قدم فنزل مع رسول الله. ثمّ زوّجها رسول الله من علي بعد قدومه بشهرين، وقد كان جماعة من المهاجرين خطبوها إلى رسول الله فلما زوّجها علياً قالوا: في ذلك، فقال رسول الله: ما أنا زوّجته ولكنّ الله زوّجه»[(٢)].

هذا الذي لا يكاد يُصدّق!! يحقّ لكلّ امرئ من المُسلمين أنّ يزوّج ابنته ممّن شاء، أمّا رسول الله ﷺ فلا!

أليس وليّ أمرها؟ أليس يقول القرآن الكريم **﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾**[(٣)] **﴿فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾**[(٤)]؟

وأيضاً ما رواه النّسائي: حيث قال: «كان لنفر من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أبواب شارعة في المسجد قال: فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يوماً: سدّوا هذه الأبواب إلاّ باب علي. فتكلّم في ذلك الناس، فقام رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد فإنّي أُمرت بسدّ هذه الأبواب غير باب علي. وقال فيه

---

(١) أسد الغابة ابن الاثير: ج٤ ص٢٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٤١.

(٣) الأنفال: ٧٥.

(٤) النساء: ٧٨.

قائلكم، والله ما سددته ولا فتحته ولكنّي أمرت فاتبعته»[١].

فقوله ﷺ «قال فيه قائلكم» صريح في أنّ أفعاله وتصرّفاته التي يفترض أنّها أقسام السنّة (القول والفعل والتّقرير) كانت محلّ انتقاد بعض الصّحابة، وكان ﷺ يردّ عليهم ويُخطئهم ويبيّن لهم وجه الخطإ، ومع ذلك فقد استمرّوا في انتقاد تصرّفاته بدليل قول قائلهم أو قائليهم في تأميره أسامة بن زيد على جيش فيه جلّة المهاجرين والأنصار، وهناك أيضا خرج النبي ﷺ يجرّ رجليه إلى المسجد وخطب فيهم وخطّأهم في ما ذهبوا إليه.

(١) خصائص أمير المؤمنين، النسائي: ص٧٣.

وقبل التطرق إلى تفصيل ذلك تجدر الإشارة إلى أنّ الجهاد في سبيل الله تعالى من أهمّ أمور الدين باتّفاق المسلمين، وبفضله بقي الإسلام رغم أنف قريش. وأحسن ماجاء على ألسن المسلمين بخصوص الجهاد قول علي بن أبي طالب عليه السلام.

«أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذّلّ وشمله البلاء، وديث بالصغار والقماءة، وضرب على قلبه بالإسهاب، وأديل الحق منه بتشييع الجهاد، وسيم الخسف ومنع النصف.. وبما أن الله تعالى يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، فإنه يهمنا معرفة بلاء الصحابة في الحروب زمان رسول الله ﷺ، خصوصاً من وصل إلى الحكم منهم بعد وفاته، كيف لا وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين...»[1].

وليس المقصود من ذلك أنّ من لم يكن ذا شجاعة فليس له حظّ في الدين، فإنّ الناس في الشّجاعة أصناف ومراتب، لكن يصحّ أنّ يقال إنّ الله سبحانه وتعالى عظّم حرمة الجهاد لأنّ حياة الدّين ودوامه به، والذي يقدّم نفسه لأجل دينه قد أعذر وأكّد صدق دعواه، فليس بعد بذْل المُهجة شيء يُبذل. وأما من فرّ وتكرّر منه الفرار، فإنّ ذلك دليل على عدم صدقه في ما يدّعي، ولو كان دينه من قلبه بمكان لضحّى بأغلى ما يملك من أجله. أما وقد ضحّى بدينه لينجو بنفسه، فنجاته أهمّ عنده من نجاة دينه. ولولا أنّ

---

(١) نهج البلاغة، محمد عبده: ج١ ص٦٧، الخطبة ٢٧.

الفرار من الزّحف أمر ممقوت وخيمُ العاقبة لما جعله الله تعالى من الكبائر وأوعد صاحبه بالنار ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَال أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَة فَقَدْ بَاء بِغَضَب مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ..﴾(١) وقد أخبر المولى سبحانه وتعالى أنّ في الجهاد كُرهاً لكثير من النّاس، وهو معلوم بالوجدان، لأنّ النفوس تميل إلى التّرف والعافية لشدّة تعلّقها بالحياة الدّنيا. هذا وقد وقعت أثناء غزوة تبوك أحداث ذكرها القرآن الكريم، يتجلّى فيها سلوك كثير من الصّحابة طريقة غير مرْضيّة، كان الرّد فيها من المولى سبحانه وتعالى حاسماً، بآيات تضع كلّ شخص في محلّه وتنعى على بعضهم أنهم استسلموا للحياة الدنيا واطمأنّوا بها وراحوا بسلوكهم المَشين يدعون إلى ترك الجهاد.

ففي ما يتعلّق بالصّحابي عمر بن الخطاب، ينبغي الإشارة إلى أن كتب التاريخ لا تذكر له قتيلاً مع تعدّد المعارك التي حضرها، بينما سُجّلتْ له حالات فرار متعدّدة بعضها يقرّ فيها على نفسه بذلك:

«(اخبرنا) أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي بمرو، حدّثنا سعيد بن مسعود، حدثنا عبد الله بن موسى، حدّثنا نعيم بن حكيم عن أبي موسى الحنفيّ عن عليّ (رضي الله عنه) قال: سار النّبيّ ﷺ إلى خيبر، فلما أتاها بعث عمر (رضي الله تعالى عنه) وبعث معه النّاس إلى مدينتهم أو قصرهم فقاتلوهم، فلم يلبثوا أن هزموا عمر وأصحابه فجاؤا يجبّنونه ويجبّنهم، فسار النبي ﷺ الحديث، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه(٢).

---

(١) الأنفال: ١٦.

(٢) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص٣٨؛ المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي: ج٨ ص٥٢٥؛

فقد شهدوا على عمر بالفرار والجبن، ولعلّ هذا مما يفسّر تأمير رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد على جمهور الصّحابة وفيهم أبوبكر وعمر، فإن النبيﷺ من حقّه ألاّ يؤمّر على جيش متوجّه إلى عدوّ بعيد من تكرّر منه الفرار، لأنّه لا يؤمن تكرّر ذلك منه، وفي هذه الحالة تكون النّتيجة خطيرة؛ لأنّ النبيﷺ لن يكون لهم فئةً باعتبار بعد الشّقّة، فيهلك الجيش كلّه. ويوم الأحزاب حينما قال رسول اللهﷺ: من يخرج إلى عمرو بن عبد ود لم يبرز أحدٌ، مع أنّ النبيﷺ كرّر ذلك ثلاث مرات، هذا مع العلم أن عمر بن الخطاب أكثر الصّحابة ذكْراً لضرْب العُنق حينما يتعلّق الأمر بالبسطاء، فإنّه لم يكن يتورّع عن قوله: يا رسول الله دعني أضرب عنقه!! فما باله لم يقلْها بخصوص عمرو بن عبد ود؟ وفي تكرار النبيﷺ عرضه على الصحابة خروجهم لمحاربة عمر بن عبد ود حكمة لا تخفى على المنصف، إذ لو أنه سمح لعليّعليه السلام بالخروج من المرّة الأولى لقال المؤرخون فيما بعد سبقهم بها عليّ على طريقة سبقك بها عكاشة، لكنّهم جبنوا جميعاً ونكسوا على رؤوسهم وفي الواقع كانت فرصة للشّهادة لمن هو صادق في طلبها، فانفرد بذلك عليّعليه السلام وحق أن يقال "ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين". فإلام كان يؤول مصير المسلمين لولا خروج علي إلى عمرو؟ لنفرض أن علياً كان يومها قد استشهد، كما استشهد حمزة، أو مريضاً مرضاً تتعذر معه المشاركة في الحرب، فمن الذي كان يخرج إلى عمرو؟ اللهمّ إلاّ أن يقولوا لرسول اللهﷺ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون!!!

مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٦ ص١٥١.

على أنّ كتب التاريخ تحدّثنا أنّ عمرو بن عبد ودّ أبى أن ينسحب ذلك اليوم عندما اقترح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ذلك لمصلحة الفريقين، واعتبر أنّ انسحابه سيكون فضيحة تتحدّث بها النّساء، كما يدلّ عليه الحوار الذي جرى بينهما:

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام:

قد علم ابن عمّي أنّك إن قتلتني دخلتُ الجنّة وأنت في النّار وإن قتلتُك فأنت في النّار وأنا في الجنّة

فقال عمرو:

وكلتاهما لك يا عليّ تلك إذا قسمة ضيزى

فقال عليّ عليه السلام:

دع هذا يا عمرو وإني سمعت منك وأنت متعلّق بأستار الكعبة تقول لا يعرض عليّ أحد في الحرب ثلاث خصال إلا أجبته إلى واحدة منها وأنا أعرض عليك ثلاث خصال فأجبني إلى واحدة.

قال: هات يا علي.

قال: تشهد أن لا إله إلا الله محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال: نحّ عنّي هذا.

فسأل الثانية فقال:

أن ترجع وتردّ هذا الجيش عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإن يك صادقاً فأنتم أعلى به عيناً وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره

فقال: إذاً لا تتحدّث نساء قريش بذلك ولا تنشد الشعراء في أشعارها

أني جبنت ورجعت إلى عقبي من الحرب وخذلت قوماً رأسوني عليهم!!!

فقال له أمير المؤمنين‏عليه السلام: فالثالثة أن تنزل إلى قتالي فإنك فارس وأنا راجل حتى انابذك فوثب عن فرسه وعرقبه وقال:

خصلة ما ظننت أنّ أحداً من العرب يسومني عليها ثم بدأ فضرب أمير المؤمنين‏عليه السلام بالسيف على رأسه فاتّقاه أمير المؤمنين‏عليه السلام بالدّرقة فقطعها[1].

وروى الحاكم النيسابوري في المستدرك:

«عن أيّوب، عن عبد الرّحمن بن حرملة الأسلمي، عن سعيد بن المسيب قال: لمّا ولي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) خطب الناس على منبر رسول الله‏صلى الله عليه وآله فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيّها النّاس إنّي قد علمت منكم أنّكم تونسون مني شدّة وغلظة، وذلك أنّي كنت مع رسول الله‏صلى الله عليه وآله فكنت عبده وخادمه، وكان كما قال الله بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، فكنت بين يديه كالسيف المسلول إلاّ أن يغمدني أو ينهاني عن أمر فأكفّ وإلاّ أقدمتُ على الناس لمكان لينه!!!»[2].

لماذا تخلّف السيف المسلول؟ لماذا لم يستجب لرسول الله‏صلى الله عليه وآله حين التمس منهم من يخرج لمواجهة عمرو بن عبدود؟ أليس هذا مقام الامتحان والتمحيص. وليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. إنّما يعرف الصّادق من الكاذب عند الامتحان، ولذلك وصف الله تعالى الذين ثبتوا ولم يتزعزعوا ولم تضطرب نفوسهم وصفهم بالصّدق فقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا

(١) تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي: ج٢ ص١٨٤.
(٢) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج١ ص١٢٦.

عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وأكرمهم بالشّهادة غاية الإكرام، فشهداء الإسلام في صدر الإسلام كثير، ولكن ليس كلّ واحد منهم طيّاراً في الجنـة، ولا لكـلّ واحـد منهم منزلة حمزة بن عبد المطّلب، وكلاًّ وعد الله الحسنى. إنّ المجاهـدين الصّادقين الذين لا يولّون الأدبار أحبّاء الله تعالى ومفخرة الإسلام، لا يقـاس بهم الجبناء الفُرّار، فكيف بتفضيلهم عليهم؟ وهل أتي المسلمون في زماننـا إلاّ من جبن حكامهم وذلّتهم ومسكنتهم وعمالتهم؟!

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّـوهُمُ الأَدْبَـارَ ۞ وَمَـن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1].

قال ابن هشام الحميري في السيرة:

«قال ابن إسحاق: وانكشف المسلمون، فأصاب فيهم العدوّ، وكـان يـوم بلاء وتمحيص، أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة، حتى خلص العدوّ إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم). فـدثّ بالحجـارة حتـى وقـع لشقّه، فأصيبت رباعيّته وشجّ في وجهه، وكلمت شفته، وكان الـذى أصـابه عتبة بن أبى وقاص. قال ابن إسحاق: فحدثني حميد الطويل، عن أنس بـن مالك، قال: كسرت رباعية النبي (صلى الله عليه وسلّم) يوم أحد، وشجّ فـي وجهه، فجعل الدّم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدّم وهو يقول: كيـف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربّهم»[2].

---

(١) الأنفال: ١٦.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام: ج٣ ص٥٩٧.

حدث ما حدث لأنّهم عصوا الرسول ولم يصبروا أمام إغراء الغنائم. لقد كانت القلوب متوجّهة نحو الغنائم، وكان الحاضرون في المعركة يرون جواز مخالفة النبيﷺ، وإلاّ فإنّهم لو كانوا يعتقدون أنّه لا يجوز مخالفته بحال ومع ذلك فعلوا ما فعلوا فإنّ الإشكال يأخذ بعداً آخر ويصبح دون ردّه وتوجيهه خرط القتاد.

وكان ممّن فرّ يوم أحد أبوبكر بن أبي قحافة، كما روى ابن سعد أسنده إلى الشعبي قال: أخبرنا موسى بن إسماعيل، قال: أخبرنا عبدالله بن المبارك قال أخبرنا إسحاق بن يحيى بن طلحة، قال: أخبرني عيسى بن طلحة عن عائشة أم المؤمنين، قالت: حدثني أبوبكر قال: كنت في أوّل من فاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يوم أحد، فقال لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): عليكم صاحبكم، يريد طلحة، وقد نزف فلم ينظر إليه وأقبلنا على النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم)[1].

لكن ابن عساكر في الجزء الثلاثين من تاريخ دمشق يقول:

اسمه عتيق، وزاد ابن الفهم عن ابن سعد قالوا: وشهد أبوبكر بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، ودفع رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) رايته العظمى يوم تبوك إلى أبي بكر وكانت سوداء وأطعمه رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بخيبر مائة وسق، وكان في من ثبت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يوم أحد حين ولى الناس!![2].

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٣ ص٢١٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٠ ص١٥.

هذا أبوبكر يشهد على نفسه أنّه كان في أول من فاء إلى رسول اللهﷺ، وفاء بمعنى رجع بدليل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللَّـهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

قال الطبري: «فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم. يعني تعالى ذكره بذلك: فإن رجعوا إلى ترك ما حلفوا عليه...»[2]

وقال النحاس: «فجعل الله الأجل الذي يعلم به ما عند الرجل في المرأة اربعة اشهر وإذا تمت ولم يفئ ـ أي لم يرجع الى وطء امرأته ـ فقد طلقت في قول ابن مسعود وابن عباس»[3].

وقال الراغب: «الفئ والفيئة الرجوع إلى حالة محمودة، قال (حتى تفئ إلى أمر الله ـ فإن فاءت) وقال: (فإن فاءوا) ومنه فاء الظل، والفئ لا يقال إلا للراجع منه»[4].

وقال القرطبي: «(فإن فاؤوا) معناه رجعوا، ومنه "حتى تفئ إلى أمر الله" ومنه قيل للظّلّ بعد الزّوال: فئ، لأنّه رجع من جانب المشرق إلى جانب المغرب، يقال: فاء يفئ فيئة وفيوءا. وإنّه لسريع الفيئة، يعنى الرجوع»[5].

وفي تفسير الجلالين:

﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا﴾ رجعوا فيها أو بعدها عن اليمين إلى الوطئ

---

(١) البقرة: ٢٢٦ـ ٢٢٧.

(٢) جامع البيان، إبن جرير الطبري: ج٢ ص٥٧٢.

(٣) معاني القرآن، النحاس: ج١ ص١٩٣.

(٤) مفردات غريب القرآن، الراغب الاصفهاني: ص٣٨٩.

(٥) تفسير القرطبي، القرطبي: ج٣ ص١٠٨.

﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [١]

وفي فتح القدير:

«فاؤوا أي رجعوا، ومنه تفيء إلى أمر الله، أي ترجع، ومنه قيل للظل بعد الزوال فيء؛ لأنه رجع عن جانب المشرق إلى جانب المغرب يقال فاء يفيء فئة وفيوءاً وإنه لسريع الفيئة أي الرجعة» [٢].

فمن أين رجع أبوبكر؟! وهل يُتصوّر رجوع بدون ذهاب؟! لقد رجع أبوبكر من انهزامه، رجع من فراره وتركه رسولَ الله ﷺ بين يدي الأعداء.

وإذاً فهذا أبوبكر بن أبي قحافة يشهد على نفسه بالرّجوع بعد الفرار، وابن عساكر يقول عنه إنّه كان ممن ثبت! فإذا كان قد ثبت فمن أين رجع؟!!

على كلّ حال لو سلّمنا أنّه ثبت يوم أحد فإنّه لم يثبُت يوم حنين ولا يوم خيبر، وجبن يوم الأحزاب،؟ وهذا ثابت في كتب السير والتاريخ:

قال اليعقوبي في تاريخه بخصوص غزوة حنين:

«وقال بعضهم: ما نؤتى من قلة، فكره رسول الله ذلك من قولهم، وكانت هوازن قد كمنت في الوادي، فخرجوا على المسلمين. وكان يوماً عظيم الخطب وانهزم المسلمون عن رسول الله حتى بقي في عشرة من بني هاشم، وقيل تسعة، وهم: علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب والفضل بن العباس وعبد الله بن الزبير بن عبد

---

(١) تفسير الجلالين، المحلي، السيوطي: ص٤٨.

(٢) فتح القدير الشوكاني: ج١ ص٢٣٢.

المطلب وقيل أيمن بن أم أيمن»[١].

والمسألة أعمق من ذلك وأخطر وإنّما يحاول المؤرّخون ورواة السّير التّهوين من شأنها حفاظاً منهم على صورة من جعلوهم مثلا وقدوةً للأجيال، لذلك تراهم يمرّون مرور البرق على هذه الأحداث؛ فإنّها تخفي وراءها شيئاً رهيباً! وإلاّ فماذا يقصد الذي يفرّ من المعركة ويترك رسول الله ﷺ بين يدي أعدائه؟ أليس يعتبر حياته أهمّ من حياة رسول الله؟ لو كان يعتبر حياة رسول الله أهمّ من حياته لفداه بنفسه ولما فكّر في الفرار أصلاً.

ولنفرض أنّه وأمثاله كان معهم أزواجهم في ذلك اليوم، أترى أحدهم يفرّ ويترك زوجته بين أيدي أعدائه؟ هل يفعل ذلك رجل شريف حريص على عرضه؟ لا شكّ أنّه يموت دون شرفه، دفاعاً عن زوجته! أفلا كانت منزلة نبيّه عنده مساوية لمنزلة زوجته؟!

والعجب كل العجب من السّيوطيّ حيث عقد فصلاً في كتابه تاريخ الخلفاء يذكر فيه شجاعة أبي بكر، وينسب إلى عليّ عليه السلام القول بأنّ أبا بكر أشجع أصحاب رسول الله ﷺ!!

قال السّيوطي: «فصل في شجاعته وأنه أشجع الصحابة (رضي الله عنه) أخرج البزّار في مسنده عن عليّ أنّه قال: أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا أنت. قال: أما إنّي ما بارزت أحداً إلاّ انتصفت منه ولكن أخبروني بأشجع النّاس، قالوا: لا نعلم فمن؟ قال: أبوبكر إنّه لمّا كان يوم بدر فجعلتم لرسول الله (صلى الله عليه وسلّم) عريشاً فقلنا من يكون مع رسول الله (صلى الله

---

(١) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص٦٢.

عليه وسلّم) لئلاّ يهويَ إليه أحد من المشركين، فوالله ما دنا منا أحد إلاّ أبوبكر شاهراً بالسّيف على رأس رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) لا يهوي إليه أحد إلاّ هوى إليه، فهو أشجع النّاس، قال علي (رضي الله عنه): ولقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وأخذته قريش فهذا يجبأه وهذا يتلتله وهم يقولون أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال: فوالله ما دنا منّا أحد إلاّ أبوبكر يضرب هذا ويجبأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله ثم رفع عليّ بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبوبكر فسكت القوم فقال: ألا تجيبونني فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه[١]. [!!!!!]

وقال أيضا: «أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال: تباشرت الملائكة يوم بدر فقالوا أما ترون الصّدّيق مع رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) في العريش. وأخرج أبو يعلى والحاكم وأحمد عن عليّ قال: قال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يوم بدر ولأبي بكر مع أحد كما جبريل ومع الآخر ميكائيل!» [٢].

أقول: أين كان ميكائيل يوم خيبر أيها المؤرّخ الكبير؟إنّه ليس من عادة ميكائيل أن ينهزم بالرّاية منكّسة!

والحقّ أنّ الشّجاعة أمر مهمّ في حياة الفرد والمجتمع بما لا يدع مجالاً

(١) تاريخ الخلفاء، السيوطي: ج١ ص٣٨.
(٢) تاريخ الخلقفاء، السيوطي: ج١ ص٣٨.

لمعترض عاقل. والمقصود من الشّجاعة تلك الملكة الممدوحة التي يتحلّى بها المؤمن، من قوّة وشدّة وبأس في وجه الأعداء ـ أعداء الدّين ـ بما يغيظهم، ويذلّهم وأمّا الشّدّة على المؤمنين فلا يأتي بها مؤمن لأنّها خلاف ما أمر الله تعالى به نبيّه قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولا شكّ أنّ معنويّات الأمّة ذات الجيش القويّ والقيادة الشُّجاعة الحكيمة معنويات عالية، وأنّ ضمائر آحادها وجماعاتها مطمئنّة، كما أنّه لا شكّ أنّ معنويات الأمّة ذات القيادة المتخاذلة مهتزّة، وأنّ معيشة أهلها ضنك. لذلك فإنّ القرآن الكريم ما فتئ يحثّ المسلمين على القتال ويأمر النبيﷺ أن يحرّض المؤمنين عليه. ذلك لأنّ الجهاد يعني الدّفاع عن المقدّسات، والوقوف في وجوه المنحرفين والظّالمين وقد بلغ ذلك في الإسلام أنّهم رووا أنّ النبيﷺ قال: من مات ولم يغزُ ولم يحدّث نفسه بالغَزْو، مات ميتة جاهليّة. فالإسلام في مسألة الجهاد يحاسب حتّى على النّيّة. فلا يحقّ بمقتضى الحديث السّابق أن يتعامل المسلم مع قضيّة الجهاد بدون مبالاة، لماذا ينبغي على المسلم أن يحدث نفسه بالغزو؟ أهو لمجرّد القتل؟ ما هي الفائدة من قتل الآخرين؟

للجهاد أيضا فلسفته، وبعيد أن يكون كلّ صحابة النبيﷺ قد أحاطوا بذلك وإلاّ لما سوّلت لهم أنفسهم أن يفرّوا ويتركوا رسول اللهﷺ بين يدي عدوّه. هذه مسألة خطيرة يمرّ بها مؤرخو المسلمين ومحدّثوهم على جناح السّرعة مع أنّها في غاية من الأهمّيّة. وقد أنّب الله تعالى الفارّين ووبّخهم وحذّرهم سوء المصير، وما أكثر ما مورس التّعتيم على الأسماء

حفظاً لماء الوجه؛ لأنّ الأمر يتعلّق برموز فوق كلّ اعتبار عند أهل الجماعة، ونسوا أنّهم مسؤولون أمام الله والضّمير، مسؤولون أمام الأجيال التي سوف تكتشف الكذب طال الزّمان أم قصر، وساعتها تتلاشى الثّقة ويتحتّم البحث، وخسر هنالك المبطلون.

والآيات القرآنية الكريمة التي تشيد بالمجاهدين الصّادقين كثيرة؛ لأنّ المجاهدين أحبّاء الله تعالى فقد صرّح القرآن الكريم بفضلهم وعلوّ منزلتهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ وأنكر على قوم زعموا أنّ سقاية الحاج توازي الجهاد في سبيل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2] ـ وبيّن فضل المجاهدين على القاعدين فكيف بالفارّين من الزحف؟!

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[3] وقد تكرّر الفرار من الزّحف من طرف الثّلاثة الأوائل الذين خلفوا رسول الله ﷺ في الحكم، وقد كانت العرب تعيّر ذرّيّة الرّجل بفراره؛ لأنّ ذلك عندهم دليل على دناءة الفارّ وإفلاسه ممّا يتنافس فيه الأبطال. فأيّ عقل هذا الذي يجعل من وبّخه الله تعالى وهدّده بالعذاب العظيم أفضل وأعلى منزلة ممّن صرّح سبحانه وتعالى بمحبّته؟!

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) التوبة: ١٩.

(٣) النساء: ٩٥.

ذكر السّيوطي في فضائل أبي بكر ما شاء، فجاء بأمور كان في غنى عنها لو أنّه نظر بعين البصيرة، وكمثال على ذلك «ما روي عن أحمد والترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): أرحم أمّتي بأمّتي أبوبكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم الحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ بن كعب، ولكل أمّة أمين وأمين هذه الأمّة أبو عبيدة بن الجراح. وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن عمر وزاد فيه وأقضاهم عليّ. وأخرجه الدّيلميّ في مسند الفردوس من حديث شدّاد بن أوس وزاد وأبو ذرّ أزهد أمّتي وأصدقها وأبو الدّرداء أعبد أمّتي وأتقاها ومعاوية بن أبي سفيان أحلم أمّتي وأجودها»[1].

هذا حديث تفوح منه رائحة عداوة أهل بيت النّبوّة ومعدن الرّسالة، فإن يكن الحديث موضوعاً فقد نسب واضعه إلى مجموعة من الصّحابة أموراً تردّها أقوالهم وأفعالهم. وقد كان همّ الواضع أن يحطّ من شأن هارون الأمةعليه السلام فيجعله نكرة لا حظّ له في الفضائل، ويرفع من شأن معاوية بوصفه بالحلم والجود. وهل يصلح العطّار ما أفسد الدهر؟! أيكون حليماً من يصرّ على لعن أحبّ الناس إلى الله ورسوله بشهادة الشّيخين البخاريّ ومسلم؟ ولكنّها عين الرّضا عن كلّ عيب كليلة. أمّا عين السّماء فإنّها عين العدل الذي لا محاباة فيه ولا غمط، وليس للإنسان إلاّ ما سعى. وقد ولد عليّعليه السلام في الكعبة، واستشهد في المحراب، وقضى بين ذلك عمراً في طاعة الله تعالى ورسوله، لا يستهويه حبّ من أحبّه ولا يضرّه بغض من

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء: ج١ ص٤٤.

أبغضه بل ينتفع بحبّه مُحبُّه ويتضرر ببغضه من أبغضه، فطوبى لمن أحبّه وصدق في حبّه وويل لمن أبغضه. وإن يكن الحديث صحيحاً ـ من جهة الإسناد ـ فإنّ موقف أنس بن مالك من عليّ عليه السلام معلوم وقد كذب يوم الرّحبة بحضور جماعة ممّن حضر يوم الغدير وكتم الشّهادة فدعا عليه عليّ عليه السلام «إن كنت كاذباً فضربك الله بها بيضاء لا تواريها العمامة» وكذلك كان. فقد أصابه البرص في وجهه فكان لا يمشي إلاّ مبرقعاً فإذا سئل عن ذلك قال: أصابتني دعوة الرّجل الصّالح.

ذكر ابن العربي في كتابه العواصم ما يلي: «وقال أبوبكر لأسامة أنفذ لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عمر كيف ترسل هذا الجيش والعرب قد اضطربت عليك فقال لو لعبت الكلاب بخلاخيل نساء المدينة ما رددت جيشاً أنفذه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

إذا كان الخليفة صادقاً في قوله فما باله يتخلّف عن الجيش؟ أليس هو نفسه جنديّاً بسيطاً في هذا الجيش؟ فكيف أصبح أميراً لأميره؟ على كلّ حال لقد شاهدنا في عصرنا كثيراً من المأمورين أصبحوا أمراء أمرائهم لكن بعد انقلابات عسكريّة. فلعلّه من ذلك الباب..

وفي فضائل الصحابة:

«أخبرنا عليّ بن حجر عن إسماعيل عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر، أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بعث (صلى الله عليه وسلّم) بعثاً وأمّر عليهم أسامة بن زيد، وطعنَ بعض النّاس في إمْرته، فقال رسول الله (صلى

---

(١) العواصم من القواصم: ج١ ص٦٣.

الله عليه وسلّم): إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل وأيم الله إن كان لخليقاً للإمرة وإن كان من أحبّ النّاس إلي وإنّ هذا لمن أحبّ النّاس إليّ بعده»(١).

لا بدّ من التركيز على قضية الشّجاعة لأنّ عمر الذي فرّ في كثير من المواطن وارتكب بذلك ما يسخط الله تعالى، أصبح شجاعاً فيما بعد حينما تعلّق الأمر بالهجوم على بيت فاطمة ، وقد اعترف أبوبكر على فراش الموت أنّه أخطأ بكشفه بيتها، قال في ما رواه ابن قتيبة الدّينوَريّ في الإمامة والسّياسة:

«أجل، والله ما آسى إلاّ على ثلاث فعلتهنّ ليتني كنت تركتهنّ، وثلاث تركتهنّ ليتني فعلتهنّ، وثلاث ليتني سألت رسول الله عنهنّ، فأما اللاتي فعلتهنّ وليتني لم أفعلهن، فليتني تركت بيت عليّ وإن كان أعلن عليّ الحرب، وليتني يوم سقيفة بني ساعدة كنت ضربت على يد أحد الرّجلين أبي عبيدة أو عمر فكان هو الأمير وكنت أنا الوزير، وليتني حين أتيت بذي الفجاءة السّلميّ أسيراً أني قتلته ذبيحاً أو أطلقته نجيحا، ولم أكن أحرقته بالنّار. وأمّا اللاّتي تركتهنّ وليتني كنت فعلتهنّ ليتني حين أُتيت بالأشعث بن قيس أسيراً أنّي قتلته ولم أستحيه، فإنّي سمعت منه، وأراه لا يرى غيّا ولا شراً إلاّ أعان عليه، وليتني حين بعثت خالد بن الوليد إلى الشّام، أنّي كنت بعثت عمر بن الخطاب إلى العراق، فأكون قد بسطت يدي جميعاً في سبيل الله: وأمّا اللاّتي كنت أودّ أني سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) عنهنّ، فليتني سألته لمن هذا الأمر من بعده! فلا ينازعه فيه أحد،

(١) فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ج٢ ص٨٣٤

وليتني كنت سألته: هل للأنصار فيها من حق؟ وليتني سألته عن ميراث بنت الأخ والعمّة، فإنّ في نفسي من ذلك شيئا»[١].

كان أبوبكر عالماً بحرمة بيت فاطمة، فقد جاء في شواهد التنزيل والدر المنثور أنه سأل رسول الله ﷺ عند نزول قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قائلاً: يا رسول الله وهذا البيت منها ـ مشيراً إلى بيت فاطمة عليها السلام ـ فقال النبي ﷺ من أفاضلها!!!»[٢].

ثم إنّه يبدو من خلال كلامه أنّه كان على شكّ في كثير من الأشياء، لكنّ بعضها غير قابل للتّصديق، وبالخصوص مسألة الخلافة التي يزعم كثير من المخالفين أنّه كان أولى النّاس بها. هُوَ ذا يشهد على نفسه أنّه تمنّى لو سأل رسول الله لمن هذا الأمر بعده. أتراهم يُكذبونَه في إقراره أم ينفون القصّة من أساسها كما هي عادتهم في التنكّر للحق؟ أليس هو السّاعي جهد طاقته يوم السّقيفة، فكيف يقول ليتني سألت رسول الله ﷺ؟ وهل يحتاج الأمر إلى سؤال بعد بيعة الغدير؟ فعَلامَ بايع إذاً؟ أليس هو القائل للأنصار منّا الأمراء ومنكم الوزراء؟ على أيّ شيء بنى كلامَه يومَها؟

ألم يقل القرآن الكريم ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ فلمَ لمْ يسألهم؟ وهل كان في المدينة يومَها شخص واحد لا يعلم أنّ علياً عليه السلام بابُ مدينة العلم[٣]؟

---

(١) الإمامة والسّياسة، ابن قتيبة ـ تحقيق الزيني: ج١ ص٢٤.

(٢) شواهد التنزيل: ج١ ص٥٣٤؛ الدر المنثور، السيوطي: ج٥ ص٥٠.

(٣) حديث "أنا مدينة العلم وعلي بابها..." كان مثار جدل بين المحدثين وألّف في إثبات صحته أحمد بن الصديق المغربي المتوفى سنة ١٣٨٠ كتاباً سمّاه "فتح الملك العليّ بصحة حديث باب مدينة العلم عليّ" ردّ فيه على من طعن في صحة الحديث.

لعله يريد أن يقول أنّ العلم قد انقطع بوفاة رسول الله ﷺ؟ إنّ الذي انقطع بذلك هُو الوحْي لا العلْم، والله تعالى أجلّ من أن يترك عباده من دون هاد ثمّ يحاسبهم على ما يقعون فيه. لقد كان حبّ الرّئاسة مستولياً على قلوب خالية من التّقوى، بمجرّد أن غاب شخص النّبيّ الكريم ﷺ كشّر أهلها عن أنيابهم وهجموا بهمجيّة ووحشيّة على بيت كان جبريل يستأذن لدخوله، ثُمّ انقطعت مدّة الرّياسة والزّعامة وكُشف الغطاء فأضحى البصر حديداً، وكانت النّدامة ولاَتَ حين منْدم.

العجيب أنّ المؤرّخين والمحدّثين حينما يصلون إلى هذه الأمور يتسلّلُون لواذاً وينسون اطّلاع الله تعالى على سرائرهم، ويسرعون السّير حتى لا يتركوا للقارئ والسّامع فرصةً لصحْوة الضّمير! المُهمّ عندهم أن يبقى الإبهام إلى ما شاء الله وتُحفظ للسلف الحصانة التي أرادها بنو أميّة. ههنا يكمُن الدّاء في مسألة تاريخ المسلمين. إنها قضيّة الأمانة العلميّة، ومن حقّ كل مسلم فاتته معرفة الحقيقة في الوقت المناسب أن يتّهمهم في دينهم، وأن يقول عنهم إنّهم خانوا الأمانة ووقفوا في صفّ الشيطان بإخفائهم الحقيقة على من هو في حاجة إلى معرفتها.

أليس عجيباً أنّ فاطمة ؏ تُغصب حقّها وتمشي تستنجد بالأنصار فلا يلبّيها أحد وهي صاحبة حقّ مطهّرة بنصّ الكتاب العزيز، وبعد ذلك بمدّة من الزمن تخرج إحدى أزواج النّبيّ من بيتها الذي أمرت بالقرار فيه وتدّعي أنّها تطالب بدم عثمان مع أنّها أول مَنْ سعى في سفْك دمه وألّب عليه، وقد نزل في حقّها قرآن يهدّدها ويشبّهها بامرأة نوح وامرأة لوط، ومع ذلك تجدُ لها آلافا من الأنصار يبذلون مهجهم دونها؟! ومن لم يجعل الله له

نوراً فما له من نور.

إنّ معرفة التّاريخ على وجهه الصّحيح ممّا لا بدّ منه لفهم الدّين، لأنّه السّبيل الوحيد للتّمييز بين من وفوا بما عاهدوا الله عليه ومن خانوا ونكثوا وانقلبوا على أعقابهم، فإذا أخفى المؤرخون حقيقة ما وقع استجابة للنّزعات المذهبيّة والطائفيّة فمن أين للنّاس أن يعلموا؟ ومن أين لهم أن يميّزوا بين الأولياء والأعداء؟ وقد أخبر النّبيّ صلى الله عليه وآله في مواطن عديدة أنّ انحرافاً كبيراً يحدث بعده، فالذين يقولون لا انحرافَ إنّما يكذبون رسول الله صلى الله عليه وآله ويردّون عليه.

وشرّ من ذلك أنّهم وجّهوا ما وقع من جرائم، وتمحّلوا لذلك التّبريرات والتّأويلات وأصبح عملهم ذلك سُنّة جاريةً، لا يتجرأ على نقدها إلا القليل.

أليس عجيباً بعد كلّ هذا أن تصلنا عن طريقهم أخبار أجهدوا أنفسهم في إخفاء أمثالها؟!

هؤلاء الذين يقولون إنّ أبا بكر أولى النّاس بها هم أنفسهم يروون أنّه كان في شكّ من أمرها! وهم أنفسهم يشهدون للصّحابة بالتّقوى والإخلاص والرّحمة بالمؤمنين وفي نفس الوقت ينسبون إليهم أعمالاً لا يرتكبها من في قلبه ذرّة من الإنسانيّة فما بالك بالتّقوى.

لقد جرت العادة والعرف أن يتعامل النّاس مع العائلة التي فقدت بعض أفرادها برحمة ولين، فيتوجّهون إليها للتّعزية ويُظهرون المشاركة في الحُزن، ويتأدّبون في المواساة و...

لكنّ جماعة السّقيفة خرموا هذا العُرف، وأقبلوا على أفضل أهل بيت أقلّتهم الغبراء وأظلّتهم الخضراء يحملون النّار. نعم جاءوا بالنار! سادة أهل

الجنة يُهَدّدون بالنار لأنّهم قالوا لا نرضى بالتّحريف وتغيير الحقائق وطمس معالم الدين، ووقفوا أمام المنحرفين بشجاعة ورباطة جأش، وبفضل وقفتهم تلك بقي الدّين مَنيعاً يتحدّى النار والحديد. أيكونُ مؤمناً حقّاً من يقع في علمه أنّ بيتا كان يجلس فيه رسول الله ﷺ.

وجبريل هَجم عليه بالنار ولا يتحرّك في قلبه شيء؟

ولقد بقي الأنصار يتفرّجون كأنّ الأمر لا يعنيهم وخذلوا آل بيْت رسول الله ﷺ وهم الذين بايعوه على أن يحمُوه وأهلَ بيْته مما يحمون منه أنفسهم وأهليهم. وقفوا يتفرّجون لأنّ القضيّة بالنّسبة إليهم نزاعٌ بيْن رجال قريش حول الزّعامة. وما دامت قد أخطأت سعدَ بنَ عبادة فقد فات العزُّ بني قيلة أبد الآبدين. ولكنّهم دفعوا ثمن ذلك فيما بعد، وكانت وقعة الحرّة التي لم يرفع بعدها أنصاريٌّ رأساً.

ولفاطمة عليها السلام حُرمات، لا حرمةٌ واحدة: منها حرمةُ المطَهرة بنصّ الكتاب العزيز وحرمة سيّدة نساء العالمين، وحرمة سيّدة نساء أهل الجنّة، وحرمة بنت النبيّ المصطفى ﷺ، وحرمة المؤمنة المهاجرة في سبيل الله، وحرمة أمّ سيدي شباب أهل الجنة...، ولم يكن أحد يجهل ذلك، فكيف حصل ما حصل؟ كيف ضُيّعت كلّ هذه الحرمات دفعة واحدةً؟

جاء في الملل والنّحَل للشّهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ نقْلاً عن النّظّام ما لفظه فقال ـ أي النّظّام ـ: إنّ عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألقت الجنين من بطنها، وكان يصيح أحرقوا دارها بمن فيها، وما كان في الدار غير عليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين[1]. وفي ذيل الصفحة زيادة

(١) الملل والنحل، الشهرستاني: ج١ ص٥٧.

هذه الكلمة (ألقت المحسن من بطنها).

أمّا الذين يلبّسون على أنفسهم فإنّهم لا يبالون أن يعتبروها امرأة كسائر النّساء مهما قال النّبيّ ﷺ ومهما نزل من القرآن، لأنّ هدفهم الإبقاء على الأمور كما هي صوناً لبعض المقامات المقدّسة بغير حق؛ لأنّ رعاية حرمتها عليها السلام تردّ الأمور إلى نصابها وتؤتي كل ذي حقّ حقّه، وأكثرهم للحقّ كارهون؛ فلا بدّ لهم من فتح باب التأويل ـ ولو على الطريقة اليهوديّة ـ في متابعة الهوى وإخفاء الحقائق، وقد أخبر النّبيّ ﷺ أنّ ذلك كائن إذ قال: لتتّبعنّ سنن من قبلكم حذو النّعل بالنّعل حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه[1].

(١) الحديث في (مسند أبي داوود: ٢٨٩ ومصنّف عبد الرزاق ١١: ٣٦٩، وبغية الباحث للحارث بن أبي أسامة: ٢٣٩ وكتاب السنة لعمرو بن أبي عاصم: ٣٦ ومسند أبي يعلى ١١: ١٨٣ وصحيح ابن حبّان ١٥: ٩٥ والمعجم الكبير للطبراني ٦: ١٨٦ و١٧: ١٣ وغرر الفوائد ليحي بن علي القرشي: ١٦٩ والجامع الصغير للسيوطي ٢: ٤٠١ وضعفاء العقيلي ٤: ٤١٨).

مخالفات فردية

ونقصد بذلك ما خالف فيه بعض الصّحابة رسول الله ﷺ في مواقف خاصّة بحيث يكون المخالف واحداً ولا يشاركه في المخالفة غيرُه، سواء كان ذلك في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته، وإن كانت الثّانية أدهى وأمرّ، لأنّ التّصحيح والإصلاح متوقّعان في حياة النبي ﷺ مع ما آتاه الله من الولاية والحكم، بينما يختلف الأمر بعد الرحيل. ولا يقوى على المواجهة إلا من امتحن الله قلبه للإيمان.

في صحيح مسلم:

«... عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود سمعا أبا هريرة يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وهو في مجلس عظيم من المسلمين أحدّثكم بخير دور الأنصار، قالوا، نعم يارسول الله، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): بنو عبد الأشهل، قالوا: ثمّ مَن يارسول الله قال: ثُمّ بنو النّجار، قالوا: ثُمّ مَنْ يارسول الله، قال: ثمّ بنو الحارث بن الخزرج، قالوا: ثمّ من يارسول الله، قال: ثمّ بنو ساعدة، قالوا: ثمّ من يارسول الله، قال: ثم في كلّ دور الأنصار خير، فقام سعد بن عبادة مُغضباً [!] فقال: أنحن آخر الأربع حين سمّى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) دارَهم، فأراد كلامَ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فقال له رجالٌ من قوْمه اجلسْ ألا ترضى أن سمّى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) داركم في الأربع الدّور التى سمى فمَن تركَ فلمْ يُسمّ أكثر ممّن سمّى، فانتهى سعد بن عبادة عن كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)»[1].

---

(١) صحيح مسلم، النيسابوري: ج٧ ص١٧٦.

لقدْ قامَ سعدُ بنُ عُبادة مغضباً من كلام رسول الله ﷺ، وهـذا معنـاه أنّ كلامه ﷺ لم يعجبه، وأين هذا من الإيمان الذي ذكره الله سبحانه وتعـالى مع علاماته: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُـمَّ لاَ يَجِـدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾. إنّ الحـرج فـي صـدْر سـعْد لكبير، وليتَ الصّحابة لم يهدّئوا من ثورته حتى يرى المؤمنون ما هو صانع. إنّ الرجل يعتبر النبي ﷺ واحداً من النّاس يؤخذ من قوله ويُـردّ، لـذلك فإنّه لم يلتفت إلى حديث الغدير مع أنّه بايع كما بايع الآخرون، بـل رشّـح نفسه لخلافة النّبيّ ﷺ وبقي مصراً على ذلك فلا هو انضمّ إلى أهل بيـت النبوّة ولا هو انضمّ إلى خصومهم، ومات بالشّام معارضاً على طريقته[1]!

على أنّ التّرتيب الذي ذكره النّبيّ ﷺ لا يعدو أن يكون بلحاظ معنـويّ فإنّه ﷺ أبعدُ النّاس من الاعتبارات الدّنيويّة التي طالما عبـدَها النّـاس، وإلاّ فما الفرق بين سعد بن عبادة وغيره فـي ظـاهر الأمـر؟ فإنّـه لـيس أولّهـم إسلاماً، وإن كان زعيمَ قومه فإنّها زعامة جاهليّة لا عبرة بها في الإسلام. ثـم إنّ النّبيّ ﷺ قال: وفي كلّ بيوت الأنصار خير، لكنّ سعداً يريـد أنّ يكـون خيرَ الأنصار في حياة رسول الله ﷺ والخليفةَ من بعده!

وجاء في أسد الغابة:

«أبو عبد الله محمد بن عمرو بـن الحسين الأشـعري بحمـص، حـدّثنا محمّد بن مصفى، حدّثنا حفص بن عمرالمعري، حدثنا موسـى بـن سـعد

(١) زعم ابن كثيرفي البداية والنهاية ٧: ٤٠، أنّ قيس بن سعد بن عبادة قتلته الجنّ بالشام وهذا لعمري إقحام للجنّ في سياسة قريش في تصفية المعارضة، وكلام ابن خلدون في تاريخه يوحي بالتّشكيك؛ ويبقى للقارئ رأيه في ذلك.

البصري، قال: سمعت الحسن يقول سمعت أنس بن مالك يقول أُهدي لرسول الله (صلى الله عليه وسلّم) طير فقال اللّهمّ ائتني برجل يحبّه الله ويحبّه رسوله قال أنس فأتى عليّ فقرع الباب فقلت إنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) مشغول وكنت أحبّ أن يكون رجلاً من الأنصار ثم إن عليّاً فعل مثل ذلك ثم أتى الثّالثة فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يا أنس أدخله فقد عنيتُه فلمّا اقبل قال اللّهم وال اللّهمّ وال وقد رواه عن أنس غير واحد»[(١)].

الداّعي من لا ينطق عن الهوى، والمدعوّ من أحصى كلّ شيء عدداً ولا يضلّ ولا ينسى، ومع ذلك أراد أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وآله ممارسة الحيلة بين ربّ العالمين وسيّد رسله سلام الله عليهم أجمعين؛ فَمَنْ كان يُخادع أنسُ بذلك التصرّف؟ إن كان يعتقد أنّ حيلته ستنطلي على الله تعالى فقد كفر، وإن كان يظنّ أنّها تنطلي على النبي صلى الله عليه وآله فقد استصغر شأنه وخان الأمانة، وليس ذلك من صفات من يخدمون الأنبياء، ولا شكّ أنّ أنساً سمع من النبي صلى الله عليه وآله مباشرةً باعتبار مُلازمته إيّاه بعُنوان الخادم، أو من بعض الصّحابة إن كان فاته الحضور، قوله صلى الله عليه وآله لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعاً لما جئت به. لكنّ هوى أنس في الأنصار لا في طاعة رسول الله. ومع أنه علم أن النبي صلى الله عليه وآله عنى عليّاً عليه السلام فإن موقفه لم يتغير، وبقي يجحد الفضل حتى ضربه الله بها بيضاء لا تواريها العمامة[(٢)].

---

(١) أسد الغابة، ابن الاثير: ج٤ ص٣٠.

(٢) إشارة إلى جحوده الشهادة يوم الرحبة ودعاء علي عليه السلام عليه فضربه البرص وكان لا يرى بعدها إلا مبرقعاً. وقد تعرضت القصة في كتاب المعارف وغيره للتحريف، فليطالع كلام الأميني حول ذلك

في صحيح مسلم: «حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظليّ، أخبرنا جرير عن منصور عن إبراهيم عن عبيد بن نضيلة الخزاعيّ عن المغيرة بن شعبة قال: ضربت امرأة ضرتها بعمود فسطاط وهى حُبْلَى فقتلتها، قال: وإحداهما لحيانيّة قال فجعل رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) دية المقتولة على عصبة القاتلة وغرّة فقال رجل من عصبة القاتلة أنغرم دية من لا أكل ولا شرب ولا استهلّ فمثل ذلك يُطلّ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أسجع كسجع الأعراب قال وجعل عليهم الدية»[1].

وفي موطإ مالك: «وحدّثني عن مالك أنّه بلغه أنّ المؤذّن جاء إلى عمر بن الخطّاب يؤذنه لصلاة الصّبح، فوجده نائماً فقال الصّلاة خير من النّوم فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصّبح»[2].

هكذا بكل بساطة وسهولة: اجعلها في الأذان، بلا دليل من كتاب الله أو سنة رسوله، وهي في آذان المسلمين إلى اليوم.

وقد تخبّط القوم في هذه المسألة أيضا بين موافق ومعترض، واختلقوا لذلك أحاديث تصوّب عمل الخليفة؛ ففي شرح معاني: «باب قول المؤذن في أذان الصّبح الصّلاة خير من النّوم، قال أبو جعفر: كره قوم أن يقال في أذان الصّبح الصّلاة خير من النّوم، واحتجّوا في ذلك بحديث عبد الله بن زيد في الأذان الذي أمره رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) تعليمه إيّاه بلالاً فأمر بلالاً بالتّأذين، وخالفهم في ذلك آخرون فاستحبّوا أن يقال ذلك في

في كتابه الغدير.

(١) صحيح مسلم: ج٥ ص١١١.

(٢) موطأ مالك: ج١ ص٧٢.

التّأذين للصّبح بعد الفلاح، وكان من الحُجّة لهم في ذلك أنّه وإن لم يكن ذلك في حديث عبد الله بن زيد، فقد علّمه رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أبا محذورة بعد ذلك وأمره أن يجعله في الأذان للصّبح، حدّثنا عليّ بن معبد، قال: حدثنا روح بن عبادة قال: حدثنا بن جريج قال: أخبرني عثمان بن السائب عن أمّ عبد الملك بن أبي محذورة عن أبي محذورة أنّ النبي (صلى الله عليه وسلّم) علّمه في الأذان الأول من الصّبح الصّلاة خير من النّوم الصّلاة خير من النّوم»[1].

وفيه: «... قال سمعت أبا محذورة قال: كنت غلاماً صبيّاً فقال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قل الصّلاة خير من النّوم الصّلاة خير من النّوم، قال أبو جعفر: فلمّا علّم رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ذلك أبا محذورة كان ذلك زيادة على ما في حديث عبد الله بن زيد ووجب استعمالها وقد استعمل ذلك أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) من بعده»[2].

وقال: «حدثنا علي بن شيبة قال: حدثنا أبو نعيم قال: حدّثنا سفيان عن محمد بن عجلان عن نافع عن بن عمر (رضي الله عنهما) قال: ثم كان في الأذان الأول بعد الفلاح الصّلاة خيرمن النّوم»[3].

وقال: «عن محمّد بن سيرين عن أنس (رضي الله عنه) قال: ثُمّ كان التّثويب في صلاة الغداة إذا قال المؤذن حيّ على الفلاح، قال الصّلاة خير من النّوم مرّتين، فهذا ابن عمر (رضي الله عنهما) وأنس (رضي الله عنه) يخبر أنّ

---

(١) شرح معاني الآثار، أحمد بن محمد بن سلمة: ج١ ص١٣٦.

(٢) شرح معاني الآثار، أحمد بن محمد بن سلمة: ج١ ص١٣٧.

(٣)شرح معاني الآثار، أحمد بن محمد بن سلمة: ج١ ص١٣٧.

ذلك مما كان المؤذّن يؤذن به في أذان الصّبح، فثبت بذلك ما ذكرنا وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد رحمهم الله تعالى»[١].

أقول: إذا كان ذلك ثابتاً في الأذان على عهد رسول الله ﷺ، فما معنى قول عمر اجعلها؟!

تنصيب الطلقاء والمشبوهين على رؤوس المهاجرين والأنصار

مّما أقدم عليه عمر باعتباره مستشار أبي بكر أنّه عين أعداء الإسلام في مناصب حسّاسة، استمالة لهم وضماناً لوقوفهم إلى جانب الحكومة الجديدة، وعلى رأس هؤلاء يزيد بن أبي سفيان، الطّليق بن الطّليق، ومعلوم أنّ الطّلقاء إنّما أسلموا حقناً لدمائهم، ولو وجدوا أعواناً لإعادة الكرّة لما تردّدوا طرفة عين، ولكن جاء نصر الله وهم كارهون، فلا يملكون إلاّ الضّرب من الدّاخل، وقد تبيّنت آثار ذلك الضّرب فيما بعد.

لقد كان تعيين عُمر أمراءَ الأجناد والولاة مبنيّاً على استراتيجيّة إشراك قريش في الحكم، ووصولها إلى الخلافة بالتّناوب، ولهذا لم يرشّح أحدَ أولاده أو أولاد أبي بكر للخلافة. ولأمر ما كان يقول: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً لاستخلفته، مع أنّ سالماً لم يكنْ رأساً في العلم ولا في الجهاد، وسيبقى هذا الأمر لغزاً محيّراً طالما بقيت للصّحابة حصانة! فعُمر سمع رسول الله يقول: من أمّ قوماً وهو يعلم أن فيهم من هو خير منه فقد خان الله ورسوله! أضف إلى ذلك أنّ سالماً من الموالي، وعمر إنّما خصم الأنصار حينما احتجّ عليهم بأنّ الخلافة في قريش.

---

(١) شرح معاني الآثار، أحمد بن محمد بن سلمة: ج١ ص١٣٧.

وولّى عبد الله بن أبي سرح المرتدّ الذي أهدر النبي ﷺ دمه على مصر، فكان منه ما كان.

وولّى معاوية بن أبي سفيان على الشّام بعد هلاك أخيه يزيد، ففعل في الإسلام ما فعل!!

وولّى التّيميّ قنفذاً الذي لم يكن يملك أدنى مؤهّل. لكن إذا عُلم أنّ قنفذا من الذين هجموا على بيت فاطمة ﷺ وفي روايات أنّه هو الذي ضربها بالسّوط، إذا عُلم ذلك يزول العجب.

قال ـ ابن الاثير في ترجمة المحرز بن حارثة:

«(المحرز) بن حارثة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف استخلفه عتّاب بن أسيد على مكّة في سفرة سافرها ثم ولاّه عمر بن الخطّاب مكّة في أوّل ولايته ثمّ عزله وولّى قنفذ بن عمير التّيميّ وقتل المحرز بن حارثة يوم الجمل ويعد في المكّيين»[١].

وقال ابن حجر:

«واخرج هذه القصة الطبراني من وجه آخر وقال: إنّه كان في صورة قنفذ مات في خلافة عمر فصلّى عليه ونزل في قبره وعاش خمساً وستين سنة، قاله بن أبي حاتم وابن حبّان وغيرهما»[٢].

وقال أيضا في الإصابة:

«قنفذ بن عمير بن جدعان التيمي والد المهاجر، له صحبة قاله أبو عمر

---

(١) أسد الغابة، ابن الاثير: ج٤ ص٣٠٦.

(٢) الإصابة، ابن حجر: ج٥ ص٣١٩.

قال: وولاه عمر مكة ثم صرفه واستعمل نافع بن عبد الحارث»[(١)].

وولّى عمر المغيرةَ بن شعبة على رؤوس المهاجرين والأنـصار بعـد مـا شُهِدَ عليه بالزّنا.

ولأنّ المغيرة لعب دوراً كبيراً في الفتن التي وقعت بين المسلمين في مـا بعد فإنّ تتبّع أحواله يستدعي فصلا مستقلاً يأتي لاحقاً.

---

(١) الإصابة ـ ابن حجر: ج٥ ص٣٤٦، ح ٧١٥١.



الفصل الخامس

عمر بن الخطاب



عمر بن الخطاب

ثبت أنّ أشدّ النّاس معارضة للنبيﷺ في حياته وبعد وفاته كان عمر ابن الخطاب. وعليه، فإنّه يجدر أن يُسلّط الضّوء على شخصيّته، لمعرفة دوافع الاعتراض والمخالفة، خصوصاً أنه في ما بعد ـ أي بعد وفاة النبيﷺ ـ سمح لنفسه بتغيير كثير من الأمور الشّرعيّة التي أقرّها رسول اللهﷺ ولم يقدّم على ذلك دليلاً تركن إليه النّفوس، اللّهمّ إلاّ كونه في موقع السّلطة، ولو جاز لكلّ من وصل إلى سدّة الحكم أن يتصرّف في التّشريع كما شاء، لانحرفَ الإسلام عما جاء به النّبيّﷺ انحرافاً تامّاً. وليس لدينا ما يمكننا من التعرّف على شخصيّته إلاّ ما ذُكر في كتب الحديث والتّاريخ، ممّا يُروى عن معاصريه من المهاجرين والأنصار.

أقوال في عمر:

قال ابن أبي الحديد:

«وكان في أخلاق عمر وألفاظه جفاء وعنجهيّة ظاهرة»(١).

ونقل عن الدميري ما يلي: «ثم قال [عمر]: إن الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبوبكر والينا دونه، فكيف الآن وقد صارت الأمور إليه؟ ولعمري من قال ذلك فقد صدق»(٢).

وفي صحيح البخاري:

قال عمر: «ثمّ خرجت حتى دخلت على أمّ سلمة لقرابتي منها، فكلّمتها،

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١ ص١٨٣.

(٢) حياة الحيوان الكبرى ـ الدميري: ج١ ص٥٠، خلافة عمر.

فقالت أمّ سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب دخلت في كلّ شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه فأخذتني والله أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد»[١].!!

وفي شرح نهج البلاغة:

«روي عن عامر الشعبي أنّه قال: ما قُتل عمر حتى ملّته قريش واستطالت خلافته»[٢].

وفيه أيضاً:

«وقال طلحة بن عبيد الله لأبي بكر في مرضه الذي مات فيه: يا خليفة رسول الله إنّا كنّا لا نحتمل شراسته وأنت حيّ تأخذ على يديه، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميّت» [٣].

وقال ابن أبي الحديد:

«كان عمر سريعاً إلى المساءة كثير الجبه والشّتم والسّب»[٤].

وعلى العموم فإن الغلظة واضحة مشهودٌ بها لا يكاد يختلف في ذلك اثنان. وهي ليست من الأخلاق المقبولة في الإسلام، وقد قال الله تعالى لنبيّه ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. فالغلظة تقابل الرّحمة، والنّفوس بفطرتها ميّالة إلى صاحب الرّحمة نافرة من الغليظ؛ وإنّما تُحمد الغلظة إذا كانت على الكفّار ﴿يَا أَيُّهَا

---

(١) صحيح البخاري: ج٦ ص٦٩؛ صحيح مسلم: ص١٩٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١ ص٥٨.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج٦ ص٣٤٣.

(٤) شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ج٢٠ ص٢١.

النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ...﴾(١).

غلظة عمر قبل الإسلام:

قال محمد بن سعد:

«... فقالا ما عدا حديثا تحدثناه بيننا قال: فلعلّكما قد صبوتما، قال: فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحقّ في غير دينك، قال: فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأً شديداً فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها بيده نفحة فدمي وجهها فقالت وهي غضبى، يا عُمر إن كان الحقّ في غير دينك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله، فلمّا يئس عمر قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه، قال: وكان عمر يقرأ الكتب فقالت أخته إنّك رجس ولا يمسّه إلا المطهّرون فقُم فاغتسلْ!!»(٢).

شهادة صحابة في حق عمر:

روى ابن الأثير في الكامل والطبري في تاريخه ما يلي: «خطب [عمر] أمّ أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهتْه وقالت يُغلق بابه ويمنع خيره، يدخل عابساً ويخرج عابساً»(٣).

أقول "يغلق بابه ويمنع خيره" كناية عن قلة الضيوف وقبض اليد بخلاً. و"يدخل عابساً ويخرج عابساً" يُستفاد منها الخشونة وسرعة الغضب.

وفي أسد الغابة «أن عمر بن الخطاب خطب إلى قوم من قريش

---

(١) التوبة: ٧٣.

(٢) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٣ ص٢٦٨.

(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٣ ص٥٥؛ والطبري في تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٧٠.

بالمدينة فردّوه وخطب إليهم المغيرة بن شعبة فزوّجوه»[١].

وفي تاريخ الطبري:

«حدّثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنا يونس بن يزيد عن ابن شهاب، قال: حدّثني سعيد بن المسيّب، قال: لمّا توفّي أبوبكر (رحمه الله) أقامت عليه عائشة النّوح، فأقبل عمر بن الخطّاب حتى قام ببابها، فنهاهنّ عن البكاء على أبي بكر، فأبين أن ينتهين، فقال عمر لهشام بن الوليد، ادخل فأخرج إليّ ابنة أبي قحافة أخت أبي بكر، فقالت عائشة لهشام حين سمعت ذلك من عمر: إنّي أحرّج عليك بيتي، فقال عمر لهشام: ادخل فقد أذنت لك، فدخل هشام فأخرج أمّ فروة أخت أبي بكر إلى عمر، فعلاها بالدّرّة فضربها ضربات فتفرّق النّوح حين سمعوا ذلك»[٢].

يبدو أنّ الخليفة مولع بالهجوم على أهل الحداد، الذين فقدوا أعزّاءهم وتيقّنوا أنّهم لن يروهم قبل يوم القيامة إلاّ في عالم الرّؤيا، فكما هجم على بيت فاطمةعليها السلام هجم على بيت عائشة زوج النبيصلى الله عليه وآله التي هي في نفس الوقت بمنزلة أمّه باعتبارها أمّ المؤمنين، وزوجة رسول اللهصلى الله عليه وآله وابنة صديقه وحليفه الأول، فلم يرع لا هذه ولا تلك ولا الأخرى، وهجم على بيت عائشة الذي هو أحد بيوت النبيصلى الله عليه وآله بلا إشكال، فإذا كان القرآن الكريم قد نهى عن دخول بيوت النبيصلى الله عليه وآله من دون إذن منه فكيف بالهجوم عليه؟ ثمّ هو يقول للرّجل: ادخل فقد أذنت لك، فمتى أعطاه النبيصلى الله عليه وآله وكالة كي يأذن بذلك. على أقلّ تقدير تبقى المسألة محلّ تأمّل.

---

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج٤ ص٦٥.

(٢) تاريخ الطبري: ج٢ ص٦١٤.

قال الطبري:

«وقال علي بن محمد عن الذين سمّيت قال بعضهم: جعل أبوبكر عمر قاضياً في خلافته، فمكث سنة لم يخاصم إليه أحد، قال وقالوا كان يكتب له زيد بن ثابت»(١).

إمّا وإمّا: إما أنّ النّاس عاشوا ملائكة على الأرض يمشون سنة كاملة، ثم عادت إليهم الشّيطنة أو عادوا إليها. وإما أنّ النّاس يئسوا من حقوقهم بعد أن رأوا حكم الرّجلين بخصوص فاطمة وعليّ عليهما السلام.

فإنّ الذي يكذّب مطهّرين بنصّ الكتاب ويردّ شهادتهما، قد ردّ شهادة الحقّ لهما بالطّهارة.

نماذج من اعتراضات عمر:

وليست الغاية من ذكر مخالفات عمر للنبي صلى الله عليه وآله بقصد انتقاص الرّجل والحطّ من منزلته، وإنّما الغاية التّنبيه إلى حكم شرعيّ ثابت في أعناق كلّ المسلمين، أينما كانوا وكيفما كانوا. وهذا الحكم هو أهمّ شيء في الإسلام؛ إذ عليه تترتب كل الآثار ويتوقف قبول الأعمال ورفضها، وهذا الحكم الشرعيّ هو طاعة النّبيّ صلى الله عليه وآله في المنشط والمكره.

وإذا كان موسى عليه السلام يسأل هارون النبي عليه السلام (أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) مع أنّ هارون نبيّ ممدوح في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام، فمن ليس بنبيّ أولى أن تكون طاعته للنبي صلى الله عليه وآله من دون قيد أو شرط؛ ومخالفة النبي صلى الله عليه وآله والردّ عليه إن دلاّ على شيء فإنّما يدلأن على الشكّ في أمره،

---

(١) تاريخ الطبري: ج٢ ص٦١٧.

وأمور الاعتقاد يقينيّة لا تقبل الشّك، ولذلك نفى القرآن الكريم الإيمان عن الذين يجدون في أنفسهم حرجاً ممّا قضى رسول اللهﷺ كما هو واضح في سورة النساء ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[1].

ومنها الحديث الوارد في صحيح البخاري[2] ومضمونه «أنّه لمّا أراد النّبيّﷺ الصّلاة على جنازة عبد الله بن أبيّ قال له عمر: أتصلّي عليه وقد قال كذا وكذا؟ أليس قد نهاك الله أن تصلّي على المنافقين؟ ويدلّ مضمون الحديث على أنّ النّهي عن الصّلاة على المنافقين الذي ورد في ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ﴾ نزل بعد هذه القصّة التي دارت بين النّبيّﷺ وعمر، وقد أثبتوا في الحديث أنّ الآية ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ نزلت بعد هذه الواقعة... فإذا كان ذلك كذلك، فمن أين اطّلع عمر على النّهي؟ كيف علم عمر أنّ الله تعالى نهى نبيهﷺ والآية المشتملة على النّهي لم تنزل بعد؟! ومن أين أتى عمر بهذا النّهي؟ ومثل هذا النّهي حكم شرعيّ، وإنّما تتنزل الأحكام على صاحب الشّريعة، فكيف علم عمر بذلك قبل رسول اللهﷺ؟!

والذين ذهبوا إلى الاستدلال بقوله تعالى ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ...﴾ يعلمون أنّه لا يليق بمن هو رحمة للعالمين إلاّ أن يكون بالمستوى اللاّئق لذلك، وهو إنّما يتألّف الآخرين بسلوكه تلك الطّريقة مع عبد الله بن أبيّ بن السّلول.

---

(١) النساء: ٦٥.

(٢) صحيح البخاري: ج٧ ص٣٦.

ولم يترك عمر مخالفته للنبي بعد وفاته ﷺ فهذا القوشجي الحنفيّ يذكر في شرح التجريد في مبحث الإمامة ما نصّه:

«أنّ عمر قال وهو على المنبر: أيّها الناس ثلاث كُنّ على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وأنا أنهى عنهنّ وأحرّمهن وأعاقب عليهنّ: متعة النّساء. ومتعة الحجّ. وحيّ على خير العمل. ثمّ راح القوشجي يبرّر فعل عمر ويلتمس له العذر إذ يعتبره مجتهداً فقال: إن ذلك ليس مما يوجب قدحاً فيه، فإنّ مخالفة المجتهد لغيره في المسائل الاجتهادية ليس ببدع»[١].

يقول القوشجي (مخالفة المجتهد لغيره)! وإذن فرسول الله وعمر مثلان!!! وروى البخاريّ في صحيحه مايلي:

«عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال لمّا اشتدّ بالنّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) وجعه قال ائتوني بكتاب اكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده قال عمر إنّ النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا وكثر اللّغط قال قوموا عنّى ولا ينبغى عندي التّنازع فخرج ابن عباس يقول إنّ الرّزيئة كلّ الرّزيئة ما حال بين رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وبين كتابه»[٢].

وفي رواية بكى ابن عباس حتّى خضب دمعه الحصباء فقال: اشتدّ برسول الله وجعه فقال: أتوني بكتاب اكتب لكم كتابا لن تضلّوا بعده أبدا. فتنازعوا ولا ينبغي عند نبيّ تنازع فقالوا هجر رسول الله[٣].

---

(١) شرح التجريد، القوشجي: ص٤٨٤.

(٢) صحيح البخاري، البخاري: ج١ ص٣٧.

(٣) صحيح البخاري: ج٤ ص٣١؛ ورواه مسلم أيضا في كتاب الوصية ـ باب ترك الوصية.

في ضوء الحديث:

إن هذا الحديث جدير أن يناقش من عدّة جوانب، خصوصاً كونه يشير إلى أمور طالما عتّم عليها، وكون الحديث في صحيح البخاريّ يقطع الطّريق على من ألفوا نفي الحقائق بإشارة يد.

وأوّل ما يثير الشّكّ في المسألة أنّهم لم يذكروا من كان في البيت على وجه التّحديد، وإنّما قالوا رجال فيهم عمر، فهل كان هؤلاء الرّجال أجانب بحيث لا يتسنّى معرفتهم بأسمائهم أم أنّهم من عليّة القوم وعُتّم على أسمائهم عمداً لتمرير المؤامرة؟ لقد نهى القران الكريم عن دخول بيوت النّبيّ من دون إذنه، فإن يكن قد أذن لهم فما وجه إخفاء أسمائهم، وإن تكن الأخرى فما وجه وجودهم في بيته؟ على أن رسول الله في بيته، والإنسان ـ بما يقتضيه الوجدان في كلّ الشّرائع والملل وحتّى المجتمعات التي لا يحكمها دين ـ مسلّط في بيته، وله مطلق التّصرف وليس لأحد أن يعترض عليه. وقد عظّم الإسلام حرمة كون الرّجل في بيته حتى إنّهم ليروون أنّه لا يُؤمّ الرّجل في بيته من دون إذن منه. فكان الواجب ألاّ يعترض على رسول الله؛ لأنه في بيته، فيؤتى له بما طلب، ثمّ ينظر بعد ذلك فيه، وهذا على رأي من يجيز الخطأ على النبيﷺ وإذاً فتواجد الجماعة في بيت النبيﷺ إن كان بإذن منه فإنّه يجب احترامه واحترام كلّ ما يصدر منه، وإن كان من دون إذن منه فإنّه هتك لحرمة النبيﷺ، وفي كلتا الحالتين يبقى الجماعة مخطئين.

حتّى مع فرض غفلة كثير من الحاضرين في بيت النّبيّ عن ذلك، فإنّه لا يعقل غفلة عمر؛ لأنّ قرآناً نزل في حقّه بسبب ذلك، كما روى غير واحد

من المفسّرين بخصوص سورة الحُجُرات، وذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقد نهاه القرآن الكريم وصاحبَه أن يعودا إلى ذلك السّلوك بين يدي الله ورسوله، لكنّهما عادا!!

ولقد استفظع كثير من علماء الجمهور العبارة التي وردت على لسان عُمَر فراحوا يتمحّلون لها التّأويلات حفاظاً على مكانة الشيخين، وعلى حساب الإسلام ولذلك قال ابن أبي الحديد ما قال بخصوص صاحب الكلمة فكان قوله مما ينطبق عليه المثل القائل "رب عذر أقبح من ذنب".

على أنّ المسألة لم تمرّ بتلك البساطة، فإنّ نساء النّبيّ قلن من وراء الحجاب: «ائتوا رسول الله بحاجته، فقال عمر: فقلت اسكتن فإنّكنّ صواحبه إذا مرض عصرتنّ أعينكنّ وإذا صحّ أخذتن بعنقه، فقال رسول الله هُن خير منكم»[1] ثم قال: قوموا عنّي لا ينبغي عندي التّنازع. فالنبيﷺ لم يقرّ عمر على رأيه ولم يوافقه على ما ذهب إليه في موقفه منهنّ، بل جبهه بأنّهنّ خير منه وممّن كان معه، وهذا إضافة إلى تخطئته فإنّه ينسف مسألة تفضيله على غيره من الصّحابة من الأساس؛ لأنّ رسول اللهﷺ قال بصريح العبارة هنّ خير منكم. يعني المتنازعين، وليس منهم عليّعليه السلام، فإنّه لم يذكر عنه أنّه نازع بمحضر رسول اللهﷺ وإن كانعليه السلام في غنى عن التّخصيص بموجب حديث المنزلة وآية التطهير، ولا يقاس بآل محمدﷺ من هذه الأمّة أحد.

ثمّ بأيّ حقّ يرفع صوته بتلك الطّريقة للرّدّ على زوجات النبيﷺ في بيته! وهذا لا يتلاءم لا مع الآداب الإسلاميّة ولا مع التّقاليد العربيّة، مَن هذا

(١) الطبقات الكبرى: ج٢ ص٢٤٤؛ وكنز العمال: ج٧ ص٢٤٣.

الذي يرضى أن ينتهرَ شخصٌ زوجتَه أو أزواجه بمحضره؟ ولعلّ قائلاً يقول إنّه انتهر من بينهنّ ابنته حفصة، وهذا أيضا غير قابل للتّوجيه، يرفضه العقل والوجدان، إضافة إلى أسلوب الكلام عند العرب، فإنّه قال: اسكتن ولم يقل اسكتي يا حفصة. وحتى مع فرض كون كلامه موجّهاً إلى ابنته حفصة، فإنّه في غير محلّه. وهكذا فقد ارتكب الصّحابة كلّ ما نهاهم عنه المولى سبحانه وتعالى في مجلس واحد؛ فقد خالفوا أمر النبيﷺ في إنفاذ جيش أسامة، ودخلوا بيته بدون إذنه يتعلّلون بأمور واهية ورفعوا أصواتهم بحضرته، وردّوا عليه بما لا يليق، واتّهموه بأمر خطير إذ قالوا هجر، ورفعوا الصّوت في ردّهم على نسائه بحضرته، وتنازعوا وأكثروا اللّغط حتّى تأذّى من ذلك فقال قوموا عني!! لقد ودّعوه مصرّين على مخالفته...

جاء في تاريخ مدينة دمشق ما يلي:

«... الحسن بن عنبسة، أخبرنا هاشم بن البريد، عن زكريا بن أبي زائدة، عن ابن إسحاق، عن البراء بن عازب، قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): ألا إنّ أوليائي منكم المتّقون، ثمّ قال: وددت أنّي لقيت إخواني، قال فقال أبوبكر: يا رسول الله ألسنا إخوانك، قال يا أبا بكر: أنتم أصحابي، وإخواني قوم يجيئون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني، قال ثمّ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): يا أبا بكر ألا تحبّ قوماً بلغهم أنّك تحبّني فأحبّوك بحبّك إيّاي فأحبّهم أحبّهم الله»[1].

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٠ ص١٣٩.

والمتمعّن في هذا الكلام يستشفّ منه أنّ الذين يؤمنون بهﷺ ولم يروه أعظم إيماناً؛ لأنّهم مؤمنون بالغيب فعلاً، لم يحتاجوا إلى معجزات وبيان ولم يردّوا عليه ولا سمحوا لأنفسهم بفتح أبواب التّأويل استجابة لدواعي النّفس الأمّارة. آمنوا بأنّه نبيّ مرسل من الله تعالى، وأنّه يُوحَى إليه بما لا يأتيه الباطل، لا من بين يديه ولا من خلفه، فهم لا يراجعونه في شيء ولا يجدون في أنفسهم حرجاً ممّا قضى، بل هواهم تبع لما جاء به متى ثبت أنّه جاء به. وقد ثبت أنّهﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1]. فهم من هذا الجانب مطمئنّون. أمّا الذين يحنّون إلى الجاهليّة ويراجعونه في كلّ ما يعارضها ويلغي رسومها وآثارها، حتى إذا ما غاب شخصه الكريم، أحيوا سيرتها ونشروا دارسها، واستعانوا بالدّجّالين والكذّابين لإرساء أسس زعامة قرشيّة عصبيّة، وآذوه في أهل بيته ومقرّبيه، هؤلاء لا يمكن عدّهم من المستنّين بهداه والمقتدين به والعاملين بسنّته.

ماذا خسرت الإنسانية بمنع رسول اللهﷺ من كتابة الكتاب:

إنّ نظرة كثير من المسلمين إلى الإسلام لا تزال ضيّقة سقيمة؛ لأنّهم غافلون عن أهمّ مميّزات الرّسالة المحمّديّة الخالدة، وذلك أنّ فيهم من ينظر إلى الإسلام وكأنّه مسألة عربيّة، كما اعتقدت قريش أيضاً أنّها القيّمة عليه. والحقيقة أنّ القرآن الكريم ركّز على مسألة عالميّة الرّسالة بعبارات لا تقبل الجدل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[2]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ

---

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج١٦ ص١٦٧.

(٢) سبأ: ٢٨.

الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]، بل إنّ القرآن الكريم يصرّح بمشمولية الجنّ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾[3]، ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ...﴾[4] وإذا كانت دعوة الإسلام موجهة إلى البشريّة بأسرها فإنّه يعلم بالضّرورة أن يكون لكلّ إنسان منها حظ إلاّ من تولّى وكفر. وعمر لم يكن يحمل تخويلاً من البشريّة للتّحدث باسمها، لا باسم من كان في المدينة يومها ولا باسم من يأتي بعده، بل إن حصّته من الرسالة دون نسبة حبة رمل إلى الرّبع الخالي. فالبشريّة منذ ذلك اليوم إلى الآن آلاف الملايين تتبعها آلاف الملايين، أكثرهم لم يسمعوا بما جرى في بيت النّبيّ ﷺ ولا بما جرى في السّقيفة ولم يكن عمر يحمل وكالة تخول له أن يتكلّم باسم شخص واحد فكيف بأمّة؟ ولا يستطيع من عنده ذرّة من الإنصاف أن يثبت شرعية تصرّف عمر في بيت النبي ﷺ ولو استعان بمن في الأرض جميعاً.

قال عمر معترضاً على النبي: حسبنا كتاب الله!!! فما ذا كان يقصد بـ «نا»؟ أتراه يقصد بذلك المهاجرين؟ أم الأنصار؟ أم أهل الحجاز؟

وهل كان الكلام موجّهاً إليه وحده؟

إن رسول الله ﷺ قال إيتوني، ولم يقل إيتني يا عمر. ولأنّ حضور عمر في بيته ﷺ في غير محلّه، باعتباره متخلّفاً عن جيش أسامة، فإنّ الكلام لا

---

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) الأحقاف: ٢٩

(٤) الجن: ١ ـ ٢.

ينصرف إليه عند المنصفين، فتدخّله في المسألة وإلقاؤه تلك العبارة التي فرّقت المسلمين فضولٌ لا داعيَ له. ثم ما معنى قوله حسبنا كتاب الله؟ هل يعني ذلك أن النبيﷺ كان يريد كتابة شيء يخالف كتاب الله تعالى؟!! أم تراه أعلم بكتاب الله ممن أنزل عليه؟

أم تراه يقصد أن القرآن وحده من دون سنة كفيل ببيان كل شيء؟ أم تراه يعني إلغاء دور السنة في التشريع؟!كيفَ والقرآن فيه مُجمَل ومبيّن ومُطلق ومُقيّد ومُحكم ومُتشابه وعامّ وخاصّ وناسخ ومنسوخ، وليس كلّ أفراد الأمّة يقدرعلى فهم ذلك واستيعابه؟! بل إنّه هو نفسه [عمر] توقّف في كثير منه وهو العربيّ القرشيّ الفصيح!

إنّ الذي يثير العجب أكثر من ذلك في القضيّة هو موقف بعض من كان في بيت رسول اللهﷺ، منهم من يقول ما قال رسول اللهﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر!! أيسوغ لنا بعد هذا أن نقول إنّهم كانوا على وعْي تامّ وفهم حقيقيّ للإسلام؟ أيكون من يساوي بين رسول اللهﷺ وبين رجل من عوامّ المسلمين يمتلك تصوّراً صحيحاً للإسلام وفهماً صحيحاً لمقاصده؟ وأصرّ على التعبير بـ "رجل من عوامّ المسلمين" لأن عمر لم يكن يومها إلاّ رجلا من عوامّ المسلمين، وإنّما صنع الكرسيّ رمزيّته فيما بعد.

أمّا كلام رسول اللهﷺ فيستند إلى الوحي وشواهده كثيرة:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...﴾

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى...﴾

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا...﴾

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ...﴾

هذا بعض ما يستند إليه كلام رسول اللهﷺ فإلام يستند عمر في اعتراضه؟

ثم أليس في قوله حسبنا كتاب الله إلغاء صريح لدور السنّة النبويّة؟ فماذا يقول أنصار السنّة النبويّة في هذا الخصوص؟ هل يقبلون ذلك؟

والذي تحار له أفهام الألبّاء هو تصرّف عمر بن الخطاب مع كتاب أبي بكر، فإنّه كان على خلاف سلوكه مع رسول اللهﷺ بما لا يقبل التوجيه أو التأويل.

قال الطبري: «حدثني عثمان بن يحيى عن عثمان القرقساني، قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن قيس، قال: رأيت عمر بن الخطاب وهو يجلس والنّاس معه وبيده جريدة، وهو يقول: أيّها النّاس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) إنّه يقول إنّي لم آلكُم نُصحاً قال ومعه مولىً لأبي بكر يقال له شديد معه الصّحيفة التى فيها استخلاف عمر»[1].

حينما يتضمّن الكتاب استخلاف عمر يصبح ذا أهمّية ويؤكّد عمر على قول الخليفة «إنه يقول: إنّي لم آلكم نصحا»!!! فهل كان رسول اللهﷺ يألوهم نصحاً وهو الذي يقول عنه الله سبحانه وتعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

أمّا من الناحية العمليّة فقد أصبح أبوبكر في نظر من حضر أرحمَ من رسول اللهﷺ وأحرصَ على مصلحة الأمّة منه. ولذلك لا يُتّهم في

---

(١) تاريخ الطبري: ج٢ ص٦١٨.

اختياره، ويصبح من شكّ في ذلك فقد افترى على الله إثماً مبيناً. ولكن هناك صحابة تذمّروا من هذا الاختيار، ومنهم طلحة الذي قال له بصريح العبارة ولّيت علينا فظّاً غليظا. وأبوبكر من الملازمين لرسول الله ﷺ، فلا يخفى عليه مُراد النبي ﷺ.

حين أعلن «أنّ من ولّى رجلاً شيئاً من أمور المسلمين وهو يعلم أنّ فيهم من هو خير منه فقد خانهم»[(١)] وأيضا قوله ﷺ: «إذا أمّ الرجل القوم وفيهم من هو خير منه لم يزالوا في سفال»[(٢)]. وقد فعلهما جميعاً، ويقول مع ذلك كما ذكر الطبراني والزمخشري وابن أبي الحديد والمتقي الهندي كلهم ذكروا أن أبا بكر قال:

«إنّي وليت أمركم خيركم في نفسي فكلّكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمرُ له دونه ورأيتم الدّنيا قد أقبلت ولمّا تقبل وهي مقبلة حتى تتّخذوا ستور الحرير ونضائد الدّيباج...»[(٣)].

قال ابن قتيبة الدينوري:

«... قال: فخرجوا من عنده، ثم أرسل إلي عمر فقال: يا عمر، أحبك محبّ وأبغضك مبغض، وقديما يُحبّ الشّر، ويُبغض الخير. فقال عمر: لا حاجة لي بها!! فقال أبوبكر: لكن بها إليك حاجة، والله ما حبوتك بها،

---

(١) راجع المعجم الكبير، الطبراني: ج١١ ص٩٤٠؛ وراجع السنن الكبرى، البيهقي: ج١٠ ص١١٨.

(٢) كشاف القناع، البهوتي: ج١ ص٥٥٠؛ المغني، عبد الله بن قدامة: ج٢ ص٢٠، [وقال] ذكره الإمام أحمد في رسالته.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني: ج١ ص٦٢؛ الفائق في غريب الحديث، الزمخشري : ج١ ص ٨٩؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٣ ص٤٦ وج٢٠ ص٢٤؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٢ ص٥٣٣.

ولكن حبوتك بك. ثمّ قال: خذ هذا الكتاب وأخرج به إلى النّاس[!!]، واخبرهم أنّه عهدي، وسلهم عن سمعهم وطاعتهم. فخرج عمر بالكتاب وأعلمهم، فقالوا: سمعاً وطاعة، فقال له رجل: ما في الكتاب يا أبا حفص؟ قال: لا أدري، ولكنّي أوّل من سمع وأطاع. قال: لكنّي والله أدري ما فيه: أمّرته عام أوّل، وأمّرك العام!»[١].

لماذا لم يقل عمر لأبي بكر بخصوص الكتاب: إنكَ تهجر يا أبابكر، إنّه غلب عليك الوجع؟! وقد ثبت أنّه غلب عليه الوجع فعلاً وأغمي عليه فكتب عثمان من تلقاء نفسه وصيّة لعمر، ثم لمّا أفاق أبوبكر أمضى ذلك[٢]، فأين عثمان من الأمانة؟ ألم يعلم عثمان بأنّ الله يرى؟ وكتب على لسان الرّجل ما لم يقله. ولنفرض أنّ أبا بكر مات في إغماءته تلك، ألا يكون عثمان قد اقترف خيانة في حقّ الأمّة بأسرها؟ لكن المهمّ هو أن لا تصل الخلافة إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والباقي سهل.

هل صحيح أنّ عمر لم يكن يدري ما في الكتاب؟ وأعجب من ذلك قوله: لكنّي أوّل من سمع وأطاع! أفلا قال نفس الشّيء بخصوص كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله؟

ويقول عمر لا حاجة لي بها، وهو الذي لأجلها أراد إحراق بيت كان جبريل يستأذن لدخوله!

لا حاجة له بها وهو الذي أراد قتل أمير المؤمنين عليه السلام إن لم يبايع!

الذين كتبوا حول السقيفة من المؤرخين وصفوا حال عمر يومها، ومن

---

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج١ ص٢٥.
(٢) ذكر ذلك الطبريّ في تاريخه: ج٢ ص٦١٨ ـ ٦١٩.

أنصف لم ينكر أنّه كان في حالة هيجان ليس له نظير.

هكذا إذاً أصبح يجوز لأبي بكر ما لا يجوز لرسول الله ﷺ، على أيّ أساس؟ وبأيّ دليل؟ ذلك ما سوف يتّضح يوم تبلى السرائر ولا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً. يومها تتلاشى المعاذير والسفسطة ويودّ أقوام لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً.

ثمّ من هو هذا الرّجل الذي تجرأ وسأله وما هابه ولا خاف منه، وعلّق بتلك الكلمة وأعظمْ بها كلمة؟

هل يمكن أنّ يكونَ رجُلاً بسيطاً من عوامّ الناس؟ إنّهم دائماً يقولون «رجل» إنّهم يتستّرون دائماً بهذه العبارة معتّمين ليتفادوا ذكر الاسم، ولأمر ما يفعلون ذلك. وهذه مسألة جديرة بالبحث والتّحقيق!

على كلّ حال هذه شهادة صحابيّ، وشهادة الصحابيّ لا تُردّ، وهي تتضمّن تهمة صريحة للشّيخيْن بالتّلاعب بمسألة الخلافة استجابة لما يُمليه المزاج وهوى النّفس ولا ندري إن كان هذا الرّجل وحده على هذا الموقف أم يتّفق معه في ذلك آخرون. والرّواية لا تذكر أيّ استنكار من الحاضرين لما قال الرجل، بل إنّ عمر نفسه لم يردّ عليه بشيء!! أضف إلى ذلك أنّه أقسم أنّه يعلم ما في الكتاب والكتاب لم يفتح بعد؟! أطلع الغيب أم اتّحذ عند الرّحمن عهداً!!

للّذين يتحدّثون عن الشّورى وأهل الحلّ والعقد نقدّم كلام هذا الصحابيّ الرجل،الذي قال بالحرف الصّريح: أمّرته عام أوّل ولم يقل أمّره المسلمون. وبعد ذلك يأتي عبد الرّحمن بن عوف ويسمي ذلك سيرة الشّيخين ويطلب من أمير المؤمنين عليه السلام أن يستنّ بها إلى جانب القرآن

الكريم والسنّة النّبويّة. إنّها في عرض القرآن الكريم والسنّة النّبويّة أيّها الصحابيّ الجليل الأمين، وعليّ مع الحقّ والحقّ مع علي يدور معه حيثما دار، ولكنّ أكثرهم للحقّ كارهون.

أمرته عام أول وأمرك العام!!

هذا المعنى بالذّات تضمّنه كلام أمير المؤمنين عليه السلام مرّتين، مرّة مع عمر حيث قال له "احلب حلباً لك شطره" ومرة مع عبد الرحمن بن عوف بعد أن بايع عبدُ الرحمن عثمانَ، وزاد عليه السلام أن أفصح بدقيق العبارة ما يكشف عن مؤامرة في طول مؤامرة السقيفة. فقدجاء في تاريخ الطبري ما يلي:

«... ودعا عليّاً فقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده، قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعليّ، قال نعم! فبايعه، فقال عليّ: حبوتَه حبْوَ دهر ليس هذا أولَ يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. والله ما ولّيت عثمان إلا ليردّ الأمر إليك والله كلّ يوم هو في شأن فقال عبد الرحمن يا عليّ لا تجعل على نفسك سبيلاً فإنّي قد نظرت وشاورت النّاس فإذا هم لا يعدلون بعثمان [!!] فخرج علي وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله فقال المقداد يا عبد الرحمن أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحقّ وبه يعدلون...»[1].

أقول: إذا كان الناس لا يعدلون بعثمان، ويحبّون كل ذلك الحبّ، فما بالهم تذمّروا منه ومن أعماله وعمّاله حتى قتل بين أظهرهم وفيهم من ألب عليه؟ وما بالهم رفضوا دفنه في مقبرة المسلمون فدُفن في حش كوكب؟!

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٣ ص٢٩٧.

وههنا شهادة الخليفة الأول عليهم جميعاً بحبّ الرياسة: ففي الامامة والسياسة: «فدخل عليه أناس من أصحاب النّبيّ عليه الصلاة والسّلام، فيهم عبد الرحمن بن عوف، فقال له: كيف أصبحت يا خليفة رسول الله، فإني أرجو أن تكون بارئاً؟ قال: أترى ذلك؟ قال: نعم، قال أبوبكر: والله إنّي لشديد الوجع، ولما ألقى منكم يا معشر المهاجرين أشدّ عليّ من وجعي، إنّي ولّيت أمركم خيركم في نفسي فكلّكم ورم أنفُه إرادةَ أن يكون هذا الأمر له. وذلك لمّا رأيتم الدّنيا قد أقبلت ...»[1]

لقد كان اللّغط يوم السّقيفة، وكان يوم الشّورى أيضا، ومعنى ذلك أنّه لم يطرأ على تفكير أصحاب الحلّ والعقد وغيرهم تطوّرٌ يُذكر. فيوم السّقيفة سارع أبوبكر بقوله إنّي رضيت لكم أحد هذين الرّجلين قبل أن يفتتن النّاس، وهو نفس ما وقع يوم الشورى. قال الطبري في تاريخه:

«فقال أشيروا عليّ بغير هذا فقال عمّار إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليّاً فقال المقداد بن الأسود صدق عمّار إن بايعت عليّاً قلنا سمعنا وأطعنا، قال ابن أبي سرح إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان، فقال عبد الله بن أبي ربيعة صدق إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا فشتم عمّار ابنَ أبي سرح وقال متى كنت تنصح المسلمين فتكلّم بنو هاشم وبنو أمية، فقال عمّار أيّها الناس إنّ الله عزّوجلّ أكرمَنا بنبيّه وأعزّنا بدينه فأنّى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم فقال رجل من بني مخزوم لقد عدوتَ طورَك يا ابن سُميّة وما أنت وتأمير قريش لأنفسها فقال سعد بن أبي وقّاص يا عبد الرّحمن أفرغ قبل أن يفتتن النّاس...»[2].

---

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج١ ص٣٥.

(٢) تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٩٧.

أليس الإسراع قبل أن يفتتن النّاس فلتة أخرى تضاف إلى فلتة السّقيفة؟

المقداد بن الأسود صحابيّ مستقيم مشهود له بالاستقامة وحسن البلاء في الحرب والسّلم، يقترح عليّاً عليه السلام للخلافة، وعبد الله بن أبي سرح مرتدّ بشهادة جميع المؤرخين والمفسرين، وقد أهدر النبي صلى الله عليه وآله دمه، ومع ذلك يتجرأ ويعارض المقداد. وتدخّل عمار بن ياسر المشهود له بالجنّة والموصوف في القرآن الكريم بـ(قلبه مطمئنّ بالإيمان)، وابن أول من دقّ باب الشهادة والمُبشّرَيْن بالجنة ياسر وسميّة، ولا يخفى على من له إلمام بطريقة الكلام عند العرب أنّ قولهم له "يا ابن سميّة" إنّما أرادوا به الحطّ من شأنه بذكرهم لأمّه، مع أنّها شهيدة قُتلت في سبيل الله، وقتلها أبوجهل االمخزوميّ، والرّجلُ الذي شتم عمّاراً وعيره بأمّه مخزومي أيضا! وعلى كل حال لم يزد عمّار في كلامه على أن ذكّر العرب بنعمة الله عليهم حيث أكرمهم وأعزّهم بدينه، وفي نفس الوقت جبهَ المرتدَّ ابنَ أبي سرح بما هو أهل له وفضح كيده قائلا: متى كنت تنصح المسلمين؟

ويقول المخزوميّ: مالك وتأميرَ قريش لأنفسها؟ فالقضيّة إذاً ليست قضيّة خلافة للنّبي صلى الله عليه وآله في أمور الدّين والدّنيا، وإنّما هي قضيّة تأمير قريش لأنفسها فاعتبروا يا أولي الأبصار.

أيصحّ أن يُقال إنّ مثل هذه الأجواء تعبّر عن شورى وحرّية رأي؟!

إن المرتدّ الذي أباح رسول الله صلى الله عليه وآله دمَه سبّ عمّاراً، فهل يكون سبُّ عمّار أمراً بسيطاً عند الله تعالى؟ ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وآله بخصوص سبّ عمار؟

جاء في الإصابة ما يلي:

«عن خالد بن الوليد قال كان بيني وبين عمّار كلام فأغلظت له، فشكاني إلى النبيّ (صلى الله عليه وسلّم) فجاء خالد فرفع رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) رأسه فقال من عادى عمّاراً عاداه الله ومن أبغض عمّاراً أبغضه الله»[١].

من هو عبد الله بن أبي سرح؟

قال ابن حجر في الإصابة:

«وأخرج الطّبري في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ﴾ من طريق السديّ أنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح أسلم ثم ارتدّ، فلحق بالمشركين ووشى بعمّار وجبر عبد بن الحضرميّ أو ابن عبد الدار فاخذوهما وعذّبوهما حتى كفرا فنزلت: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾»[٢].

وفي تاريخ الطبري:

«حدّثنا ابن حميد قال: حدّثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكّة ألاّ يقتلوا أحداً إلا مَنْ قاتلَهم إلا أنّه قد عهد في نفر سمّاهم، أمرَ بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح بن حبيب بن جذيمة بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى،

---

(١) الإصابة، ابن حجر: ج٤ ص٤٧٤.

(٢) الإصابة ١: ٤٥٢.

وإنّما أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بقتله أنّه كان قد أسلم فارتدّ مشركاً ففرّ إلى عثمان، وكان أخاه من الرّضاعة فغيّبه حتى أتى به رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بعد أن اطمأن أهل مكّة فاستأمن له رسولَ الله، فذكر أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) صمت طويلاً ثمّ قال: نعم، فلمّا انصرف به عثمان قال رسول الله لمن حوله من أصحابه، أما والله لقد صمتّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه، فقال رجل من الأنصار فهلاّ أومأتَ إليّ يا رسول الله، قال: إنّ النبيّ لا يقتل بالإشارة»[1].

وفي الإصابة:

«ومن طريق يزيد النّحوي، عن عكرمة، عن ابن عبّاس، قال: كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب للنّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) فأزلّه الشّيطان فلحق بالكفّار، فأمر به رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أن يُقتل، يعني يوم الفتح فاستجار له عثمان فأجاره النبي (صلى الله عليه وسلّم)»[2].

نعم، إنّ من عادة عثمان أن يشفع في المرتدّين والمتمرّدين.

وقال الزركشي في البرهان:

«ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً نزلتْ في عبد الله بن أبى سرح، أخي عثمانَ من الرّضاعة، حين قال: سأنزل مثلَ ما أنزلَ الله، وذلك أنّه كان يكتبُ لرسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فأنزل الله جلّ ذكْرُهُ "ولقد خلقْنا الإنسانَ من سلالة من طين" فأملاها عليه رسولُ الله (صلى الله عليه وسلّم)

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٢ ص٣٣٥.

(٢) الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٤ ص٩٥.

فلمّا بلغ قولَه ثمّ أنشأناه خلقاً آخر، قال: رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) اكتب فتبارك الله الخ الآية، فقال: إن كنتَ نبيّاً فأنا نبيٌّ لأنّه خطر ببالى ما أمليتَ عليّ فلحق كافراً»[١].

وقال البلاذريّ:

«قال الواقديّ: وأوّل من كتب له من قريش عبد الله بن سعد بن أبى سرح، ثُمّ ارتدّ ورجع إلى مكّة، وقال لقريش أنا آتى بمثل ما يأتي به محمّد، وكان يُملي عليه الظّالمين فيكتب الكافرين. يملي عليه سميع عليم، فيكتب غفور رحيم. وأشباه ذلك. فأنزل الله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾[٢] فلما كان يوم فتح مكّة أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بقتله. فكلمه فيه عثمان بن عفّان وقال: أخي من الرّضاع وقد أسلم. فأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بتركه، وولاّه عثمان مصر»[٣].

قال ابن حجر:

«وقال ابن البرقيّ في تاريخه: حدّثنا أبو صالح عن اللّيث قال كان ابن أبي سرح على الصّعيد في زمن عمر ثم ضمّ إليه عثمان مصر كلّها، وكان محموداً في ولايته، وغزا ثلاثَ غزوات إفريقية وذات الصّواري والأساود، وروى البغوي بإسناد صحيح عن يزيد بن أبي حبيب قال خرج ابن أبي سرح إلى الرّملة، فلمّا كان عند الصّبح قال: اللّهم اجعل آخر عملي الصّبح

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ج١ ص٢٠٠.
(٢) الأنعام: ٩٣.
(٣) فتوح البلدان، البلاذري: ج٣ ص٥٨٢.

فتوضّأ ثم صلّى فسلّم عن يمينه، ثم ذهب يسلّم عن يساره فقبض الله روحه يرحمه الله، وذكره البخاريّ من هذا الوجه وأخرج السّراج عن عبد العزيز بن عمران، قال، مات بن أبي سرح سنة تسع وخمسين في آخر سنيّ معاوية»[١].

أقول: نعم، يرحم الله من ارتدّ بعد إسلامه وأهدر النبيﷺ دمه، ثمّ شفع فيه عثمان، كما هي عادته في الشّفاعة في أعداء الله ورسوله من أمثال الوليد بن عقبة الذي سمّاه القرآن الكريم فاسقاً، والحكم الذي نفاه رسول اللهﷺ إلى الطائف. يرحم الله من لم يزل يبغي للمسلمين الغوائل، ثمّ كان من رؤوس الفتنة التي أطاحت بعثمان، ثم سنداً قويّا لأصحاب الجمل وأصحاب معاوية، ولم يضيّع نصيبه من لعن علي بن أبي طالبعليه السلام، ثم مات كما يموت الصدّيقون! قبض الله روحه بعد أن سلّم من الصلاة مباشرة!!

وفي تاريخ الطبري:

«(وأمّا هشام بن محمّد) فإنّه ذكر أنّ أبا مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم حدثّه عن محمد بن يوسف الأنصاري من بني الحارث بن الخزرج، عن عبّاس بن سهل الساعديّ، أنّ محمّد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف هو الذي كان سرّب المصريّين إلى عثمان بن عفّان، وأنّهم لمّا ساروا إلى عثمان فحصروه وثب هو بمصر على عبدالله بن سعد بن أبي سرح أحد بني عامر بن لؤي

(١) الإصابة، ابن حجر: ج٤ ص٩٦.

القرشيّ، وهو عامل عثمان يومئذ على مصر، فطرده منها وصلّى بالناس فخرج عبدالله بن سعد من مصر فنزل على تخوم أرض مصر مما يلي فلسطين، فانتظر ما يكون من أمر عثمان، فطلع راكب فقال: يا عبد الله ما وراءك خبّرنا بخبر النّاس خلفك، قال: أفعلُ قَتلَ المسلمون عثمان (رضي الله عنه) فقال عبدالله بن سعد إنا لله وإنا إليه راجعون يا عبد الله، ثمّ صنعوا ماذا قال، ثُمّ بايعوا ابن عمّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) عليّ بن أبي طالب قال عبدالله بن سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال له الرّجل: كأنّ ولاية عليّ بن أبي طالب عدلت عندك، قتلَ عثمان، قال أجَلْ قال فنظر إليه الرّجل فتأمّله فعرفه وقال كأنّك عبدالله بن أبي سرح أمير مصر، قال: أجلْ، قال له الرّجل: فإن كان لك في نفسك حاجة فالنّجاء النّجاء، فإنّ رأى أمير المؤمنين فيك وفي أصحابك سيء إنّ ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين، وهذا بعدي أمير يقدم عليك، قال له عبدالله، ومن هذا الأمير، قال قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، قال عبدالله بن سعد أبعد الله محمد بن أبي حذيفة فإنّه بغى على ابن عمه، وسعى عليه وقد كان كفله وربّاه وأحسن إليه، فأساء جواره ووثب على عمّاله وجهّز الرجال إليه حتى قُتل، ثمّ ولي عليه من هو أبعد منه ومن عثمان لم يمتّعه بسلطان بلاده حولاً ولا شهراً ولم يره لذلك أهلا، فقال له الرجل: أنج بنفسك لا تقتل، فخرج عبدالله بن سعد هارباً حتى قدم على معاوية بن أبي سفيان دمشق»[١].

هذا الرجل الذي ثبتت ردّته بعد إسلامه يسترجع حين بلغه أنّ المسلمين بايعوا عليّ بن أبي طالب عليه السلام للخلافة، فما معنى ذلك؟

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٣ ص٥٤٩.

ما معنى قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون في هذا المقام، وإنّما هي كلمة تقال عند المصيبة الكبيرة؟ أتراه يعتبر وصول الخلافة إلى عليّ عليه السلام مصيبة كبيرة على الإسلام والمسلمين؟

إن الذي لا شك فيه هو أن وصول الخلافة إلى علي عليه السلام مصيبة كبيرة على رؤوس بني أمية، لا لتعثّر منافعهم غير المشروعة فحسب، بل لأنّ ذلك يسمح ولأوّل مرّة منذ وفاة النبي صلى الله عليه وآله ببيان الإسلام المحمّدي الأصيل الذي لا يقيم لأحكام الجاهليّة وزْناً، ولا يُنزل قُريشاً تلك المنْزلة التي اقتحمتها بغير حقّ بعد أن أزاحت عنها أهلها الشّرعيين. نعم إنّ ابن أبي سرح يسترجع لأنّ المؤامرة التي قضت قريش ثلاثين سنة في تنفيذها بدقّة تتبددَ فجأة على يد رجل لا يخاف في الله لومة لائم. ولكن ابن أبي سرح لا ييأس لأن قريشاً وبني أميّة على وجه الخصوص يمتلكون من المال والمناصب والرّجال ما يمكنهم من إعادة الكرّة، كما فعلوا يوم الأحزاب وأعداء علي عليه السلام وحساده كثيرون، فلا يبقى إلا التّنسيق وهو أمرٌ سهل على قوم يتقلّبون في السّلطة منذ وفاة النّبي صلى الله عليه وآله وهو مع ذلك يجيّش الجيوش ويؤلّب على من هو من رسول الله بمنزلة هارون من موسى.

وهذه رسالة من عقيل بن أبي طالب (رضي الله عنه) إلى أخيه علي بن أبي طالب عليه السلام ذكرنصّها البلاذري في أنساب الأشراف: «أمّا بعد كان الله جارك من كلّ سوء، وعاصمك من المكروه على كلّ حال. إنّي خرجت ـ يابن أمّ ـ معتمراً ولقيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح في نحو من أربعين شاباً من أبناء الطّلقاء، فقلت لهم ـ وعرفت المُنكر ـ: أين تريدون يا بني الطّلقاء؟ أبمعاوية تلحقون عداوةً لنا غير مستنكرة منكُم تُحاولون تغييرَ أمْر الله وإطفاء

نور الحقّ!!! فأسمعُوني وأسمعتُهم ثم إنّي قدمت مكّة وأهلها يتحدّثون بـأنّ الضّحاك بن قيس أغار على الحيرة وما يليها فأفّ لدهر جرأ علينا الضّحّاك، وما الضّحاك [إلاّ] فقع بقرقر، فاكتب إليّ يا بن أمّ برأيك وأمرك، فإن كنـت الموتَ تريدُ تحمّلت إليك ببني أخيك وولد أبيك فعشنا معك مـا عـشْت، ومتنا [معك] إذا متّ. فكتب إليه عليّ عليه السلام: إنّ ابن أبـي سـرح وغيـره مـن قريش قد اجتمعوا على حرب أخيك اليوم كاجتمـاعهم علـى حـرب ابـن عمّك قبل اليوم، وإنّ الضحاك أقلّ وأذلّ من أن يقرب الحيرة، ولكنّـه أغـار على ما بين القطقطانة والثّعلبية»[1].

وعلى كلّ حال فإنّ رأي أمير المؤمنين عليه السلام في عبد الله بـن أبـي سـرح وأصحابه سيّء، إن ظفر بهم قتلَهم أو نفاهم من بلاد المسلمين، وقـد ثبـت أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ يـدور معـه حيـث دار[2]. فإذا اختلف اثنان أحدُهما عليّ فإنّ الحقّ لا يخفى إلا على من لا بصيرة لـه في الدّين.

وفي تاريخ الطبري:

«عن الزّهريّ قال: خرج محمّد بن أبي حذيفة ومحمّد بن أبي بكر عـام خرج عبدالله بن سعد فأظهرا عيب عثمان وما غيّر وما خالف بـه أبـا بكـر وعمر وأنّ دم عثمان حلال ويقولان استعمل عبدالله بن سـعد رجـلاً كـان رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أباح دمَه ونـزل القـرآن بكُفـره، وأخـرج

(١) أنساب الأشراف، البلاذري: ص٧٤ ـ ٧٥.

(٢) حديث علي مع الحق قال عنه ابن تيمية "لم يروه أحد لا بإسناد صحيح ولا ضعيف" مع أنّه ورد في أكثر من عشرين مصدرا من بينها مستدرك الحاكم بإسناد صحيح.

رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قوماً وأدخلهم ونزع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر فبلغ ذلك عبدالله بن سعد، فقال: لا تركبا معنا، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين»[1].

ولقد شهد عليّ بن أبي طالب عليه السلام على الطّلقاء بما ينتفع به أولو الألباب، وذلك بقوله في معركة صفّين، كما أورده ابن مزاحم قال: «وفي حديث عمر بن سعد قال: لمّا رفع أهل الشّام المصاحف على الرّماح يدعون إلى حكم القرآن قال عليّ عليه السلام: عباد الله، إنّي أحقّ من أجاب إلى كتاب الله، ولكنّ معاوية وعمرَو بن العاص، وابنَ أبي معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبى سرح، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إنّي أعرَفُ بهم منكُم، صحبتُهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال. إنّها كلمة حقّ يُراد بها باطل. إنّهم والله ما رفعوها أنّهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنّها الخديعة والوَهن والمكيدة. أعيروني سواعدَ كم وجماجمكم ساعةً واحدةً، فقد بلغ الحقّ مقطعَه، ولم يبق إلاّ أن يُقطع دابرُ الذين ظلمُوا»[2].

ومثله أيضاً مذكورٌ في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

وقال الطبري:

«[فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان وإلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح وإلى سعيد بن العاص وإلى عمرو بن العاص بن وائل السّهميّ وإلى عبدالله بن عامر، فجمعهم ليشاورهم في أمره وما طلب إليه وما بلغه عنهم،

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٣ ص٣٤١ ـ ٣٤٢.

(٢) وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري: ص٤٨٩.

فلما اجتمعوا عنده، قال لهم: إن لكلّ امرئ وزراء ونصحاء، وإنّكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي، وقد صنع النّاس ما قد رأيتم وطلبوا إليّ أن أعزل عُمّالي وأن أرجعَ عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبّون فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ، فقال له عبدالله بن عامر رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلُهم عنك، وأن تجمرهم في المغازي حتّى يذلوا لك فلا يكون همّة أحدهم إلاّ نفسه، وما هو فيه من دبرة دابّته وقمل فروه! ثمّ أقبل عثمان على سعيد بن العاص، فقال له: ما رأيك، قال، يا أمير المؤمنين، إنّ كنت تريد رأينا فاحسم عنك الدّاء واقطع عنك الذي تخاف واعمل برأيي تصب، قال: وما هو، قال: إنّ لكلّ قوم قادة متى تهلك يتفرّقوا، ولا يجتمع لهم أمر، فقال عثمان: إنّ هذا الرأي لولا ما فيه ثُمّ أقبل على معاوية، فقال، ما رأيك، قال: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تردّ عمّالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلي، ثم أقبل على عبدالله بن سعد، فقال: ما رأيك قال: أرى يا أمير المؤمنين أنّ النّاس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم، ثمّ أقبل على عمرو بن العاص، فقال له: ما رأيك، قال: أرى أنك قد ركبت النّاس بما يكرهون، فاعتزم أن تعتدل، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً، فقال عثمان: مالك قمل فروك أهذا الجدّ منك، فَسكَتَ عنه دهراً حتى إذا تفرّق القوم، قال عمرو: لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أعزّ عليّ من ذلك، ولكن قد علمت أن سيبلغ النّاس قول كلّ رجل منّا، فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً»[١].

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٣ ص٣٧٣ ـ ٣٧٤.

وزراء عثمان ونصحاؤه وأهل ثقته، كما يقول هو نفسه، هم: معاوية بن أبي سفيان، وعبدالله بن أبي سرح، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص. ليس فيهم بدريّ واحد وكلّهم حارب الإسلام واثنان منهم أهدر النبيﷺ دمهما، إضافة إلى وزير آخر يهوديّ لم يحضر ذلك اليوم، وهو كعب الأحبار، وربّما حضر وعُتّم على حضوره، كما جرت العادة. ألم يجد عثمان غير المرتدّين لخدمة الإسلام؟ وهل كان رسول اللهﷺ يرضى بهذه التّعيينات؟

أليس من ديننا أن ننزل الناس منازلهم؟ بأي حقّ يكون المرتّد حاكما على البدريّ السّابق إلى الإسلام، المزكّى على لسان القرآن العظيم والنبيّ الكريم؟ ولذلك لا تعجب حينما ترى هؤلاء المرتدّين أعادوها ثانية وجيّشوا الجيوش وحاربوا إمام زمانهم، ثُمّ لعنوه على المنابر وسنّوا سبّه ولعنَه، وحاولُوا طمس معالم الدّين نهائيّاً.

وقبل الفحص في ما قيل في هذا الاجتماع الرّسميّ، يجدر التّنبه إلى أنّ:

معاوية بن أبي سفيان أهدر النبيﷺ دمه، ومع ذلك أصبح خليفة المسلمين!

مروان بن الحكم لعن رسولُ اللهﷺ أباه ومن في صلبه، ونفاه من المدينة ومع ذلك أصبح خليفة المسلمين!

عبد الله بن سعد بن أبي سرح ارتدّ وأهدر النبيﷺ دمه وإن وُجد متعلّقاً بأستار الكعبة ومع ذلك أصبح أميراً على مصر!

وحال عمرو بن العاص لا تحتاج إلى شرح، لكن في هذا المقام بالذّات

كشف عمّا يخفيه في نفسه من الاستخفاف بالدين، فهو لا يقول ما يعتقد صحّته، وإنّما يقوم بمناورة؛ لأنّه يعلم أنّ النّاس سيبلغهم قول كلّ رجل من المجتمعين فأراد أن يبلغهم قول يكسب من خلاله ثقتهم! على أنّ هذا لم يدم طويلاً فإنّه قد انقلب فيما بعد على عثمان وأصبح يحرّض النّاس على قتله، لا لأنّه خالف الشّريعة في كثير من أعماله، بل لأنّه عزله من منصبه!

وفي مقابل ذلك:

عليّ بن أبي طالب عليه السلام أوّل من صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله والمطهّر بنصّ الكتاب العزيز يُلعَن على المنابر ويدوم لعنه ثمانين سنة!

عمّار بن ياسر(ابن الشهيدين) يُشتم من طرف المرتدّين ويعيّر بأمّه الشّهيدة[1]!

أبو ذرّ الذي ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدق ذي لهجة منه يُؤذى ويُنفى من مدينة الرّسول صلى الله عليه وآله ويموت في منفاه!

والموارد كثيرة لمن أراد تتبّع ذلك في كتب التّاريخ.

الاجتماع السّرّيّ (خلفيّات وأبعاد):

لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النّاس.

ولم يأمر أحد منهم بمعروف، بل كانت نصائحهم للخليفة مستوحاةً من

---

(١) قال ابن هشام في السيرة ١: ٢١١، قال ابن إسحاق: وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأمّه وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظّهيرة، يعذّبونهم برمضاء مكّة، فيمرّ بهم رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فيقول ـ فيما بلغني ـ صبراً آل ياسر، موعدكم الجنّة، فأما أمّه فقتلوها، وهي تأبى إلاّ الاسلام.

الحقْد الذي يكنّونه للإسلام والمسلمين، ولا شيء غير ذلك.

أما عبد الله بن عامر فإنّه أشار بتجمير المسلمين في الغزْو حتى يكون هَمُّ كلّ واحد منهم دبرة دابّته وقمل فروه، فيذلّوا للخليفة. هذه ألفاظه بعينها. فالمَهمّ أن يذلّ المسلمون للخليفة، لا لله تعالى، ويغدو الجهاد مناورةً لشغْل النّاس عن معارضة السّلطة حين تنحرف عن الجادّة. فأيّ قلب هذه الذي يتمنّى للمسلم أنّ يقملَ فروُه وتدبر دابّته؟ والنبيّ ﷺ يقول: لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه. فهل يحبّ عبد الله بن عامر لنفسه وقبيلته ما رضيه للمجاهدين الذين يدرّون عليه من الأموال بفضل جهادهم، ما خفي أكثره عن التّاريخ والمؤرّخين؟ أموالٌ قضمها هو وبنو أبيه قضم الإبل نبتة الرّبيع. وهل هذه نصيحة تخدم الإسلام والمسلمين والنبيّ ﷺ يقول: الدّين النّصيحة؟

هذا ما كان من عبد الله بن عامر.

وأما سعيد بن العاص فقد أشار على عثمان بقوله: إنّ لكلّ قوم قادةً متى تهلكْ يتفرّقُوا ولا يجتمع لهم أمر!

واستحسن عثمان ذلك قائلا: إنّ هذا الرّأي لولا ما فيه.

والمراد من كلام سعيد بن العاص أن يقضي عثمان على قادة المعارضة، لا لأنّهم استوجبوا ذلك شرعاً ولكن ليقطع عنه مادّة الدّاء. فإنكار المنكر في نظر هذا الصّنف من النّاس داء، وهم مع ذلك في مناصب حسّاسة يملكون التّصرّف في أمور المسلمين!

وجواب عثمان يصبّ في نفس المجرى، فإنّه استحسن الرّأي لولا أنّ

فيه مافيه. والذي فيه هو أنّ قادة المعارضة الذين يريد سعيد بن العاص قتلهم رؤوسٌ في عشائرهم، ولهم أنصار ومتعاطفون وسوابق في الإسلام، فالقضاء عليهم ليس مأمونَ العاقبة وإلاّ لما تردّد فيه عثمان. ولذلك تصرّف بطريقة ليس فيها حذر حيال من ليس لهم عشيرة أو أنصارتخشاهم قريش،كما حدث مع عمّار بن ياسر وأبي ذرّ وعبد الله بن مسعود!

إنّ عثمان يخاف العشيرة قبل الله تعالى، ولولا ذلك لاحترم من كان النبيﷺ يحترمه من الصّحابة، ولاحتقر من احتقره الإسلام وأهدر دمه ونزل فيه قرآن.

وأمّا معاوية فإنّه صاحب مخطّط بعيد المدى، والصّلح بين الخليفة والمعارضين يفسد عليه مشروعه، وإنّما مصلحته في استمرار تنامي السّخط وتفاقم الوضع، لذلك أشار بما يضمن ذلك، وهو أن يردّ عثمان العمّال على الكفاية لما قبلهم، ولتذهب مصلحة الإسلام والمسلمين أدراج الرّياح.

وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقد أشارعلى عثمان بتألّف قلوب النّاس بالمال: "إنّ النّاس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم"! ولا عجب أن يصدر مثل هذا من مرتدّ. وكيف لا يصف المسلمين بأنّهم أهل طمع وينزلهم منزلة المؤلّفة قلوبهم وفيهم من صُلحاء الأمّة من لا فرق عنده بين تبْرها وتُرابها، ومن يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة.

وأما عمرو بن العاص فقد سبق القول بخصوص كلامه.

لقد كان لعثمان بطانة سوء لا يهمّهم إلاّ حطام الدّنيا والتسلّط على رقاب النّاس بغيرحقّ، ودفع عثمان ثمن ذلك؛ لأنه وضع ثقته في من لا دين له،

ولا وفاء لمن لا دين له، وقد استشار عثمان الصّالحين من أصحاب رسول اللهﷺ أيضاً، لكنّه لم يعمل بنصائحهم؛ لأنّها تخالف هواه وتضع الأشياء في مواضعها. وها هو عليّ بن أبي طالبعليه السلام ينصحه انطلاقاً من دينه ويمحضه النّصح لو أنّه عمل بذلك وخالف هواه؛ فقد ذكّره العاقبة، وكشف له ما أخفاه عنه وزراؤه الثّقات. وهذه كلماته له، كما جاء في تاريخ الطبري:

«... فالله الله في نفسك، فإنّك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل، وإنّ الطريق لواضح بيّن وإنّ أعلام الدّين لقائمة. تعلم يا عثمان أنّ أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدي وهَدى فأقام سُنّة معلومة وأمات بدعة متروكة، فوالله إنّ كلاً لبيّن وإنّ السّنن لقائمة لها أعلام وإنّ البدع لقائمة لها أعلام وإنّ شرّ النّاس عند الله إمام جائر ضلّ وضلّ به فأمات سنّة معلومة وأحيى بدعة متروكة، وإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يقول: يؤتي يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيُلقى في جهنّم، فيدور في جهنّم كما تدور الرّحى، ثُمّ يرتطم في غمرة جهنّم، وإنّي أحذّرك الله وأحذّرك سطوته ونقماته فإنّ عذابه شديد أليم، وأحذّرك أن تكون إمام هذه الأمّة المقتول فإنّه يقال: يقتل في هذه الأمّة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحقّ، لعلوّ الباطل يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجا»[1].

ولم يعمل عثمان بهذه النّصيحة الذّهبيّة من رجل مطهّر بنصّ الكتاب العزيز، وإنّما عمِل بإشارة ورأي من جرى لعنه على لسان رسول اللهﷺ.

إذا لم يكن هذا انحرافاً فما هو الانحراف؟

---

(١) تاريخ الطبري: ج٣ ص٣٧٦.

عمر والتوراة

قال الدارمي:

«عن جابر أنّه قال: إنّ عمر بن الخطّاب أتى رسول اللهﷺ بنسخة من التّوراة فقال: يا رسول الله هذه نسخة من التّوراة فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغيّر، فقال له أبوبكر: ثكلتك الثّواكل ما ترى ما بوجه رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فنظر عمر إلى وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فقال: أعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد نبيّاً. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): والذي نفسي بيده لو بدا لكم موسى فاتّبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السّبيل، ولو كان حيّاً وأدرك نبوّتي لاتّبعني»[1].

وفي المصنف:

«أخرج عبد الرزاق، عن جابر، عن الشّعبيّ عن عبد الله بن ثابت، قال: جاء عمر فقال: يا رسول الله إنّي مررت بأخ لي من يهود من قريظة [فكتب لي] وكتب لي جوامع من التوراة، قال أفلا أعرضها عليك؟ قال: فتغيّر وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، فقال عبد الله: مسخ الله عقلك! أما ترى ما بوجه رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)؟ فقال عمر: رضيت بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمّد رسولاً. قال: فسري عن النبي (صلى الله عليه وسلّم) ثم قال: والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى فاتّبعتموه وتركتموني لضللتم، إنّكم حظّي من الأُمَم وأنا حظّكم من النّبيّين»[2].

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٢ ص٤١.

(٢) المصنف، الصنعاني: ج١٠ ص٣١٣ ـ ٣١٤؛ الهيتمي، مجمع الزوائد: ج١ ص١٧٤، علل الدار

فالذي لا شكّ فيه أنّ الصّحابيّ عمر بن الخطّاب كان له أخ من يهود، كما صرّح به هو نفسه غير مُكره، وكان يهتمّ بالتّوراة الموجودة عند اليهود، وهو الذي مات ولم يحفظ القرآن، مع أنّه قد تنزّل الوحي مراراً يخبر بتحريف أهل الكتاب لكتابهم، ولو أنّه استشار النبيﷺ قبل أن يفعل لكان معذوراً، لكن يبدو أنّه لم يكن يرى أنّ عليه أن يستشير النبيﷺ حتّى في ما يتعلّق بالدّين، فكيف يكون حينما يخلو له الجوّ وما من معترض!

هذا عمر يقول عن اليهوديّ (أخ لي من قريظة...) والقرآن الكريم يهتف: **﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾**[1].

ألم ينهَ القرآن الكريم عن اتّخاذهم أولياء؟ وعمر يصرّح بأنّه أخ له من يهود:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

ألم ينهَ القرآن الكريم عن اتّخاذ بطانة منهم؟ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۞ هَاأَنتُمْ**

قطني: ج٢ ص١٠١؛ من حياة الخليفة عمر، عبد الرحمن أحمد البكري: ص٩٣.
مثل هذا الحديث في النّهاية في غريب الحديث رقم٢٨٢٥. وأخرج مثله الهيثميّ في مجمع الزّوائد (١: ١٧٤ الطبعة ٢ القاهرة ١٩٦٧) و(جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ١: ٤٢ رقم الحديث ١٥٠ ط مؤسسة علوم القرآن بيروت) ودلائل النبوّة ١: ٥٠ نشر مكتبة التّراث الإسلاميّ حلب ١٩٧٠).

(١) آل عمران: ٢٨.

(٢) المائدة: ٥١.

أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ۞ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾[٢].

ألم يخبر القرآن الكريم أن اليهود أعداء المؤمنين؟ ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾[٣].

ألم يخبر أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، بل أخبر سبحانه وتعالى أنهم ماهرون في فن التحريف ولبس الحق بالباطل:

﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[٤].

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾[٥].

يتوالى نزول القرآن الكريم يحذر من كيد اليهود في الدين، ولكن ذلك

---

(١) آل عمران: ١١٨ـ ١٢٠.

(٢) آل عمران: ٦٩.

(٣) المائدة: ٨٢

(٤) آل عمران: ٧٨.

(٥) المائدة: ١٣.

كلّه لا يمنع الصّحابيّ عمر بن الخطاب من البقاء معهم وحضور مجالسهم التي لم تكن تخلو من المؤامرات على النبيّ ﷺ والمؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

والقرآن الكريم قد وجّه من المطاعن والتّأنيب والتّوبيخ إلى اليهود ما لم يوجّهه إلى أحد من الأمم المذكورة فيه، وليس ذلك إلاّ لأنّ الكفر قد رسخ فيهم حتّى أصبح دينَهم. وماذا يتوقّع عمر من التّوراة الموجودة عند اليهود؟ أليس في القرآن قوله تعالى (ومهيمنا عليه...)؟

وجاء في تاريخ الطّبريّ ما يلي:

«حدّثنا الحارث، قال حدّثنا ابن سعد، قال أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن صالح بن كيسان، قال قال، ابن شهاب بلغَنا أنّ أهلَ الكتاب كانوا أوّل من قال لعمر "الفاروق" وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم ولم يبلغنا أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ذكر من ذلك شيئا»[2].

إنّ هذا السّلوك قد انفرد به عمر، ومع أنّ سلمان الفارسيّ قد عرف أحبار اليهود ورهبانهم من قريب، واطّلع على كثير من أخبارهم المتعلّقة بالتّوراة وغيرها إلا أنّنا لا نراه يحضر مجالسهم، ولا يهتمّ بتوراتهم ولا يذكر للنّبيّ ﷺ إلاّ ما يعود على المسلمين بالفائدة. نعم إنّه يسأل، لكن يسأل

---

(١) المائدة: ٥٧.

(٢) تاريخ الطّبري: ج٣ ص٢٦٧.

رسول الله ﷺ.

قال السيوطي: «وأخرج ابن سعد، عن أبي هريرة، قال: أتى رسول الله بيت المدارس، فقال: أخرجوا إليّ أعلمكم، فقالوا: عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله، فناشده بدينه وبما أنعم الله به عليهم وأطعمهم، من المنّ والسّلوى وظلّلهم به من الغمام، أتعلم أنّي رسول الله، قال: اللهمّ نعم، وإنّ القوم ليعرفون ما أعرف، وإنّ صفتك ونعتك لمبيّن في التّوراة، ولكنّهم حسدوك، قال: فما يمنعك أنت، قال: أكره خلاف قومي، وعسى أن يتّبعوك ويسلموا فأسلم»[1].

وبعد هذا، هل توقّف الأمر عند هذا الحدّ بحيث أعرض عمر عن التّوراة المحرّفة وأهل الكتاب؟

قبل التطرّق إلى ذلك لا بأس من الإشارة إلى بعض تصرّفات عمر إزاء القرآن الكريم، فقد ذكر أطرافاً منها المتّقي الهنديّ في كنز العمال[2]. وقال السّيوطي في الدر المنثور: «أخرج ابن جرير وأبو الشّيخ، عن محمّد بن كعب القرظيّ، قال: مرّ عمر (رضي الله عنه) برجل يقرأ: السّابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار، فأخذ عمر بيده، فقال: من أقرأك هذا؟ قال أبيّ بن كعب. قال: لا تفارقني حتّى أذهب بك إليه، فلمّا جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال وسمعتها من رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنّا رُفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا!! فقال أُبيّ: تصديقُ ذلك في أوّل سورة الجمعة ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج١ ص١٦٤.
(٢) كنز العمال، المتقي الهندي: ج٢ ص٥٩١ـ ٥٩٨.

يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾. وفي سورة الحشر ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ وفي الأنفال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ﴾»[1].

أهل الكتاب وعلى رأسهم كعب الأحبار:

نعم، سبق طرح هذا السّؤال: هل أعرض عمر عن التّوراة وأهل الكتاب؟

الواقع يوقفنا على خلاف ذلك. فإنّه بعد وصول عمر إلى الخلافة، وجد أهل الكتاب منفذاً إلى شؤون المسلمين عن طريق كعب الأحبار خاصّة، وآخرين من أمثال وهب بن منبه وتميم الدّاريّ وزيد بن ثابت...

قال ابن شبّة في تاريخ المدينة: «حدّثنا محمّد بن يحيى قال: أنبأنا عبد الله بن موسى التّيمي، عن ابن أسامة بن زيد، عن ابن شهاب، قال: أوّل من قصّ في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) تميم الدّاريّ، استأذن عمر (رضي الله عنه) أن يذكر الله مرّة فأبى عليه، ثم استأذن أخرى، فأبى عليه، حتّى كان آخر ولايته، فأذن له أن يذكر يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر (رضي الله عنه). فاستأذن تميم (رضي الله عنه) في ذلك عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) فأذن له أن يذكر يومين من جمعة»[2].

هذا بخصوص تميم الدّاريّ.

أمّا كعب الأحبار، فقد كان حرّاً، مطلق اليد، يتحدّث بما شاء، متى شاء ولا أحد يعترض عليه، لأنّه كان محميّاً من طرف الدّولة ـ حصانة دبلوماسيّة باللّسان المعاصر ـ وإن كان عمر قد تنبّه إلى خطورة ذلك في

---

(١) الدر المنثور، السيوطي: ج٣ ص٢٦٩.

(٢) تاريخ المدينة، ابن شبه: ج١ ص١١.

وقت معيّن حينما بالغ كعب وتجاوز الحدّ المسموح به، فنهاه عن الإكثار من الحديث عن الأوّل (الكتاب الأوّل) والواقع أنّ النّهي حدث ذلك بعد أن بثّ كعب ما أراد من الخرافات والأساطير وأعانه في ذلك آخرون أصبحوا تلامذة له، من أمثال أبي هريرة الدّوسيّ، وعبد الله بن عمرو بن العاص، في وقت كانت الدّولة قد منعت كتابة ورواية الحديث النبوي الشريف!! ولقد كان كعب ذكياً في تمرير افتراءاته حتى قال بعض أهل العلم ممن أخذ عن أبي هريرة، كما في تاريخ ابن كثير: «اتّقوا الله وتحفّظوا في الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدّث عن رسول الله ويحدّث عن كعب الأحبار، ثم يقوم فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) عن كعب وحديث كعب عن رسول الله (صلى الله عليه وسلّم). وفي رواية، يجعل ما قاله كعب عن رسول الله، وما قاله رسول الله عن كعب. فاتّقوا الله وتحفّظوا في الحديث»[١].

لم يكن كعب الأحبار قد رأى رسول اللهﷺ أو سمع منه، لكنّه مع ذلك أصبح من أكثر النّاس رواية، ومن طبقة عالية بحيث يروي عنه صحابة من أمثال أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر. وقد صار فيما بعد المستشارَ الشّخصيَّ للخليفة عثمان، ولعلّ ذلك كان بوصيّة من عمر، ولم يتجرأ أحد من المسلمين أن يشير إليه بتُهمة على الدّين، لأنّ إشاراته وتوجيهاته كانت دائماً متناغمة مع هوى الطبقة الحاكمة، من الذين حاربوا الإسلام بكلّ ما استطاعوا ولم يدخلوا فيه إلاّ مكرهين؛ والذين

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨ ص١٠٩.

تبرّمُوا بأبي ذرّ حينما صدع بفضح كعب الأحبار على مرأى ومسمع من الملإ قائلاً له في مجلس عثمان: يا ابن اليهوديّين أتعلّمنا ديننا، فوالله ما خرجت اليهوديّة من قلبك!!

ووقفت السّلطة إلى جنب كعب الأحبار، ودفع أبو ذرّ ثمن ذلك.

إنّ كعب الأحبار لم يكن ليصل إلى هذا المقام لولا ما كان له من الوجاهة في حياة عمر، مع أنّه لم يكن أحد من المسلمين يجهل يهوديّته، ولو كان قد اعتنق الإسلام فعلاً ـ كما كان يزعم ـ لتخلّى عن التّوراة المحرّفة، لكنّه لم يكتف بالبقاء عليها، بل فتح على النّاس منها سيلاً لا تزال آثاره إلى اليوم. وهل نال كعب ذلك المقام إلاّ بدعواه العلم بما في الكتاب الأوّل؟ هذا مع العلم أنّ رسول الله ﷺ صدع فيهم قائلاً: أنا مدينة العلم وعليّ بابها. عليّ الذي أشير إليه في القرآن الكريم بـ(من عنده علم الكتاب)، ألم يكن لديه ما يغني عن إسرائيليات كعب؟ إنّهم لم يكونوا يتوجّهون إلى باب مدينة العلم إلاّ عند الضّرورة الملحّة، حيث لا يغني عنهم كعبهم شيئاً.

لم يتخل عمر عن اعتقاده بالتّوراة الموجودة عند اليهود، وقد أخبره كعب يوماً أنّه يجده فيها، فسأله عمر: تجدني فيها باسمي؟ فقال: لا، ولكن بصفتك. وهو بهذا القول يريد أن يُوهم بشرعيّة خلافة عمر. وبما أنّ القرآن الكريم يُصرّح بوجود اسم النبي ﷺ وصفاته: ﴿**النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ...**﴾[1] فلمَ تأخّر كعب ولم يسلم على عهد

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

رسول الله ﷺ؟ ألا يكون كلام كعب منطوياً على شيْء من كيْد اليهود؟

إنّه لمن حقّ المسلمين اليوم وبعد مرور كلّ هذه القرون المتطاولة، أن يرفعوا القيود المفروضة على أفكارهم بغير حقّ، ويتساءلوا عن سرّ موافقتهم لاعتقادات أهل الكتاب في ما يخصّ التّوحيد بأقسامه وعصمة الأنبياء وأحوال تتعلق بيوم القيامة، وأشياء من هذا القبيل ممّا يتعارض قطعاً مع ما جاء به القرآن الكريم. ومن المهمّ أيضاً أن يدركوا كيف تسرّب بينهم التّيار المشكّك الذي يستند في شبهاته إلى الآيات المتشابهات، ونقْل أخبار الكتاب الأوّل على لسان أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمربن الخطاب، ويتساءلوا عن مدى شرعيّة حضور تميم الدّاريّ وكعب الأحبار في حاضرة الخلافة الإسلاميّة وهما يرويان من الإسرائيليّات ما يروق لهما في المسجد النّبويّ نفسه، بينما كان الحصارُ الفكريّ مضروباً على البدريّين يمنعهم من رواية الحديث. وعلى كل حال هذا أمر لا يتمّ إلا في ظل تحرّر فكريّ من التعصّب المقيت، وصمود في وجه المتلبّسين بالدّين الذين يدافعون عن اليهوديّة المحرّفة المتستّرة بلباس الإسلام. وقد فضح العلم كثيراً من مرويّات كعب الأحبار، وهذا وحده كاف للتّنبه لخطر هذا اليهوديّ على تراث المسلمين، وكفيل بتوجيه أهل العلم إلى إعادة النّظر فيه بصورة موضوعيّة نزيهة. وهل يتوقّع صلاح ذات البين بين المسلمين بصورة مجْدية لا مداهنة فيها طالما بقيت الخرافات والأساطير اليهوديّة تتمتع بشرعية وحصانة باسم السّنّة؟

لقد كان كعب يحضر مجالس يكون فيها تلميذه أبو هريرة، فربما حدّث أبو هريرة بشيء ينفرد به، فيسارع كعب الأحبار إلى تصديقه ولا ينكر عليه

أحد، وليس بأيدينا اليوم استنكارات صارمة متوجّهة إليه سوى ما كان من أبي ذرّ الذي لا تأخذه في الله لومة لائم بشهادة الفريقين. ولو كان كعب مؤتمنا على الدّين لما واجهه أبوذرّ (رضي الله تعالى عنه) بتلك الطريقة. والمتمعّنُ في الموقف يفهم من سلوك أبي ذرّ (ره) خطاباً تحذيريّاً موجّهاً إلى المسلمين ينبّههم فيه إلى مسألتين اثنتين، أولاهما انحرافُ الدّولة حيث أصبح اليهوديّ لديها مكيناً أميناً، والثّانية تتمثّل في وجود تيّار تخريبيّ يعمل على تحريف القرآن تفسيراً وتأويلاً بإذن من الدّولة! لأنّ كعباً لم يشهد نزول آية واحدة من الذّكر الحكيم، ولم يكن له صلة بعترة النّبيّ ﷺ ـ عدل القرآن ـ لا من قريب ولا من بعيد. فمن أين له التّفسير والفتوى؟! وقد غضب عثمان على أبي ذرّ لأنّه وقف ضدّ التّحريف، وكان أولى به أن ينتهر كعباً، لتقوّله بلا علم وتقدّمه على أصحاب رسول الله ﷺ، لكن ذلك لم يكن يتناسب مع سياسة الطّبقة الحاكمة وأهدافها.

إنّ مجرّد وصول تلك الحادثة إلينا عن طريق كتب المخالفين لأهل البيت عليهم السلام هو بنفسه آية لمن تدبّر، فإن السّلطة الحاكمة آنذاك كانت تمارس التّرغيب والتّرهيب، ولا تتردّد في معاقبة من تسوّل له نفسه إبداء رأي مخالف للرّأي الرّسميّ ولو كان قد تلقّاه من فم النّبيّ ﷺ، وقد تطوّرت المسألة أكثر في زمن معاوية، إذْ مُورست رقابة لم يسبق لها مثيل، ووُضعت أحاديث وأخبار قُصد من ورائها إفراغ الدّين من محتواه الحقيقيّ، حتى وصلت الخلافة إلى المستهترين والمعربدين وحكمَ في الأمّة أراذلُها وأوباشُها، وهي نتيجة منطقيّة لسلوك الدّولة تجاه السّنّة النّبويّة في ظلّ حكم عثمان وقبلَه وبعدَه، باستثناء فترة حكم الإمام عليّ عليه السلام، التي

تميّزت بالاضطرابات والقلاقل.

وقد ذكر الشّيخ محمود أبو ريّة في كتابه «شيخ المضيرة أبو هريرة» من حيل كعب الأحبار وخُدعه التي انطلت على أبي هريرة ما يدلّ على مهارة عجيبة لليهوديّ في الدّس والخبث ورسوخٍ في الدّهاء.

عاش كعب الأحبار اليهوديّ عمراً طويلاً لم ير فيه رسول اللهﷺ، ولا قدّم للإسلام والمسلمين شيئاً غير المؤامرات والدّسّ، وقد فرّ إلى حمص، لأنّه كان متّهماً بالمشاركة في مؤامرة قتل عُمر، وبقي بها حتى هدأت الأمور، ثمّ رجع ليكون من أصحاب عثمان المقرّبين، ثمّ رجع ثانية إلى حمص عند الفتنة، وبقي بها إلى أن مات، كما في هامش الكامل لابن عدي[1] مع ذلك لم يتلقّ أذىً ولا مضايقة ولا إحراجاً؛ بل كان ينعم بمقام عند الخلفاء لا يحلم به كثير من المهاجرين والأنصار.

وأمّا أبو ذرّ (ره) ـ وهو من أوائل المسلمين إسلاماً ـ فقد عاش مسيّراً من بلد إلى بلد، وانتهى به الأمر إلى أن يموت منفياً بالرّبذة.

صحابيّ شهد مع رسول الله المشاهد كلّها على ضعف بدنه، وشبّهه رسول اللهﷺ بعيسى بن مريم في ورعه، كان مثالاً في الورع والتّقوى والدّفاع عن حقوق المظلومين والمستضعفين، ينتهي به الأمر إلى النّفي، لأنه رفض أن يُمليَ اليهودُ على المُسلمين دينَهم، ولأنّه لم يهب أن يقول للحاكم [لا] عندما انحرف الحاكم مُحْيياً سيرة الجاهليّة. مثلُ هذا الصّحابيّ هو الذي يستحقّ أن يُدافَع عنه، وتلتهب النفوس غيرة على حُرمته، ويُتأسّى به في فعل الخيرات. فهل أنصفه المسلمون حينما همّشوه ورضُوا له ما لقيه

---

(١) هامش الكامل، ابن عدي: ج١ ص٤٨.

من عنت الحُكّام، والتمسوا لليهوديّ ومقرّبيه الأعذار في تصويب أعمالهم وتوجيهها؟

أثر روايات كعب في التراث الإسلامي:

قال ابن كثير: «قال محمّد بن إسحق، عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عتيبة، عن سعيد بن جبير، قال: جلست عند ابن عبّاس و[عنده نفر من أهل الكتاب] فقال بعضهم: ياأبا العبّاس: إنّ نوفاً ابن امرأة كعب يزعم عن كعب أنّ موسى النّبيّ الذي طلب العلم إنّما هو موسى بن ميشا، قال سعيد، فقال ابن عبّاس: أنوف يقول هذا يا سعيد؟ قال سعيد، قلت له: نعم، أنا سمعت نوفاً يقول ذلك، قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال، قلت: نعم، قال: كذب نوف! ثمّ قال ابن عباس: حدّثني أبيّ بن كعب عن رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)... وذكر الحديث»[1].

إنّ المتدبّر في هذه القصّة يجد أنّ سلعةَ كعْب الأحْبار كانت قد راجتْ وأهل العلم من صحابة الرّسول مثل ابن عبّاس لا يدْرون. وانظرْ إلى ابن عبّاس كيف وجّه سؤاله إلى سعيد بن جبير دون من كان بحضرته من أهْل الكتاب، وسائل نفسكَ لماذا يحضُر أهل الكتاب مجلسَ ابْن عبّاس، فلعلّهم يفعلون ذلك ليُسندوا إليه الأكاذيب فيما بعد؛ ثمّ انظر إليه كيف كرّر السؤال متثبّتا قبل أن يحكم بكذب نوف. فهناك شيء يرويه نوف عن كعب الأحبار وهناك شيء يرويه أبيّ بن كعب عن رسول اللهﷺ، وهناك تعارض بين الرّوايتين، ولم يتردّد ابن عباس (ره) في إسقاط رواية نوف عن

---

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج٣ ص٩٩.

اليهوديّ.

وفي كتاب الكامل: «حدّثنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبّار الصوفيّ، أخبرنا الحارث بن سريج النّقال، حدّثنا سفيان بن عينية، حدّثنا عمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عبّاس: إنّ نوف البكاليّ يزعم أنّ موسى صاحب بني إسرائيل، ليس صاحب الخضر، فقال: كذب عدوّ الله، حدّثني أبيّ بن كعب أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، قال: [قام موسى خطيباً في بني إسرائيل، فقيل يا نبيّ الله: هل في النّاس أحد هو أعلم منك؟] فذكر الحديث بطوله»[١].

فمن هو نوف الذي كان ينشر ضلالات كعب الأحبار والصّحابة بعد أحياء؟

ولماذا قالوا نوف بن امرأة كعب ولم يذكروا اسم أبيه ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾[٢].

قال الرّازي في كتاب الجرح والتّعديل:

«نوف البكاليّ ابن امرأة كعب، ويقال ابو رشيد، وهو ابن فضالة، يقال إنّه كان أحد الحكماء. روى عنه أبو إسحاق الهمدانيّ ونسير بن ذعلوق وخالد بن صبيح، سمعت أبي يقول ذلك. حدّثنا عبد الرحمن حدّثنا محمد بن يحي، قال: أخبرنا موسى بن إسماعيل، قال: حدّثنا جعفر بن سليمان، عن ابن عمران الجونيّ قال كان نوف بن امرأة كعب أحد العلماء»[٣].

---

(١) الكامل في ضعفاء الرجال عبد الله بن عدي: ج١ ص٤٧.

(٢) الأحزاب: ٥.

(٣) الجرح والتعديل، الرازي: ج٨ ص٥٠٥.

وقال في إكمال الكمال: «وأما نوف أوله نون وآخره فاء، فهو نوف بن فضالة البكاليّ أبو يزيد ابن امرأة كعب، روى عنه نسير بن ذعلوق، قاله البخاريّ. وأبو الوداك، واسمه جبر بن نوف، يروي عن أبي سعيد الخدريّ، أخرجه مسلم في الصّحيح»[١].

وله ترجمة في تهذيب الكمال.

وفي العلل «سمعت أبي يقول البكاليّ يكنّى أبا يزيد...»[٢].

وفي مشاهير علماء الأمصار: «نوف بن فضالة البكاليّ الحميريّ أمّه كانت امرأة كعب الأحبار من صالحي أهل مصر كنيته أبو عمرو»[٣].

وفي التّاريخ الصّغير للبخاريّ: «حدّثنا موسى حدّثنا صدقة الدقيقي، عن أبي عمران، قال: لقيت نوف البكاليّ ومصعب بن الزّبير بالكوفة، فقال: سمعت كعباً... وقال ابن المبارك صفوان بن عمرو: حدّثني ابن أبي عتبة الكنديّ كنّا نختلف إلى نوف البكاليّ فخرجت البُعوث مع محمّد بن مروان على الصائفة فقُتل، وكنيته أبو زيد وقال غيره أبو رشيد»[٤].

وفي كتاب الثّقات لابن حبّان: «نوف بن فضالة البكاليّ الحميريّ، كنيته أبو زيد، ويقال أبو عمرو، وقد قيل أبو رشيد، أمّه كانت امرأةَ كعب، يروي القصص. روى عنه أبو عمران الجونيّ والنّاس»[٥].

---

(١) إكمال الكامل، ابن ماكولا: ج١ ص٥٦٩.

(٢) العلل لأحمد بن حنبل: ج٢ ص٣٣٣، ح٢٤٧٦.

(٣) مشاهير علماء الأمصار، ابن حبّان: ص١٩٦، ح٩٤٦.

(٤) التاريخ الصغير، البخاري: ج١ ص١٨١، باب ذكر من مات بين السبعين إلى الثمانين.

(٥) الثّقات، ابن حبان: ج٥ ص٤٨٣.

ليت شعري كم عدد النّاس وما الذي رووا؟!

من النّاس الذين رووا عنه خالد بن صبيح، وسعيد بن جبير، وشهر بن حوشب ونسير بن ذعلوق، وأبو إسحاق الهمداني، وأبو عمران الجوني وأبو هارون العبدي[١]. وذكره خليفة بن خياط في الطّبقة الأولى من أهل الشّامات.

وفي التّاريخ الكبير: «عن سفيان عن الأعمش عن الحكم الأسدي عن نوف قال: كان النّمل في زمن سليمان بن داوود أمثال الذّئاب!! وقال لنا أبو نعيم عن سفيان عن الأعمش عن الحكم قوله، وقال لنا عبدان عن أبي حمزة عن الأعمش عن الوليد بن الحكم الكاهلي سمعت نوفاً قال: الذّئاب»[٢].

وهو صاحب حديث أهل علّيين ينظر إليهم كالنّجوم، وإنّ أبا بكر وعمر منهم، كما في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر[٣].

وفي تاريخ مدينة دمشق والبداية والنّهاية لابن كثير أبو عمران الجوني عن نوف قال: «قال عزير فيما يناجي ربّه يا ربّ تخلقُ خلقاً فتضلّ من تشاء وتهدي من تشاء! قيل له يا عزير أعرض عن هذا... لتعرض عن هذا أو لأمحونّك من النّبوّة...»[٤].

وفي ص ٣٣٥ أو لأمحونّك من الأنبياء.

---

(١) تهذيب الكمال، المزّي: ج٣٠ ص٦٥.

(٢) التّاريخ الكبير، البخاري: ج١ ص١٣٢.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢٠ ص١٩٧.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٠ ص٣٣٤، والبداية والنهاية لابن كثير: ج٢ ص٥٥.

وفي تاريخ دمشق «... زهير عن أبيّ عن أبي إسحاق عن نوف أنّ طول سرير عوج الذي قتله موسى ثمانمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع، وكان موسى عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع ووثبته حين وثب ثمانية وفي نسخة أخرى عشرة أذرع فضربه فأصاب كعبه فخرَّ على نيل مصر فجَسَرَهُ النّاس عاماً يمرّون على صلبه وأضلاعه!!»[1].

معلوم بالوجدان تعفّن جسم الإنسان بعد خروج النّفس منه، ولذلك يُستحبّ التّعجيل بالدّفن، ورائحة ميتة الآدميّ العاديّ (من طوله أقلّ من مترين)إذا كان على سطح الأرض تُشتمّ من بعيد، ولذلك يضع أفراد الهلال الأحمر والصّليب الأحمر المقانعَ على وجوههم في جبهات القتال أثناء عمليّات نقل القتلى، فكيف بجثّة طولُها ثمانمائة ذراع وعرضها أربعمائة ذراع؟!

وهذه القصّة قد أبطلها غيرُ واحد من المحقّقين، كابن كثير وابن القيّم وغيرهما، كما في الفتاوى الحديثية لابن حجر[2]. وإنّما نقلتُها لبيان صنف ما يرويه نوف، فإنّ الرجل يعيش مع كعب الأحبار في بيت واحد ويتلقّى منه وينشر بين النّاس كما سبق في قصّة ابن عبّاس.

وفيه أيضا «عن شرحبيل بن السّمط عن نوف البكاليّ قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة. قال ابن عساكر والمحفوظ حديث شرحبيل على عمرو بن عبسة ولا نعلم لنوف صُحبة»[3].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٦١ ص١٦٠.
(٢) ذكر ذلك ابن حجر الهيتميّ في الفتاوى الحديثية: ص١٨٨.
(٣) أي تاريخ دمشق: ج٦٢ ص٣٠٣.

وفيه: «كان نوف البكاليّ إماماً لأهل دمشق فكان إذا أقبل على النّاس بوجهه، قال: من لا يحبّكم فلا أحبّه الله، ومن لا يرحمكم فلا رحمه الله»(١).

يقول هذا لقوم يلعنون جهرةً من يحبّ الله ورسولَه ويحبّه الله ورسولُه، ويعتبرون ذلك من السّنّة.

وفي تاريخ دمشق: «أبوبكر البابسيري... حدّثني موسى الكوفيّ، قال: وقفت على منزل عمرو البكاليّ وهو أخو نوف بحمص وهما من حمْيَر»(٢).

[أقول: لا ينغي الغفلة عن حمص منزل كعب الأحبار أيضا، ومنها خرج الناصبيّ الكبير حريز بن عثمانّ].

وفيه أيضاً: ... حدّثنا الوضين بن عطاء، عن يزيد بن مزيد، قال: ذُكر الدّجّال في مجلس فيه أبو الدّرداء، فقال نوف البكالي: لَغيرُ الدّجال أخوف من الدّجال، فقال: وما هو، فقال: نوف أخاف أن أُسلَب إيماني ولا أشعر، فقال أبو الدّرداء: ثكلتك أمّك يا بن الكنْديّة، وهل في الأرض مائة يتخوّفون ممّا تتخوّف ثكلتك أمّك يا ابن الكنديّة وهل في الأُرض خمسون يتخوّفون ممّا تتخوّف، ثم قال: وثلاثون، ثمّ قال، عشرون ثمّ، قال عشرة، ثمّ قال، خمسة، ثمّ قال ثلاثة، كلّ ذلك يقول، ثكلتك أمّك، ثمّ قال أبو الدّرداء: والذي نفسي بيده ما آمن على إيمانه إلا سُلبه أو انتُزع منه فيعقده والذي نفسي بيده ما الإيمان إلاّ كالقميص يتقمّصه مرّة ويضعه أخرى(٣).

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٦٢ ص٣١٢.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٦ ص٤٦٣.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٣ ص٢٩٠.

وفي العلل: ... «حدّثني حوشب بن سيف قال سمعت نوف البكائيّ يقول: اسمُ الشّيطان الذي يفتن النّاس في الأسواق مخواض يخوض الشّرّ بين النّاس!!»[١].

نعم، ممّن روى عنه أبيّ بن أبي عُبيد الكنديّ كما في الثّقات[٢] وخالد بن صبيح الجبلانيّ من أهل الشّام[٣] وشدّاد بن حيّ أبو عبد الله من أهل الشّام[٤] ومحمّد بن الحكم الكاهليّ[٥] وابنه جبر بن نوف البكاليّ أبو الوداك، يروي عن أبي سعيد الخدريّ[٦].

وفي تاريخ أسماء الثّقات لعمرو بن شاهين وجبر بن نوف البكاليّ ثقة قاله يحي[٧].

وفي تاريخ مدينة دمشق عن قتادة عن شهر بن حوشب قال: «لمّا جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية قدمت الشّام، فأخبرت بمقام يقومه نوْف فجئته إذ جاء رجل فانتبذَ النّاسَ عليه خميصة، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص، فلمّا رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال عبد الله: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يقول: إنّها ستكون هجرة بعد هجرة ينحاز النّاس إلى مُهاجَر إبراهيم...»[٨]، [عبد الله بن عمرو بن العاص ونوف بن فضالة

---

(١) العلل، أحمد بن حنبل: ج٣ ص٣٠٧، رقم ٥٣٦٣.
(٢) الثقات، ابن حبان: ج٦ ص٧٧.
(٣) الثقات، ابن حبان: ج٦ ص٢٥٧.
(٤) الثقات، ابن حبان: ج٦٤٤٢.
(٥) الثقات، ابن حبان: ج٦ ص٤٠٠.
(٦) الثقات، ابن حبان: ج٤ ص١١٧.
(٧) تاريخ أسماء الثقات، عمر بن شاهين: ص٥٧.
(٨) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١ ص١٦٠.

البكالي من تلامذة كعب الأحبار].

وفي مشاهير علماء الأمصار: «أبو الوداك جبر بن نوف البكاليّ من أهل الصّدق والإتقان»[1].

والمراد من كلّ هذا أن يُتنبّه إلى أنّه سواء صلُحت نيّتُه أم ساءت، فإنّه قد كان صاحب حديث، وكان النّاس يتوجّهون إليه، ويسمعون منه. وقد صرّح بعضهم كما سبق أنّه كان إمامَ أهل دمشق. ولكنّ ابن عبّاس قال «عدوّ الله»، وهو أجلّ من أن يصف مسلماً بمثل هذا الوصف دون أن يكون استفظعَ منه كذباً. كما أنّهم صرّحوا أنّه كان قاصّاً أيضاً، ومن القُصّاص جاء بلاء كبير.

وفي تاريخ المدينة:

«... حدثنا حيي بن آدم، قال: حدثنا أبوبكر بن عيّاش، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همّام بن الحارث، قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلى عمر (رضي الله عنه) فقال: السّلام عليك يا ملك العرب، فقال عمر (رضي الله عنه): وعليك، أكذاك تجده في كتابكم، أليس تجد نبيّاً، ثمّ خليفة، ثمّ أمير المؤمنين، ثمّ الملوك قال: بلى»[2].

هذه بعض آثار روايات كعب الذي فسح له عمر بن الخطّاب المجال، والذي مازالت إسرائيلياته تحظى بكل احترام وتقدير في كتب التّفسير والحديث والتّاريخ.

طالما اعترض عمر بن الخطّاب على رسول اللهﷺ، وإنّما يصحّ

---

(١) مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان: ص١٥٠، ح٦٨٣.

(٢) تاريخ المدينة، ابن شبّة النّميري: ج٢ ص٦٨٠.

الاعتراض إذا كان من صاحب خبرة على مثله وتعلّق الأمر بمسألة من اختصاصه، لا على من يُوحَى إليه، فهل التّشريع من اختصاص الصّحابيّ، أم أنّه كان يتصوّر أنّ للمزاج دخلاً في فهم الشّريعة؟ على أنّ هذا لم يفارق ذهنَه وسلوكَه، لذلك نراه حينما وصل إلى الخلافة، أو حينما وصلت الخلافة إليه، يتصرّف في أمور الشّريعة بالمزاج:

روى مالك في الموطإ «أنّ المؤذّن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذنه لصلاة الصبح، فوجده نائماً فقال: الصّلاة خير من النّوم. فأمرهُ عمر أن يجعلها في نداء الصُبحح»[1].

فهي في أذان الفجر عند الجمهور إلى اليوم، فلا غرابة في أن يعترض على النّبيّ ﷺ، لكنّ النّبيّ ﷺ لم يكن يقرّه على اعتراضه، بل كان يعامله بما يناسب ناموس النّبوّة (فبما رحمة من الله لنت لهم...)، ويمضي لما أمره الله به.

---

(١) الموطأ، الإمام مالك: ج١ ص٧٢.



الفصل السادس

المغيرة بن شعبة



المغيرة بن شعبة

نصب عمر المغيرةَ بن شعبةَ والياً على الكوفة بعدما شهد عليه ثلاثة من الصّحابة بالزّنا. والحال أنّ قصة إسلام المغيرة بن شعبة تعطي صورة عن شخصيّته الحقيقيّة، لا تلك التي توحي بها نظريّة عصمة الصّحابة، فكيف كان إسلام المغيرة؟ وكيف كانت حياته بعد النبيﷺ؟

قصة إسلام المغيرة بن شعبة:

قال ابن سعد: «... محمّد بن يعقوب بن عتبة، عن أبيه وغيرهم، قالوا: قال المغيرة بن شعبة: كنّا قوماً من العرب متمسّكين بديننا، ونحن سدنة اللاّت، فأراني لو رأيت قومنا قد أسلموا ما تبعتهم [!!] فأجمع نفر من بني مالك الوفود على المقوقس[1] وأهدوا له هدايا فأجمعت الخروج معهم فاستشرت عمّي عروة بن مسعود، فنهاني وقال: ليس معك من بني أبيك أحد، فأبيت إلاّ الخروج فخرجت معهم، وليس معهم من الأحلاف غيري، حتّى دخلنا الإسكندريّة فإذا المقوقس في مجلس مطلّ على البحر، فركبت زورقاً حتى حاذيت مجلسه، فنظر إليّ فأنكرني وأمر من يسألني، من أنا وما أريد، فسألني المأمور، فأخبرته بأمرنا وقدومنا عليه، فأمر بنا أن ننزل في الكنيسة، وأجرى علينا ضيافة، ثمّ دعا بنا فدخلنا عليه فنظر إلى رأس بني مالك، فأدناه إليه وأجلسه معه، ثم سأله أكلّ القوم من بني مالك؟ فقال نعم إلاّ رجلاً واحداً من الأحلاف، فعرّفه إيّاي فكنت أهون القوم عليه ووضعوا هداياهم بين يديه فُسّر بها، وأمر بقبضها وأمر لهم بجوائز، وفضّل بعضهم على بعض، وقصّر بي فأعطاني شيئاً قليلاً لا ذكر له، وخرجنا فأقبلت بنو

(١) المقوقس هو ملك مصر.

مالك يشترون هدايا لأهليهم وهم مسروورون، ولم يعرض عليّ رجل منهم مواساة، وخرجوا وحملوا معهم الخمر، وكانوا يشربون وأشرب معهم، وتأبى نفسي تدعُني ينصرفون إلى الطّائف بما أصابوا وما حباهم الملك ويخبرون قومي بتقصيره بي وازدرائه إيّاي، فأجمعت على قتلهم، فلمّا كنا ببسا تمارضت وعصبت رأسي، فقالوا لي مالك، قلت: أصدع، فوضعوا شرابهم ودعوني، فقلت رأسي يصدع ولكنّي أجلس فأسقيكم، فلم ينكروا شيئاً، فجلست أسقيهم وأشرب القدح بعد القدح، فلما دبّت الكأس فيهم اشتهوا الشّراب، فجعلت أصرف لهم وأنزع الكأس فيشربون ولا يدرون، فأهمدَتهم الكأس حتّى ناموا ما يعقلون، فوثبتُ إليهم فقتلتهم جميعاً [!] وأخذت جميع ما كان معهم، فقدمت على النّبي (صلى الله عليه وسلّم) فأجده جالساً في المسجد مع أصحابه وعليّ ثياب سفري، فسلّمت بسلام الإسلام فنظر إلى أبي بكر بن أبي قحافة وكان بي عارفاً، فقال ابنُ أخي عروة؟ قلت، نعم، جئت أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) الحمد لله الذي هداك للإسلام، فقال أبوبكر: أمن مصر أقبلتم؟ قلت: نعم، قال: فما فعل المالكيّون الذين كانوا معك؟ قلت: كان بيني وبينهم بعض ما يكون بين العرب ونحن على دين الشّرك، فقتلتهم وأخذت أسلابهم وجئت بها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ليخمّسها أو يرى فيها رأيه، فإنّما هي غنيمة من مشركين وأنا مسلم مصدّق بمحمّد (صلى الله عليه وسلّم)، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): أمّا إسلامك فقبلته، ولا آخذ من أموالهم شيئاً ولا أخمّسه؛ لأنّ هذا غدر، والغدر لا خير فيه، قال: فأخذني ما قَرُب وما بَعُد وقلت يا رسول الله

إنّما قتلتهم وأنا على دين قومي ثمّ أسلمت حيث دخلت عليك السّاعة، قال: فإنّ الإسلام يجبّ ما كان قبله...»[1].

هذه قصّة أسلام المغيرة بن شعبة، وقد اختصرها الصّنعاني في المصنّف[2]، وقد سمّى رسول الله ﷺ فعْلة المغيرة غدراً، ولم يقبل مالَه، لأنّ الإسلام لا يقبل إلاّ طيّباً. وانظر إلى قلّة حيائه حين يقول غنيمة من مشركين، وهو قد كان مشركاً حين قتلهم!

أليس هو القائل فأراني لو رأيت قومنا أسلموا ما تبعتهم؟ فكيف طابت نفسه بالإسلام بعد ذلك؟

إنّ المسألة لا تحتاج إلى بحث طويل، خصوصاً إذا علمنا أنّ العرب لا يفرّطون في مسألة الثار. فالمغيرة لم يسلم حبّاً في الدّين، وهو المقرّ على نفسه أنّه حتى لو أسلم قومه ما تبعَهم، وإنّما أسلم ليحقن دمه، لأنّه كان سيطلب من طرف ذوي القتلى الذين غدر بهم في السّفر. وبما أنّ الإسلام يجبّ ما قبله فإنّ رسول الله ﷺ لن يسلمه إليهم، لأنّه بعد إسلامه يكون جنديّاً من جنود رسول الله ﷺ، ودولة الإسلام قويّة، ولن يقف المسلمون مكتوفي الأيدي أمام مشركين يريدون أخذ واحد منهم ليقتلوه بقتلى مشركين. وقد تحمّل عمّه عروة بن مسعود الثّقفيّ دية القتلى.

فهل استقامت سيرته بعد إسلامه، أو بعبارة المحدّثين والمؤرّخين هل حَسُن إسلامُه؟

ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه في أحداث سنة ١٧ ما يلي:

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج٤ ص٢٨٥.

(٢) المصنف، الصنعاني: ج٥ ص٢٩٩.

«[... فاجتمع إلى أبي بكرة نفر يتحدثون في مشربته، فهبّت ريح ففتحت باب الكوّة، فقام أبوبكرة ليصفقه فبصُر بالمغيرة وقد فتحت الرّيح باب كوّة مشربته، وهو بين رجلي امرأة، فقال للنّفر: قوموا فانظروا، فقاموا فنظروا، ثمّ قال: اشهدوا، قالوا: ومن هذه، قال: أمّ جميل ابنة الأفقم، وكانت أمّ جميل إحدى بني عامر بن صعصعة، وكانت غاشية للمغيرة وتغشى الأمراء والأشراف [من الصّحابة طبعاً، لأنّ هذا كان في زمن عمر] وكان بعض النّساء يفعلن ذلك في زمانها [صحابيّات أيضا] فقالوا: إنّما رأينا أعجازاً ولا ندري ما الوجه!! ثمّ إنّهم صمّموا حين قامت، فلمّا خرج المغيرة إلى الصّلاة حال أبو بكرة بينه وبين الصّلاة، وقال: لا تصلّ بنا، فكتبوا إلى عُمر بذلك، وتكاتبوا فبعث عُمر إلى أبي موسى، فقال: يا أبا موسى إنّي مستعملك، إنّي أبعثك إلى أرض قد باض بها الشّيطان وفرخ فالزم ما تعرف.. ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم، قال: رأيته جالساً بين رجلي امرأة فرأيت قدمين مخضوبتين تخفقان واستين مكشوفتين وسمعت حفزاناً شديدا»[١] !!!

لا مناص من تصديق ذلك أيّها القارئ الكريم، لأنّ الشّاهد صحابيّ والمشهود عليه صحابيّ والحاكم صحابيّ... والصّحابة عدول. كما أنّه لا مناص من تصديق أنّه مع ذلك، وبعد هذه الفعلة الفظيعة والتّهمة الشّنيعة ولّى عمرُ المغيرةَ على الكوفة!

ولك أن تتصوّر سلوك الطّبقة الحاكمة انطلاقاً من قوله [تغشى الأمراء والأشراف]، [وكان بعض النّساء يفعلن ذلك في زمانها]، ولم يذكر في كتب التّاريخ أنّ واحداً من هؤلاء الأمراء والأشراف أقيم عليه الحدّ الشّرعيّ.

---

(١) تاريخ الطبري: ج٣ ص١٦٩.

هذا ما كان سنة١٧ في خلافة عمر، وقد درأ عنه عمر الحدّ بما شاء وأقامه على الشّهود...

وأدقّهم تفصيلاً لما شهدوا به ابن خلكان في وفيات الأعيان.

قال ابن حجر: «... قال عمر بن شبّة في أخبار البصرة بإسناد له: إنّ المرأة التي رُمي بها المغيرة هي أمّ جميل بنت عمرو بن الأفقم الهلاليّة، ويقال: إنّ أصل أبيها من ثقيف، قال: واسم زوجها الحجّاج بن عتيك بن الحارث بن عوف بن وهب بن عمرو الجشميّ، وكان ممّن قدم البصرة أيّام عتبة بن غزوان، وولي حائط المسجد ممّا يلي بني سليم أيّام زياد، وكان قد رحل بامرأته إلى الكوفة لمّا جرى للمغيرة ما جرى، ثمّ رجع إليها في إمارة أبي موسى، فاستعمله على بعض أعماله!»[(١)].

قال الجوهريّ:

«وكانت الرّقطاء التي رُمي بها المغيرة تختلف إليه في أيّام إمارته الكوفة، في خلافة معاوية في حوائجها فيقضيها لها... وكانت الرّقطاء هذه مغنّية من أضرب النّاس على آلات اللّهو والطرب!! [وقال حسّان بن ثابت يهجو المغيرة بن شعبة في هذه القصة]:

لو أنّ اللؤم ينسب كان عبداً	قبيح الوجه أعود من ثقيف
تركت الدّين والإسلام لمّا	بدت لك غدوةً ذات النّصيف
وراجعت الصّبا وذكرت لهواً	من القينات والعمر اللّطيف»[(٢)]

أقول: وبما أنّ ولاية المغيرة للكوفة من طرف معاوية كانت بعد وفاة

(١) الإصابة، ابن حجر: ج٢ ص٢٨ـ ٢٩.

(٢) السقيفة وفدك، الجوهري: ص٩٥ـ ٩٦.

عمر بزمن طويل، فإنّ هذا يعني استمرار العلاقة بين المغيرة وفاتنته حتى في زمن شيخوخته، ومن أبغض الخلق إلى الله تعالى شيخٌ زانٍ!

والقصة عند البلاذريّ كما يلي:

«... قالوا: إنّ المغيرة جعل يختلف إلى امرأة من بني هلال يُقال لها أمّ جميل بنت محجن بن الأفقم بن شعيثة بن الهزم. وقد كان لها زوج من ثقيف يقال له الحجّاج بن عتيك. فبلغ ذلك أبا بكرة بن مسروح، مولى النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) من مولدي ثقيف، وشبل بن معبد بن عبيد البجليّ، ونافع بن الحارث ابن كلدة الثقفيّ، وزياد بن عبيد، فرصدوه. حتى إذا دخل عليها هجموا عليه، فإذا هُما عُريانان وهو متبطّنُها! فخرجوا حتى أتوا عُمر بن الخطاب فشهدوا عنده بما رأوا. فقال عمر لأبي موسى الأشعريّ: إنّي أريد أبعثك إلى بلد قد عشّش فيه الشّيطان. قال: فأعنّي بعدّة من الأنصار. فبعث معه البراء بن مالك، وعمران بن الحصين أبا نجيد الخزاعيّ، وعوف بن وهب الخزاعيّ، فولاّه البصرة، وأمره بإشخاص المغيرة. فأشخصه بعد قدومه بثلاث. فلمّا صار إلى عمر جمع بينه وبين الشّهود. فقال نافع بن الحارث: رأيته على بطن المرأة يحتفز عليها، ورأيته يدخل ما معه ويخرجه كالميل في المكحلة. ثمّ شهد شبل بن معبد على شهادته، ثمّ أبوبكرة، ثم أقبل زياد رابعاً. فلمّا نظر إليه عمر قال: أما إنّي أرى وجه رجل أرجو أن لا يُرجم رجل من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) على يده ولا يَخزى بشهادته. وكان المغيرة قدم من مصر فأسلم وشهد الحديبية مع رسول الله (صلى الله عليه وسلّم). فقال زياد: رأيت منظرا قبيحاً وسمعت نفَساً عالياً. وما أدرى أخالطها أم لا؟ ويقال لم يشهد

بشيء. فأمر عمر بالثّلاثة فجُلدوا. فقال شبل: أتجلد شهود الحقّ وتبطل الحدّ؟ فلما جلد أبوبكرة قال: أشهد أنّ المغيرة زان. فقال عمر: حدّوه. فقال عليّ: إن جعلتها شهادة فارجمْ صاحبَك. فحلف أبوبكرة أن لا يكلّم زياداً أبداً، وكان أخاه لأمّه سميّة. ثم إنّ عمر ردّهم إلى مصرهم»(١).

ولم ينس المغيرة لزياد تلك اليد، ففي الكامل في التاريخ: «وفي هذه السّنة قدم زياد على معاوية من فارس، وكان سبب ذلك أنّ زيادا كان قد استودع ماله عبد الرحمن بن أبي بكرة، وكان عبد الرحمن يلي ماله بالبصرة، وبلغ معاوية ذلك، فبعث المغيرة بن شعبة لينظر في أموال زياد، فأخذ عبد الرحمن، فقال له: إن كان أبوك قد أساء إليّ لقد أحسن عمّك، يعني زياداً وكتب إلي معاوية إنّي لم أجد في يد عبد الرّحمن مالاً يحلّ لي أخذه، فكتب إليه معاوية أن عذّب عبد الرّحمن فأراد أن يعذر وبلغ ذلك معاوية فقال لعبد الرّحمن: احتفظ بما في يديك وألقى علي وجهه حريرة ونضجها بالماء فغشي عليه، ففعل ذلك ثلاث مرات، ثم خلاّه وكتب إلي معاوية إنّي عذّبته فلم أصب عنده شيئاً وحفظ لزياد يده عنده»(٢).

وللّذين يرون المغيرة وأمثاله أرقى من أن يقترفوا ما اتُّهموا به نورد مايلي مما حدث في عهد النبيﷺ وبعده في زمن الخلفاء:

في سنن النسائيّ الكبرى: «أخبرنا يحيى بن حبيب بن عربيّ، قال: حدّثنا يزيد بن زريع، قال: حدّثنا محمد بن إسحاق، قال: حدثني محمّد بن إبراهيم، عن أبي الهيثم بن نصر بن دهر الاسلمي، عن أبيه، قال: كنت فيمن

---

(١) فتوح البلدان، البلاذري: ج٢ ص٤٢٣، ح٨٥٧.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٣ ص٢٨٤.

رجمه [أي ماعزاً] فلمّا وجد مسّ الحجارة جزع جزعاً شديداً، فذكرنا ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قال: فهلاّ تركتموه، قال محمّد: فذكرت ذلك من حديثه حين سمعته ألا تركتموه لعاصم بن عمر بن قتادة، فقال لي: حدّثني حسن بن محمّد بن عليّ بن أبي طالب، قال: حدّثني ذلك من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ألا تركتموه لماعز بن مالك، من ثبت من رجال أسلم قبلا ولم أعرف وجه الحديث، فجئت جابر بن عبد الله فقلت: إنّ رجال أسلم يحدّثون أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قال لهم حين ذكروا جزع ماعز من الحرارة حين أصابته: فهلاّ تركتموه وما أتّهم القوم وما أعرف الحديث، قال: يا بن أخي أنا أعلم النّاس بهذا الحديث، كنت فيمن رجم الرّجل، إنّا لمّا خرجنا به فرجمناه، فوجد مسّ الحجارة صرخ بنا: يا قوم ردّوني إلي رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فإنّ قومي قتلوني وغرّوني من نفسي، وأخبروني أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) غيرُ قاتلي، فلم ننزع عنه حتى قتلناه، فلمّا ذهبنا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قال: فهلاّ تركتم الرّجل وجئتموني به فيتثبت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) منه، فأما ترك حدّ فلا، قال أبو عبد الرحمن: هذا الإسناد خير من الذي قبله، أخبرنا أحمد بن سعيد المروزيّ الرّباطي، قال: حدّثنا يعقوب، قال: حدّثنا أبو عون بن إسحاق، قال: حدثني محمّد بن إبراهيم عن أبي الهيثم بن نصر بن دهر الاسلمي عن أبيه، قال: اتى ماعز بن مالك رجلٌ منّا رسولَ الله (صلى الله عليه وسلّم)، ثمّ ذكر كلمة معناها، فأقرّ على نفسه بالزّنا، فأمرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) برجمه، فخرجنا به إلى حرّة بني دينار فرجمناه، فلمّا وجد مسّ الحجارة جزع جزعاً شديداً، فلما

فرغنا منه ورجعنا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ذكرنا له جزعه، قال فهلاّ تركتموه... .

... أخبرنا محمد بن المثنّى، قال: حدثني عبد الصمد، هو ابن عبد الوارث، قال: حدثنا زكريا بن سليم، قال: سمعت رجلاً يحدّث عمرو بن عثمان، أنّه سمع عبد الرّحمن بن أبي بكرة يقول: حدثني أبي، أنّه رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) على بغلته، إذ جاءته امرأة فقالت: إنّها قد بغت فأقم عليها، فقال لها: ارجعي فاستتري بستر الله، فأنشدت عليه ثلاثاً كل ذلك يقول لها: ارجعي فاستتري بستر الله، فأنشدته إلاّ أقام عليها الحدّ، فقال: امكثي حتى تضعي ما في بطنك: فذهبتْ ثمّ جاءتْ، فقالت: إنّي قد ولدت غلاماً، قال: فكفله رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ثم، قال لها: اذهبي حتّى تطهري، فذهبت ثمّ رجعت، فقالت: قد طهرت فأرسل معها نسوة فاستبرئن طهرها، ثمّ جئن فشهدْن عنده أنّها قد طهرت، فأمر بحفيرة إلى ثندوءتها، ثمّ جاء المسلمون معه فأخذ حصاة مثل الحمصة فرماها بها، ثم قال (صلى الله عليه وسلّم) للمسلمين: ارموها واتّقوا وجهها، فصلّى عليها، وقال: لو قسمت توبتها بين أهل الحجاز لوسعتهم»[1].

وقال ابن الأثير:

«عن زيد بن خالد وأبي هريرة، قالا: اختصم رجلان إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، فقال أحدهما: أنشدك الله لما قضيت بيننا بكتاب الله، وذكر قصّته، فقال فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، واغد يا أنيس

---

(١) السنن الكبرى، النسائي: ج٤ ص٢٩١ ـ ٢٩٢، ح٧٢٠٧ وح٧٢٠٨ وح٧٢٠٩.

على امرأة هذا، فان اعترفت ـ يعني بالزّنا ـ فارجمها، فغدا عليها فسألها، فاعترفت، فرجمها، وذكر هذا الحديث ابن منده وأبو نعيم»[١].

وفي عهد عمر:

في أسد الغابة:

«... بكر بن شداخ اللّيثيّ، وقيل بكير، كان يخدم النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم)، روى عنه عبد الملك بن يعلى اللّيثيّ أنّه كان ممّن يخدم النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) وهو غلام، فلما احتلم جاء إلى النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم)، فقال: يا رسول الله إنّي كنت أدخل على أهلك، وقد بلغت مبلغ الرّجال، فقال النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم): اللّهم صدّق قوله ولقّه الظّفر، فلمّا كان في خلافة عمر بن الخطاب جاء وقد قتل يهوديّاً، فأعظم ذلك عُمر وخرج وصعد المنبر وقال: أفيما ولاّني الله واستخلفني تُقتل الرّجال، أذكر الله رجلاً كان عنده علم إلاّ أعلمني، فقام إليه بكر بن الشّداخ، فقال: أنا به، فقال: الله أكبر بؤْتَ بدمه، فهات المخرج، فقال: بلى، خرج فلان غازياً ووكّلني بأهله، فجئت إلى بابه فوجدت هذا اليهوديّ في منزله وهو يقول:

وأشعث غرّه الإسلام منّي ... خلوت بعرسه ليل التّمام
أبيت على ترائبها ويُمسي ... على قود الأعنّة والحزام
كان مجامع الرّبلات منها ... فئامٌ ينهضُون إلى فئام

(قال) فصدّق عمر قوله وأبطل دمّه بدعاء النّبيّ (صلى الله عليه

(١) أسد الغابة، ابن الاثير: ج١ ص١٣٣.

وسلّم)»[(١)].

أقول: ههنا مسألتان لا بدّ من توضيحهما:

أمّا الأولى فتتعلّق بالشّهادة، إذ أنّ عمر الذي لم يكتف بشهادة أولئك النّفر في مسالة المغيرة بن شعبة، اكتفى ههنا بشهادة رجل واحد، وما دام قد صدّقه فلم لم يُذكر عن شريكة اليهوديّ في الزّنا شيء، وهي شرّ من اليهودي؟ أليست مسلمة محصنة زنت مع يهوديّ وزوجها غاز في سبيل الله؟ أضف إلى ذلك أنّ الشاهد هو القاتل نفسه،فاتّحد الشاهد والمشهود له في قضية جناية قتل. ولو اطّرد هذا لفسدت الأرض.

وأما الثانية فإنّهم يقولون عن الصّحابة إنّهم جميعاً عدول، وهذا يهوديّ يبيت في فراش مسلمة خرج زوجها غازياً في سبيل الله! فما رعتْ حُرمتَه ولا رعت حرمة خدمته للدّين، وباعت الإسلام بشهوة لحظات مع يهودي؟!

أيكون مجتمع يُخلف فيه المجاهد في سبيل الله بهذه الطريقة مجتمعاً ملتزما دينيّاً؟

وأيضا في زمان عمر:

«... المغيرة بن النعمان، عن مالك بن أنس، عن هانيء بن حرام، قال: كُتب إلى عمر بن الخطاب في رجل وجد مع امرأته رجلاً فقتله، فكتب في السّرّ: يعطي الدّية، وكتب في العلانية: يُقاد منه. قال يعقوب: أراد عمر أن يرهب بذلك..»[(٢)].

وفي صحيح مسلم:

---

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج١ ص٢٠٤.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٨ ص١٢٦.

«عن القاسم بن محمّد، عن ابن عبّاس، أنّه قال: ذُكر التّلاعن عند رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، فقال عاصم بن عديّ في ذلك قولاً، ثمّ انصرف فأتاه رجل من قومه يشكو إليه أنّه وجد مع أهله رجلاً، فقال عاصم: ما ابتُليت بهذا إلاّ لقولي، فذهب به إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فأخبره بالذي وجد عليه امرأته، وكان ذلك الرّجل مصفراً قليل اللّحم سبط الشّعر، وكان الذي ادّعى عليه أنّه وجد عند أهله خدلاً آدم كثير اللّحم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): اللّهم بيّن فوضعت شبيها بالرّجل الذي ذكر زوجُها أنّه وجده عندها، فلاعن رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بينهما، فقال رجل لابن عبّاس في المجلس: أهيَ التي قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) لو رجمت أحداً بغير بيّنة رجمتُ هذه، فقال ابن عبّاس: لا، تلك امرأة كانت تُظهر في الإسلام السّوء»[١].

وفيه أيضاً:

«محمّد بن المثنّى، حدّثنا عبد الأعلى، حدّثنا هشام، عن محمّد، قال: سألت أنس بن مالك وأنا أرى أنّ عنده منه علماً، فقال: إنّ هلال بن أميّة قذف امرأته بشريك بن سحماء، وكان أخا البراء بن مالك لأمّه، وكان أوّل رجل لاعن في الإسلام، قال: فلاعنها، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): أبصرُوها، فإنّ جاءت به أبيض سبطاً مضيء العينين فهو لهلال بن أميّة، وإن جاءت به أكحل جعداً حمش السّاقين فهو لشريك بن سحماء، قال: فانبئت أنها جاءت به أكحل جعداً حمش السّاقين»[٢].

---

(١) صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ج٤ ص٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٢) صحيح مسلم: ج٤ ص٢٠٩؛ مسند أحمد، أحمد بن حنل: ج٣ ص١٤٢.

وفي جمهرة خطب العرب: «قول الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام لعتبة بن أبي سفيان: وأمّا أنت يا عتبة فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك، وما عندك خير يُرجى ولا شرّ يُتقى، وما عقلك وعقل أمَتك إلاّ سواء، وما يضرّ عليّاً لو سببتَه على رؤوس الأشهاد، وأمّا وعيدك إيّاي بالقتل فهلاّ قتلتَ اللّحيانيّ، إذ وجدتَه على فراشك، أما تستحي من قول نصر بن حجّاج فيك.

يا للرّجال وحادث الأزمان ... ولسبّة تخزي أبا سفيان

نبئت عتبة خانه في عرسه ... جنس لئيم الأصل من لحيان

وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفُحشه فكيف يخاف أحد سيفَك ولم تقتلْ فَاضِحَكَ»[1].

المغيرة والنّساء:

وقال ابن كثير في تاريخه: «... وقال ابن وهب سمعت مالكاً يقول: كان المغيرة بن شعبة يقول: صاحب المرأة الواحدة يحيضُ معها ويمرضُ معها، وصاحب المرأتين بين نارين يشتعلان، وصاحب الأربع قرير العين، وكان يتزوّج أربعة معاً [كذا] ويطلقهنّ معاً، وقال عبد الله بن نافع الصائغ: أحصن المغيرة ثلاثمائة امرأة. وقال غيره ألف امرأة. وقيل مئة امرأة، وقيل ثمانين امرأة!!!»[2].

القدر المتيقّن من أقوالهم ثمانون امرأة، وإن كان المغيرة نفسه يقف عند

---

(١) جمهرة خطب العرب: ج٢ ص٢٢.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨ ص٤١.

السّتّين كما سيأتي، والحال أنّ أبغض الحلال إلى الله الطّلاق، والمغيرة لم يكن يبالي بطلاق أربع دفعةً واحدةً، وبلا سبب يدعو إليه. ترى ما يكون موقف امرأة من غير المسلمين مثقّفة باحثة تحدثها نفسها باعتناق الإسلام، وهي تطالع سلوك المغيرة صاحب ألف امرأة، وتقف بعد ذلك على أنّه مشهود له بالعدالة، وأنّه (رضي الله عنه) وأنّه من أهل الجنّة؟!

جاء في المعجم الكبير ما يلي:

«حدثنا الحسين بن إسحاق، حدثنا علي بن نصر، حدثنا أبو همام الصلت بن محمد الخاركي، حدثنا عبد الحميد بن عبد الرحمن بن فروة، حدثنا أبو عمران الجونيّ عن أبي فراس، رجل من أصحاب النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) عن المغيرة بن شعبة، قال: جئت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أريد النساء، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): ائت فلاناً فانظر إلى ما بهم، فإنّه أثبت للودّ، فإن رضيتَها أنكحتك، فأتاهم، فسلّم عليهم، فقال: أرسلني رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أمرك أن يروك إيّاي، قالت: نعم، فكشفت عن خدرها وقالت: أنظر فتزوّجتُها فما تزوّجت شيئا قطّ أحبّ إليّ منها ولقد تزوّجت ستّين امرأةً»[1].

وفي جمهرة خطب العرب: «من كلام الحسن بن عليّ عليهما السلام يردّ على المغيرة بن شعبة في مجلس معاوية: وأمّا أنت يا مغيرة فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه، وإنّما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنّخلة استمسكي فإنّي طائرة عنك، فقالت النّخلة، وهل علمت بك واقعة عليّ فأعلم بك طائرة عنّي، والله ما نشعر بعداوتك إيّانا ولا اغتممنا، إذ علمنا بها، ولا يشقّ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ج٢ ص٣٧٠.

علينا كلامُك، وإنّ حدّ الله في الزنّا لثابت عليك، ولقد درأ عمر عنك حقّاً الله سائله عنه، ولقد سألت رسول الله وآله هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوّجها، فقال: لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينْو الزّنا لعلمه بأنّك زان!»[1].

وفي بلاغات النساء: «... المدائني قال تزوّج المغيرة بن شعبة بامرأة ثم رحل عنها: فقيل لها كيف رأيته، فقالت عسيلة طائفية في ظرف خبيث»[2].

وفي سير الذّهبيّ:

«عاصم الأحول، عن بكر بن عبدالله، عن المغيرة بن شعبة، قال: لقد تزوّجت سبعين امرأة أو أكثر. أبو إسحاق الطالقاني: حدثّنا ابن المبارك قال: كان تحت المغيرة بن شعبة أربع نسوة. قال: فصفّهنّ بين يديه وقال: أنتنّ حسنات الأخلاق، طويلات الأعناق، ولكنّي رجل مطلاق، فأنتنّ الطلاق!!»[3].

وفيه أيضاً:

«قال ابن شوذب: أحصن المغيرة أربعاً من بنات أبي سفيان، وكان آخر من تزوّج منهنّ بها عَرَج»[4].

أقول: إنّ هذا يكشف عن تعلّق كبير بآل أبي سفيان، ولا يُستغرب بعد ذلك أن يوظّف المغيرة بن شعبة خطباء يسبّون عليّاًعليه السلام.

---

(١) جمهرة خطب العرب: ج٢ ص٣٠.

(٢) بلاغات النساء، ابن طيفور: ص١٠٤.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص٣١.

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص٣٠.

وفي المستطرف:

خطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة وكان شاباً جميلاً، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلمّا رأى المغيرة ذلك الشّابَّ وعايَنَ جمالَه، علم أنّها تُؤثره عليه فأقبل على الفتى، وقال: لقد أوتيت جمالاً فهل عندك غير هذا، قال: نعم فعدّد محاسنَه ثُمّ سكت، فقال له المغيرة: كيف حسابُك مع أهلك، قال: ما يخفى عليَّ منه شيء، وإنّي لأستدرك منه أدقّ من الخردل، فقال المغيرة، لكنّي أضع البدرة في بيتي فينفقها أهلي على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتّى يسألوني غيرها، فقالت المرأة: والله لَهذا الشّيخ الذي لا يحاسبني أحبُّ إليّ من هذا الذي يحصِي عليّ مثقال الذرّة، فتزوّجت المغيرة»[١].

وفيه أيضا:

«وقال المغيرة بن شعبة لم يخدعني غيرُ غلام من بني الحرث بن كعب، فإنّي ذكرتُ امرأةً منهم لأتزوّجها، فقال: أيّها الأمير لا خير لك فيها، فقلت ولمَ؟ قال: رأيت رجلاً يُقبّلها، فأعرضتُ عنها فتزوّجها الفتى، فلُمْتُه وقلت: ألم تخبرْني أنّك رأيت رجلاً يقبّلها، قال: نعم، رأيت أباها يُقبّلها»[٢].

ولا يخفي المغيرة خبرته بالنّساء، فقد أورد له ابن الأثير في النّهاية في غريب الحديث ما يكشف عن ذلك، ففيه: «ومنه حديث المنيرة إيّاك وكُلّ مَجْفَرَة مَبْخَرة يعنى من النّساء»[٣].

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: ج٢ ص٢٠٠.

(٢) نفس المصدر: ج٢ ص٢٠١.

(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج١ ص١٠١.

وفيه: «ومنه حديث المغيرة يصف امرأة كأنّها يُغاث»[١].

وفيه: «وفي حديث المغيرة إيَّاك وكلَّ مُجْفِرَة أي مُتَغيِّرة ريح الجسد،والفِعْل منه أجفر، ويجوز أن يكون من قولهم امرأة مُجْفِرَة الجَنْبَين: أي عَظيمتَهُما. وجفَر جَنْباه: إذا اتَّسَعا ،كأنه كَرِه السِّمَن»[٢].

وقوله: «ومنه حديث المُغيرة طَلاَقُها حَرِيبَة، أي: لَهُ مِنْها أوْلاد إذا طَلَّقَها حُرِبُوا وفُجعُوا بهَا ، فكَأنَّهُم قد سُلبوا ونُهبُوا»[٣].

وقوله: «وفي حديث المغيرة كأنّه أمةٌ مُخَرَبَة، أي: مَثْقُوبة الأُذُن وتلك الثُّقْبَة هي الخُرْبَة»[٤].

وقوله: «وفي حديث المُغيرة حملُها رِبابُ رِبابُ المَرأة حِدْثانُ ولادَتِها، وقيل: هو ما بين أن تضعَ إلى أن يأتيَ عليها شَهْران، وقيل: عِشْرون يوماً يُريد أنّها تحمل بعد أن تلد بيَسير، وذلك مذمُومٌ في النِّساء، وإنّما يُحْمَد أن لا تَحْمل بعد الموضع حتى تُتمَّ رَضَاع ولَدها»[٥].

وفيه: «وفي حديث المغيرة مَليلَة الإرْغاء، أي: مَملُولَة الصَّوت يَصفُها بكَثْرة الكلام ورفع الصَّوت حتى تُضْجر السَّامعين شبه صوتَها بالرُّغَاء، أو أراد إزْبَاد شدْقيها لكثرة كلامها من الرُّغْوة الزَّبَد»[٦].

وفيه: «ومنه حديث ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي

(١) المصدر نفسه: ج١ ص١٤٣.
(٢) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج١ ص٢٧٨.
(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج١ ص٣٥٨.
(٤) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج٢ ص١٨.
(٥) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج٢ ص١٨١.
(٦) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج٢ ص٢٤٠.

عَلَى اسْتِحْيَاء﴾ قل ليسَت بسَلْفَع وحديث المغيرة فَقْماءُ سَلْفَع»[١].

وفيه: «وقيل هو الذي في أنامله غِلَظٌ بلا قصر ويُحمَد ذلك في الرّجال، لأنّه أشدُّ لقَبْضِهم ويُذَمُّ في النّساء ومنه حديث المغيرة شَثْنة الكَف، أي: غَليظته»[٢].

وفيه: «ومنه حديث المغيرة "فَضَلٌ ضَباث"، أي: مُخْتالة مُعْتقِلَة بكُلِّ شيءٍ مُمْسكةٌ له. هكذا جاء في رواية. والمشهورُ "مِثْناث": أي تَلد الإناثَ»[٣].

وفيه: «في حديث المُغيرة "عارية الظُّنْبُوب" هو حَرْف العَظْم اليابسُ من السّاق؛ أي: عَرِيَ عَظْمُ ساقها من اللحم لهُزالها»[٤].

وفيه: «ومنه حديث المغيرة لا تُحَرِّم العَيْفَةُ ، قيل: وما العَيْفَة قال: المرأةُ تَلد فيخصَرُ لبَنُها في ضَرْعها فتُرْضِعُه جارَتَها»[٥].

وفيه: «ومنه حديث المُغيرة ولا غَرِيَبة نَجِيبَة أي أنّها مع كونها غريبة فإنّها غيرُ نَجيبَة الأولاد»[٦].

وفيه: «وفي حديث المغيرة في صفة امرأة فضل ضباثٌ، كأنّها بغاث وقيل: أراد أنّها مختالة تفضل من ذيلها»[٧].

وفيه: «وحديث المغيرة يَصِف امْرأة: فقماء سلفع الفقماء: المائله الحنك.

---

(١) النهاية في غريب الحديث: ج٢ ص٣٩١.
(٢) النهاية في غريب الحديث: ج٢ ص٤٤٤.
(٣) النهاية في غريب الحديث: ج٣ ص٧١.
(٤) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج٣ ص١٦٢.
(٥) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج٣ ص٣٣٠.
(٦) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج ٣ ص٣٤٨.
(٧) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج ٣ ص٤٥٦.

وقيل: هو تقدّم الثّنايا السّفلى حتى لا تقع عليها العليا. والرّجُل افقم. وقد فقم يفقم فقما»[١].

وفيه: «ومنه حديث المغيرة دائمة القُطوب، أي: العُبوس يقال قَطَب يَقْطِب قُطوباً وقد تكرّر في الحديث»[٢].

وفيه: «وفي حديث المغيرة تأكل لمًّا وتُوسِعُ ذَمًّا أي تأكل كثيراً مجتمعاً»[٣].

وفيه: «وفي حديث المغيرة مَليلَةُ الإرغاء أي مملولة الصوت فعيلةٌ بمعنى مفعولةٍ يصفها بكثرة الكلام ورفع الصّوت حتى تُملَّ السّامعين»[٤].

وفيه: «وفي حديث المغيرة مُنْتَفِخة الوَريد هو العِرْق الذي في صفحة العُنُق ينْتَفِخ عِند الغَضَب وهُما ورِيدان يَصِفُها بِسوءِ الخُلقِ وكَثْرة الغَضَب»[٥].

هذا بعض ما وَصَلَنا من وصف المغيرة بن شعبة للنّساء، وهو وصف دقيق ربّما عجزت النّساء عن مثله. لكن المغيرة دقيق في الملاحظة، ولعلّ ذلك لحاجة في نفسه؛ وحسبك أنّه كان يتزوّج أربعاً، ثُمّ يطلّقهنّ دفعة واحدةً.

ونعود إلى أخبار المغيرة، قال الذهبي:

---

(١) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج٣ ص٤٦٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج

(٣) نهاية غريب الحديث: ج٤ ص٢٧٣.

(٤) نهاية غريب الحديث: ج٤ ص٣٦٢.

(٥) النهاية في غريب الحديث: ج٥ ص٧٣.

«... حسين بن حفص، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنّ عمر استعمل المغيرةَ بن شعبة على البحرين، فكرهوه، فعزله عمر، فخافوا أن يردّه. فقال قائلهم: إن فعلتم ما آمركم لم يردّه علينا. قالوا: مُرْنا. قال: تجمعون مئة ألف حتى أذهب بها إلى عمر، فأقول: إنّ المغيرة اختان هذا، فدفعه إليّ. قال فجمعوا له مئة ألف، وأتى عمر، فقال ذلك. فدعا المغيرة، فسأله، قال: كذب أصلحك الله، إنّما كانت مائتي ألف، قال: فما حملك على هذا؟ قال: العيال والحاجة. قال: عمر للعلج: ما تقول؟ فقال: لا والله لا صدقنك ما دفع إليّ قليلاً ولا كثيراً. قال: عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا؟ فقال: الخبيث كذب عليّ، فأحببت أن أخزيَه»[1].

لقد اضطرّ أهل البحرين إلى الحيلة، لأنّهم يعلمون أنّ للمغيرة عند عمر منزلة فجوّزوا لأنفسهم الاجتماع والتّواطؤ على الكذب كي يتخلّصوا منه، وأهل زمانه أدرى به. وإنّ أميرا يضطرّ أمّة إلى الكذب لأميرُ سوء.

قال الذهبي: «وعن الحسن، أنّ المغيرة بن شعبة، أشار على معاوية ببيعة ابنه ففعل. فقيل له: ما وراءك؟ قال: وضعتُ رجل معاوية في غرز غي لا يزال فيه إلى يوم القيامة، قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء أولادهم، ولولا ذلك لكانت شورى»[2].

لقد لقيهم بوجه غير الذي لقي به معاوية، ولا ضرورة لذلك، ولا يكون ذو الوجهين عند الله وجيهاً.

وأعجب منه أنّ المغيرة يروي حديثاً في الغَيرة:

---

(١) سير أعلام النّبلاء، الذهبي: ج٣ ص٢٦ـ ٢٧.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٤ ص٣٩.

في مسند أحمد: «حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد، حدثنا أبو عوانة، عن عبد الملك، عن وراد كاتب المغيرة، عن المغيرة بن شعبة، قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسّيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فقال، أتعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه، والله أغيرُ منّي، ومن أجل غيرة الله حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله ولا شخص أحبّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشّرين ومنذرين ولا شخص أحبّ إليه مدحه من الله من أجل ذلك وعد الله الجنّة»[1].

وكان عُمر إذا رأى المغيرة، قال: يا مغيرة! ما رأيتك قطّ إلا خشيت أن يرجمَني الله بالحجارة. وكان بالبصرة من أصحاب رسول الله ثمانية وستّون رجلاً[2]. ولكي يدفع المغيرة عن نفسه ويبرئ ساحة من درأ عنه الحدّ بغير حقّ، كان لابدّ له من قول في ذلك. وهو ما جاء في فضائل الصّحابة «قال أبو عبد الرّحمن: أخبرت أنّ المغيرة بن شعبة ذكر عمر بن الخطّاب، فقال: كان والله أفضل من أن يَخدع وأعقل من أن يُخدع»[3].

وأمّا الصّحابيّ أبوبكرة فإنّه امتنع من الرّجوع عن شهادته، حينما هدّده عمر بعدم قبول شهادته إذا لم يتب، وهذا ما أورده الذهبيّ بخصوص هذه القضيّة عليه السلام قال الذهبيّ:

«[قال البيهقيّ في سننه إن صحّ هذا، فلأنّه امتنع من التّوبة من قذفه، وأقام على ذلك. قلت: كأنّه يقول: لم أقذف المغيرة وإنّما أنا شاهد، فجنح إلى

(١) مسند حمد بن حنبل: ج٤ ص٢٤٨.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ج٤ ص٢٤٨.
(٣) فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ج١ ص٣٢٧.

الفرق بين القاذف والشّاهد، إذ نصاب الشّهادة لو تمّ بالرابع لتعيّن الرّجم، ولذا سُمّوا قاذفين. قال أبو كعب صاحب الحرير: حدّثنا عبد العزيز بن أبي بكرة أنّ أباه تزوّج امرأة، فماتتْ فحال إخوتها بينه وبين الصّلاة عليها، فقال: أنا أحقّ بالصّلاة عليها، قالوا صدق صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم). ثم إنّه دخل القبر، فدفعوه بعنف، فغشي عليه، فحمل إلى أهله، فصرخ عليه عشرون من ابن وبنت، وأنا أصغرهم، فأفاق فقال: لا تصرخوا فوالله ما من نفس تخرج أحبّ إليّ من نفسي، ففزع القوم، وقالوا: لمَ يا أبانا؟ قال: إني أخشى أن أُدْرِكَ زماناً لا أستطيعُ أن آمر بمعروف ولا أنهى عن منكر، وما خير يومئذ.]»[1].

فالرّجل أصبح ممقوتاً، لأنّ الدّولة نقمت عليه، ويفرح بالموت مخافة أن يعجز عن النّهي عن المنكر فيموت قلبُه. والنّاس على دين ملوكهم، وإلاّ فإن صفحته بيضاء، ومن ترجم له من علماء الرّجال ضمّن ترجمته أنّه من فضلاء الصّحابة وصالحيهم. ولكن هل يجديه ذلك وليس معه موافقة للحاكمين؟

قال ابن شبّة في تاريخ المدينة:

«قال عبد العزيز: توفّيت صفيّة فدفنت في آخر الزّقاق الذي يخرج إلى البقيع، عند باب الدار التي يقال لها دار المغيرة بن شعبة التي أقطعه عثمان بن عفّان (رضي الله عنهما)، لازقاً بجدار الدّار ـ قال عبد العزيز: فبلغني أنّ الزّبير بن العوّام جاز بالمغيرة وهو يبني داره، فقال: يا مغيرة، ارفع مطمرك

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص٧.

عن قبر أمّي. فأدخل المغيرة جداره، فالجدار اليوم منحرف فيما بين ذلك الموضع وبين باب الدّار ـ قال عبد العزيز: وقد سمعت من يذكر أنّ المغيرة بن شعبة أبى أن يفعل ذلك، لمكانه من عثمان[!]، فأخذ الزّبير السّيف ثمّ قام على البناء، فبلغ الخبر عثمان، فأرسل إلى المغيرة يأمره بالمصير إلى ما أمره به الزّبير، ففعل»(١).

وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه ما نصه: «... أنبأنا ابن بكير عن اللّيث بن سعد، قال: حجّ بالنّاس سنة أربعين المغيرة بن شعبة، وذلك أنّ المغيرة كان معتزلاً بالطّائف، فافتعل كتاباً بإمارة الموسم عام الجماعة، فقدّم الحجّ يوماً خشية أن يجيء أمير فتخلّف عنه ابن عمر، وصار عظم النّاس مع ابن عمر، قال نافع: فلقد رأيتنا ونحن غادون من منى واستقبلونا مفيضين من جمع وأقمنا، وبعدهم ليلة بمنى»(٢).

لمْ يتورع المغيرة عن افتعال كتاب لا وجود له، ولم يلتزم بتعظيم حرمات الله، فقدّم الحجّ وخالفه ابن عمر، وهو من هو عند أتباعه. وهذا موضع حيرة لمن يعتقد بحجّيّة عمل الصحابيّ. وأين فعل المغيرة من الأمانة؟!

ومع ذلك يراه عمر أهلا ليكون والياً على المسلمين، الذين شهدوا تنزّل الوحي أيّام كان يخدم اللاّت!

إنّ عمر لم يكن يهمّه الدّين والورع في اختيار من يولّيهم، لذلك تراه ولّى الطّلقاء وأبناء الطّلقاء، والمشهود عليهم بالزّنا من طرف الصّحابة. وسيتضّح إن شاء الله تعالى أنّ أبا بكرة كان من أورعهم وأعبدهم بشهادة

(١) تاريخ المدينة، ابن شبة النميري: ج١ ص١٢٦.

(٢) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج١ ص٢٠٥.

كبارهم وفضلائهم، وأنّ شهادته على المغيرة كانت في محلّها، ولم يكن يعلم أنّ رفع دعوى ضدّ المقرّبين من الدّولة لا يجدي.

قال ابن عساكر:

«... قال ابن عون: فلا أدري أين بلغوا ثمّ رجعوا فقعدوا ناحية، فقالوا: لا يكلّمنا أحد ولا يدْنُوَنّ منّا أحد، فأرسل إليهم المغيرة فأتاهم، فقالوا: لا تدنونّ منّا يا أعور، لا تكلّمنا يا أعور، فأتى ابنَ عفّان، فقال: إنّي رأيت قوماً ألجّ من العرب، فلو خرجت في كتيبتك فعسى أن يروها فيرجعوا، فخرج ابنُ عفّان في كتيبته فانسلّ من أولئك رجل ومن هؤلاء رجل، فانطلقا بسيفيهما فحانت منه التفاتة، فقال: في بيعتي وتأميري، فرجع فدخل الدّار، فما أعلمه خرج بعد ذلك اليوم حتّى قُتل»[1].

ويزعم المغيرة أنّه اعتزل الفتنة، فهل صدق في دعواه العزلة؟

قال نصر بن مزاحم:

«... وأتاه المغيرة بن شعبة وكان مقيماً بالطّائف، لم يشهد صفّين. فقال: يا مغيرة ما ترى؟ قال: يا معاوية، لو وسعني أن أنصرك لنصرتك، ولكن عليّ أن آتيك بأمر الرّجلين. فركب حتّى أتى دومة الجندل فدخل على أبي موسى كأنه زائر له، فقال: يا أبا موسى، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدّماء؟ قال: أولئك خيار النّاس خفّت ظهورهم من دمائهم، وخمصت بطونهم من أموالهم. ثم أتى عمْراً فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في من اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدّماء؟ قال: أولئك شرار النّاس، لم يعرفوا حقّاً

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٩ ص٣٢٥.

ولم ينكروا باطلا. فرجع المغيرة إلى معاوية فقال له: قد ذقت الرّجلين، أما عبد الله بن قيس فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر وهواهُ في عبد الله بن عمر. وأما عمرو فهو صاحبك الذى تعرف، وقد ظنّ النّاس أنّه يرومها لنفسه، وأنّه لا يرى أنّك أحقّ بهذا الأمر منه»[(١)].

أليس المغيرة مبعوثاً من طرف معاوية ليمارس التجسّس في قضيّة حسّاسة فتحتْ على المسلمين باب فتنة لا يزال مفتوحاً إلى اليوم؟ أيُسمّى مثل هذا معتزلاً للفتنة والقتال، وهو في قلب المسألة يطّلع على ما لا يطّلع عليه المقاتلون الذين يعرّضون أنفسهم للموت؟! هل كان معاوية يعرف ما انطوى عليه صدر أبي موسى الأشعريّ لولا التّقرير السرّيّ الذي رفعه المغيرة؟

قال الطبري:

«وكانوا يعدون دهاة النّاس حين ثارت الفتنة خمسة رهط، فقالوا ذوو رأى العرب ومكيدتهم معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وقيس بن سعد، ومن المهاجرين عبد الله بن بديل الخزاعيّ، وكان قيس وابن بديل مع عليّ عليه السلام وكان المغيرة بن شعبة وعمرو مع معاوية، إلاّ أنّ المغيرة كان معتزلاً بالطّائف حتى حكم الحكمان فاجتمعوا بأذرح»[(٢)].

وحينما يحاول الدّاهية مخادعة الدّاهية ينقلب السّحر على السّاحر ويجد المغيرة نفسه في وضعيّة مُزرية. قال الطّبريّ في تاريخه:

---

(١) وقعة صفين، ابن مزاحم المنقري: ص٥٣٩.

(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج٤ ص١٢٥.

«حدثني عبد الله بن محمّد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني سليمان، قال: حدثني عبدالله، عن معمر، عن جعفر بن برقان، أنّ المغيرة كتب إلى معاوية: أمّا بعد، فإنّي قد كبرت سنّي ودقّ عظمي وشنفت لي قريش، فإن رأيت أن تعزلني فاعزلني. فكتب إليه معاوية، جاءني كتابك تذكر فيه أنّه كبرت سنّك، فلعمري ما أكل عمرك غيرُك، وتذكر أنّ قريشاً شنفت لك، ولعمري ما أصبت خيراً إلاّ منهم، وتسألني أن أعزلك فقد فعلتُ، فإن تك صادقاً فقد شفّعتك وإن تكُ مخادعاً فقد خدعتُك»[1].

وقال الطّبري:

«واستعمل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة، فأتاه المغيرة بن شعبة وقال لمعاوية: استعملت عبد الله بن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر، فتكون أنت بين لحيي الأسد، فعزلَه عنها واستعمل المغيرةَ بن شعبة على الكوفة، وبلغ عمراً ما قال المغيرة لمعاوية، فدخل عمرو على مُعاوية فقال: استعملت المغيرةَ على الكوفة، فقال، نعم، فقال: أجعلتَه على الخراج، فقال: نعم، قال: تستعمل المغيرةَ على الخراج فيغتالُ المالَ فيذهب فلا تستطيع أن تأخذ منه شيئاً، استعملْ على الخراج من يخافُك ويهابُك ويتّقيك، فعزلَ المغيرةَ عن الخراج واستعمله على الصّلاة، فلقي المغيرةُ عمراً فقال: أنت المُشير على أمير المؤمنين بما أشرتَ به في عبد الله، قال: نعم، قال: هذه بتلك، ولم يكن عبد الله بن عمرو بن العاص مضى فيما بلغني إلى الكوفة، ولا أتاها»[2].

---

(١) تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٤٥.

(٢) تاريخ الطيبري، الطبري: ج٤ ص١٢٧.

ثم هاهو في قلب الفتنة يشارك في الهجوم على بيت بضعة رسول الله ﷺ وروحه التي بين جنبيه.

قال السيّد جعفر مرتضى العامليّ (الشيعي):

«فقد ذكر لنا التاريخ أسماء عدد من المهاجمين، مثل: أبي بكر،عمر، قنفذ، أبي عبيدة بن الجراح، سالم مولى أبي حذيفة، المغيرة بن شعبة، خالد بن الوليد، عثمان، أسيد بن حضير، معاذ بن جبل، وعبد الرحمان بن عوف، وعبد الرحمان بن أبي بكر، ومحمد بن مسلمة،ـ وهو الذي كسر سيف الزبيرـ وزيد بن أسلم، وعياش بن ربيعة، وغيرهم»[1].

وحين البحث عن هذه المسألة في كتب التاريخ لا يجد الباحث إلا مصادر شيعية تحدثت عنها، كما هو شأن كتاب الاحتجاج للطبرسي وبيت الأحزان للشيخ عباس القمي. فقد روى الطبرسي في الاحتجاج:

«وأما أنت يا مغيرة بن شعبة! فإنك لله عدو، ولكتابه نابذ، ولنبيه مكذب، وأنت الزاني وقد وجب عليك الرجم، وشهد عليك العدول البررة الأتقياء، فأُخّر رجمك ودُفع الحق بالأباطيل، والصدق بالأغاليط، وذلك لما أعد الله لك من العذاب الأليم والخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، وأنت الذي ضربت فاطمة بنت رسول الله ﷺ حتى أدميتها وألقت ما في بطنها، استذلالاً منك لرسول الله ﷺ ومخالفة منك لأمره، وانتهاكاً لحرمته،

---

(١) مأساة الزهراء عليها السلام، السيد جعفر مرتضى العاملي: ج١ ص٢٢٦. هذا الاستشهاد هنا من باب الضرورة، فإنّ كتب الجمهور تكتّمت في هذه المسألة وذهبت مذاهب لا يسوغ لي طرحها بين يدي القارئ الكريم، والهجوم على بيت فاطمة عليها السلام ثابت عند الفريقين، وتفاصيله عتّم عليها الجمهور وحفظها الشيعة، ومن حفظ حجّة على من لم يحفظ.

وقد قال لها رسول الله ﷺ: "يا فاطمة أنت سيدة نساء أهل الجنة"، والله مصيّركَ إلى النار، وجاعلٌ وبال ما نطقت به عليك»[١].

لا عجب في ذلك، لأنّ الذين كتبوا التاريخ راعوا مبانيهم، كما ينبغي، فلم يكتبوا إلاّ ما لا يضرّ العامّة سماعُه، وأفلتت منهم أمورٌ فوجدوا لها من التّأويل والتّوجيه ما لا غرابة فيه لمن عرف دَيْدَنهم. فالنّصّ الموجود في جمهرة خطب العرب[٢] يشبه إلى حدّ بعيد النّصّ الموجود في كتاب الاحتجاج ... وإذا كان النّظّام يرى أنّ عمر ضرب فاطمة فلا عجب أن يضربها المُغيرة أيضاً.

ولا بأس هنا من التّذكير بموقف عمر من قضيّة مشابهة لقضيّة الزّهراء عليها السلام حكم فيها عُمر بخلاف ما قضى به سلفُه في حقّ فاطمة عليها السلام:

قال ابن الجوزي في المنتظم: «... ابن سعد أخبرنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا ابن عون عن محمّد، قال: توفّي أبوبكر (رضي الله عنه) وعليه ستّة آلاف درهم كان أخذها من بيت المال، فلمّا حضرته الوفاة قال: إنّ عمر لم يدعْني حتى أصبت من بيت المال ستّة آلاف درهم، وإنّ حائطي بمكان كذا وكذا فيها، فلما توفّي ذكر ذلك لعُمر، فقال: يرحم الله أبا بكر لقد أحبّ ألا يدع لأحد بعده مقالاً، وأنا والي الأمر من بعده وقد رددتُها عليكم»[٣].

وبنفس اللّفظ في تاريخ دمشق: «قال: وحدّثنا ابن سعد، أخبرنا يزيد بن هارون، أنبأنا ابن عون عن محمّد، قال: توفّي أبوبكر الصدّيق وعليه ستّة

(١) الاحتجاج، الطبرسي (الشيعي): ج١ ص٤١٣.
(٢) جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت: ج٢ ص٢٢.
(٣) المنتظم، ابن الجوزي: ج٤ ص١٢٧.

آلاف درهم كان أخذها من بيت المال، فلمّا حضرته الوفاة، قال: إنّ عمر لم يدعني حتّى أصبت من بيت المال ستّة آلاف درهم، وإنّ حائطي الذي بمكان كذا وكذا فيها، فلمّا توفّي ذكر ذلك لعُمر، فقال: يرحم الله أبا بكر لقد أحبّ أن لا يدع لأحد بعده مقالاً وأنا والي الأمر بعده، وقد رددتها عليكم»(١).

أقول: أما كان في وسع الخليفة الأوّل أن يصنع ما صنع وصيّه من بعده؟ وكلّ هذا العناء الذي تحمّله رسول اللهﷺ في سبيل تبليغ الرّسالة، ثمّ يحرم من حقّ معترف به لبني آدم من كلّ الشّرائع والملل؟ يقول عمر: وأنا والي الأمر بعده ويسمح لنفسه بموجب ذلك أن يردّ على آل أبي بكر الحائط الذي كان تحت أيديهم، فلم لا يكون كذلك مع بضعة المصطفىﷺ؟ ويل للمطفّفين الذين إذا اكتالوا يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظنّ أولئك أنّهم مبعوثون ليومٍ عظيم؟

وروى الطبري

«... أنّ معاوية بن أبى سفيان لمّا ولّى المغيرة بن شعبة الكوفة في جمادى سنة ٤١ دعاه فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أمّا بعد فإنّ لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا، وقد قال المتلمّس لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا، وما علم الإنسان إلاّ ليعلما، وقد يجزي عنك الحكيم بغير التعلّم، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضينى ويسعد سلطاني ويصلح به رعيّتي، ولست تاركاً إيصاءك بخصلة لا تتحمّ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٠ ص٤٢٩.

عن شتم عليّ وذمّه والترحّم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب عليّ، والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم، وبإطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه، والإدناء لهم والسّماع منهم. فقال المغيرة قد جرّبت وجرّبت وعملت قبلك لغيرك فلم يذمم بي دفع ولا رفع ولا وضع فستبلو فتحمد أو تذمّ ثمّ قال بل نحمد إن شاء الله»[1].

وفي مسند أحمد بن حنبل:

«... وراد كاتب المغيرة، قال: كتب معاوية إلى المغيرة أن اكتب إليّ بشيء سمعته من رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فقال: كان إذا صلّى ففرغ، قال لا إله إلا الله وأظنّه قال: وحده لا شريك له له، الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، اللهمّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ»[2].

أما كان المغيرة ومعاوية جميعاً حاضرين يوم الغدير، حيث رسول الله ﷺ ينادي أمام الألوف المؤلّفة من المسلمين: من كنت مولاه فعليّ مولاه؟فما بالهما قد تصافقا على لعنه على المنابر، ووظّفا لذلك من لا حريجة له في الدّين؟

وفي البيان والتبين:

«وجلس معاوية (رضي الله تعالى عنه) بالكوفة يبايع على البراءة من عليّ بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه، فجاءه رجل من بني تميم فأراده على

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٤ ص١٨٨.

(٢) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٤ ص٢٤٧.

ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين نطيع أحياءكم ولا نبرأ من موتاكم، فالتفت إلى المغيرة فقال إنّ هذا رجل فاستوص به خيراً»[1].

نعم، جلس رسول الله ﷺ يوم الغدير يبايع على ولاية علي عليه السلام، وجلس معاوية بالكوفة يبايع على البراءة من علي عليه السلام، وكلاهما على صواب وعلى ملّة واحدة! فاعتبروا يا أولي الأبصار!

وفي جمهرة خطب العرب:

«ثمّ تكلّم المغيرة بن شعبة فشتم علياً، وقال: والله ما أعيبه فى قضية يخون ولا فى حكم يميل ولكنّه قتل عثمان»[2].

يقول المغيرة ذلك وهو أعلم النّاس ببراءة علي عليه السلام من كلّ ما ينسب إليه. ففي تاريخ الطّبري: «... عن شعيب عن سيف عن المجالد عن الشّعبيّ عن المغيرة بن شعبة قلت لعليّ: إنّ هذا الرّجل مقتول، وإنّه إن قتل وأنت بالمدينة اتخذوا فيك فاخرج فكن بمكان كذا وكذا، فإنّك إن فعلت وكنت في غار باليمن طلبك النّاس فأبى وحصر عثمان اثنين وعشرين يوماً ثمّ أحرقوا الباب وفي الدّار أناس كثير، فيهم: عبدالله بن الزّبير ومروان...»[3].

إنّ المغيرة سمع حديثاً كثيراً من رسول الله ﷺ في فضائل أهل البيت عليهم السلام ولكن يمنعه من ذكرها دناءة نفسه وخسة طبعه، وما دام النبي ﷺ قد قال لعلي عليه السلام: لا يبغضك إلاّ منافق أو ابن زنا، وقد ثبت بغض المغيرة لعلي عليه السلام فلاغرابة مما يصدر من المغيرة، وإنّما الغرابة ممّن

---

(١) البيان والتبين، الجاحظ: ج١ ص٢٦٦.

(٢) جمهرة خطب العرب: ج٢ ص٢٢.

(٣) تاريخ الطبري: ج٢ ص٤٢٢.

يتولاّه بعد ما بان منه ما بان...

والمغيرة هذا هو الذي أشار على معاوية باستخلاف ابنه يزيد[١].

وفي تاريخ اليعقوبي:

«... فلما بلغ أهل الكوفة الخبر خرج كثير من النّاس إلى عبد الله بن عامر، فجعل المغيرة لا يسأل عن أحد إلاّ قيل له قد خرج إلى عبد الله بن عامر حتى سأل عن كاتبه، فقيل له، قد لحق بعبد الله، فقال: يا غلام شدّ رحلي وقدّم بغلي، فخرج حتّى أتى دمشق فدخل على معاوية، فلما رآه قال: ما أقدمك يا مغيرة، تركت العمل وأخللت بالمصر وأهل العراق، وهم أسرع شيء إلى الفتن، قال: يا أمير المؤمنين كبرت سنّي وضعفت قوّتي وعجزت عن العمل، وقد بلغت من الدنيا حاجتي، والله ما آسى على شيء منها إلاّ على شيء واحد، قدّرت به قضاء حقّك، ووددت أنّه لا يفوتني أجلي أنّ الله أحسن عليه معونتي، قال: وما هو، قال: كنت دعوت أشراف الكوفة إلى البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بولاية العهد بعد أمير المؤمنين، فأجابوا إلى ذلك ووجدتهم سراعاً نحوه، فكرهت أن أُحْدث أمراً دون رأي أمير المؤمنين، فقدمت لأُشافهَه بذلك وأستعفيَه من العمل، فقال: سبحان الله، يا أبا عبد الرّحمن، إنّما يزيد ابن أخيك، ومثلك إذا شرع في أمر لم يدعْه حتى يُحكمَه، فنشدتك الله إلاّ رجعت، فتمّمْت هذا، فخرج من عنده، فلقي كاتبَه، فقال: ارجع بنا إلى الكوفة، فو الله، لقد وضعتُ رجْل معاوية في غرز لا يخرجها منه إلا سفكُ الدّماء وانصرف إلى الكوفة»[٢].

---

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨ ص٦٤؛ وأكثر تفصيلاً في الإمامة والسياسة، ابن قتيبة: ج١ ص١٨٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص٢١٩ ـ ٢٢٠.

والقصّة في الكامل بلفظ مختلف، قال ابن الأثير: «ذكر البيعة ليزيد بولاية العهد: وفي هذه السنة [أي: سنة ٥٦] بايع النّاس يزيد بن معاوية بولاية عهد أبيه وكان ابتداء ذلك وأوّله من المغيرة بن شعبة، فإنّ معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضَهُ سعيدَ بن العاص فبلغه ذلك، فقال: الرّأي أن أشخص إلي معاوية فأستعفيَه ليظهرَ للنّاس كراهتي للولاية، فسار إلى معاوية، وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أُكسبكم الآن ولايةً وإمارةً لا أفعل ذلك أبداً، ومضى حتّى دخل على يزيد، وقال له: إنّه قد ذهب أعيان أصحاب النّبيّ وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنّما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسّنّة والسّياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة! قال: أوترى ذلك يتمّ، قال: نعم، فدخل يزيد علي أبيه وأخبره بما قال المغيرة، فأحضر المغيرة، وقال له ما يقول يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدّماء والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف فاعقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفاً للنّاس وخلفاً منك، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة، قال: ومن لي بهذا، قال: أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك، قال: فارجع إلي عملك وتحدّث مع من تثق إليه في ذلك، وترى ونرى فودّعه ورجع إلي أصحابه فقالوا: مه؟ قال: لقد وضعتُ رجْل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمّة محمّد وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبدا»[1].

«وتمثل

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٣ ص٣٤٩ـ ٣٥٠.

بمثلي شاهدي النَّجوى وغالي بـي الأعـداء والخـصم الغـضابا

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة، وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنّه شيعة لبني أميّة أمر يزيد، فأجابوا إلي بيعته، فأوفد منهم عشرة، ويقال أكثر من عشرة، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة، وقدموا على معاوية فزيّنوا له بيعة يزيد ودعوهُ إلي عقدها؛ فقال معاوية لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم. ثُمّ قال لموسى: بكَم اشترى أبوك من هؤلاء دينَهم؟ قال: بثلاثين ألفاً. قال: لقد هانَ عليْهم دينهم. وقيل أرسلَ أربعين رجلاً وجعل عليهم ابنَه عُروة، فلمّا دخلوا على معاوية قاموا خطباء، فقالوا: إنّما أشخصهم إليه النّظر لأمّة محمّد، وقالوا: يا أمير المؤمنين كبرت سنّك وخفْنا انتشارَ الحبْل فانصبْ لنا علَماً وحُدّ لنا حداً ننتهي إليه، فقال: أشيروا علي، فقالوا: نشير بيزيد ابن أمير المؤمنين، فقال: أوَ قَدْ رضيتمُوه، قالوا: نعم، قال: وذلك رأيكم، قالوا: نعم، ورأيُ مَن وراءنا! فقال معاوية لعروة سراً عنهم: بكَم اشتري أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة دينار، قال: لقد وجد دينَهم عندهم رخيصاً! وقال لهم:ننظرما قدمتم له ويقضي الله ما أراد، والأناةُ خيرٌ من العجلة»[1].

يقول المغيرة بن شعبة ليزيد بن معاوية، شرّ خلق الله: «إنّه قد ذهب أعيان أصحاب النّبيّ وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم وإنّما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسّنّة والسّياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة»، فمتى كان يزيد بن معاوية من

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٣ ص٥٠٥.

أفضلهم وأحسنهم رأياً، وأعلمهم بالسّنّة والسّياسة؟! وهل هتكَ حُرمة الإسلام إلاّ يزيد وأبوه والممهّدون لهما؟ وكيف يقبل عاقل من أهل القبلة أن يجعل يزيد في صفّ واحد مع سيد شباب أهل الجنّة؟!

لكنّ الحسين بن عليّ عليهما السلام، المطهّر بنصّ الكتاب العزيز يشهد على يزيد بخلاف ذلك، قال ابن الأثير في الكامل: «ثم إنّ الحسين خطبهم فحمد الله وأثني عليه، ثم قال: "أيّها النّاس إنّ رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحُرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفا لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعُدوان، فلم يغيّر عليْه بفعْل ولا قوْل، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشّيطان وتركوا طاعة الرّحمن، وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيري..."»[1].

هذه شهادة الحسين بن عليّ عليهما السلام، وتلك شهادة المُغيرة بن شُعبة الذي كان يتبجّح بأنّه أوّل من رشا في الإسلام، وليس من كان مؤمناً كمن كان فاسقاً. ولله عاقبة الأمور.

المغيرة والرّشوة:

وقد علم المسلمون أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لعن صريحاً الرّاشيَ والمُرتَشي ... .

ويشهد المغيرة على نفسه أنّه أوّل من رشا في الإسلام:

قال ابن حجر:

«وقال البغويّ: حدّثني حمزة بن مالك الأسلميّ، حدّثني عمّي شيبان بن

---

(١) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٤٨.

حمزة، عن دويد عن المطّلب بن حنطب، قال: قال المغيرة: أنا أول من رشا فى الإسلام! جئت إلى يَرْفأ حاجب عمر وكنتُ أجالسه، فقلت له: خذْ هذه العمامة فالبسْها، فإنّ عنْدي أختَها، فكان يأنس بي ويأذن لي أن أجلس من داخل الباب، فكنت آتي فأجلس في القائلة فيمر المارّ فيقول: إنّ للمغيرة عند عمر منزلة إنّه ليدخل عليه في ساعة لا يدخل فيها أحد»[1].

وفي أسد الغابة ـ في ترجمة المغيرة ـ: «وهو أول من وضع ديوان البصرة وأول من رشا في الإسلام. أعطى برقا[2] حاجب عمر شيئا حتى أدخله على دار عمر»[3].

وافتعل كعادته وفداً رشاهم وأرسلهم إلى معاوية وكان في الوفد ابنُه، ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٠: ٢٩٨.

وشهد معاوية على الوفد الذي أرسله المغيرة بن شعبة يزيّن له فعلته التي لا زالت آثارها على اليوم تدمي القلوب بقوله «لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً».

ماذا يقول علماء الرجال في حق أمير وفد الرشوة عروة بن المغيرة بن شعبة؟

قال محمد بن سعد:

«عروة بن المغيرة بن شعبة الثّقفيّ، ويُكنى أبا يعفور، روى عن أبيه، قال:

---

(١) الإصابة، ابن حجر: ج٦ ص١٥٧.

(٢) سمّاه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٠: ١٨، "يرفأ"، وهو تصحيف إذ لا خلاف بينهم في كون اسمه "يرفأ" كما في طبقات ابن سعد ٥: ٨٥ وتاريخ خليفة بن خياط: ١١٤ وعلل الدارقطني ٢: ٢٢٤، والإصابة ٦: ٥٤٦ وتاريخ المدينة ٣: ٨٣٤ وتاريخ اليعقوبي ٢، ١٥٩.

(٣) أسد الغابة ٤: ٤٠٧.

أخبرنا مسلم بن إبراهيم، قال: حدّثنا سلام بن مسكين، قال: حدّثنا أبو النّضر المازنيّ عن الشّعبيّ: أنّ عروة بن المغيرة بن شعبة كان أميراً على الكوفة وكان خير أهل ذلك البيت»[1].

وقال ابن حبّان في الثقات:

«عروة بن المغيرة بن شعبة الثّقفيّ، كنيته أبو يعفور، وكان من أفاضل أهل بيته، وكان عاملاً لعليّ على الكوفة! يروي عن أبيه.روى عنه الشّعبيّ والنّاس وأولاد المغيرة عروة وعقار وحمزة ويعقوب، وقد حدّثوا كلّهم ورُوِيَ عنهم»[2].

أفضل أهل ذلك البيت رجل يرأس وفداً إلى معاوية لتملّقه وتزيين فعل السّوء له، ويشهد معاويةُ المستفيدُ من ذلك على الوفد، بأنّ المغيرة وجد دينهم عندهم رخيصاً. فكيف يكون صاحب الدّين الرّخيص من أفاضل أهل بيته؟!

وهاهي الأمانة العلميّة تتجلّى في سلسلة عجيبة:

في كتاب الثقات:

«... عباد بن زياد بن أبي سفيان يروى عن عروة بن المغيرة بن شعبة، عن أبيه، روى عنه الزهري»[3].

عبّاد: قال الرازي:

«عبّاد بن زياد، قال مالك: هو من ولد المغيرة بن شعبة، ووهم مالك في

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج٦ ص٢٦٩.

(٢) الثقات، ابن حبّان: ج٥ ص١٩٥.

(٣) الثقات، ابن حبان: ج٧ ص١٥٨ـ ١٥٩.

نسب عبّاد وليس من ولد المغيرة، ويقال: إنّه من ولد زياد بن أبـي سـفيان، روى عن عروة وحمزة ابني المغيرة بن شعبة، روى عنه الزّهـري، سـمعت أبي يقول ذلك»[١].

زياد: الذي ادّعى إلى غير أبيه، فهو إذاً ملعون على لسان رسول الله ﷺ.

عروة: أمير وفد الرّشوة والتملّق إلى معاوية بن أبي سفيان.

المغيرة بن شعبة: في الموبقات أشهر من نار على عَلَم.

الزّهري: خادم بني أمية. ذكر ابن حبّان:

«... أحمد بن عبدويه، قال: سمعت خارجة يقول قدمت علـى الزّهـريّ وهو صاحب شرط لبعض بني مروان، قال: فرأيته يركب وفي يـده حربـة، وبـين يديـه النّـاس بأيـديهم كافركوبـات، فقلـت: قـبّح الله ذا مـن عـالم، فانصرفت فلم أسـمع منـه، ثـمّ قـدمت علـى يـونس فـسمعت منـه عـن الزّهري»[٢].

وفي تاريخ ابن معين:

«سمعت يحيى يقول: حدّثنا أبو ضمرة، عن عبيد الله بن عمر، قال: كنت أرى الزّهري يُؤتَى بالكتاب ما قرأه ولا قُرِئ عليـه، فيُقـالُ لـه: نَـرْوي هـذا عنْك، فيقولُ: نعَم!»[٣].

والمغيرة بن شعبةَ هو الذي احتال على جُبير بن مُطْعم وخَدَعَه، لمّا ولاّه عُمر، فعزله قبل أن يسافر إلى عمله، وولّى المغيرة بن شعبة مكانَـه بعـد أن

---

(١) الجرح والتعديل، الرازي: ج٦ ص٨٠

(٢) الثقات، ابن حبان: ج٨ ص٥.

(٣) تاريخ ابن معين: ج١ ص١٢٥.

كان عزلَه[١].

وشهد على نفسه أنه غشّ عثمان في النّصيحة وهو خليفة المسلمين[٢].

وحاول أن يغش علياًعليه السلام، إذ نصحه بتولية معاوية الشّام فأبى عليه، مستشهداً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[٣] وقد قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: الدّين النصيحة.

ومات المغيرة وهو مصرّ على لعْن علي بن أبي طالبعليه السلام على المنْبر.

ففي سير أعلام النبلاء: «أنّ المغيرة كان في المسجد الأكبر وعنده أهل الكوفة فجاء رجل من أهل الكوفة فاستقبل المغيرة فسبّ وسبّ فقال سعيد بن زيد من يسبّ هذا يا مغيرة قال: يسبّ عليّ بن أبي طالب...»[٤].

وفيه أيضاً: «خطب المغيرة فنال من علي...»[٥].

وفي المعجم الكبير:

«عبد الملك بن الصّباح المسمعيّ، حدثّنا عمران بن حدير أظنّه عن أبي مجلز، قال: قال عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة لمعاوية: إنّ الحسن بن عليّ عييّ، وإنّ له كلاماً ورأياً، وإنّه قد علمنا كلامه، فيتكلّم كلاماً فلا يجد كلاماً، فقال: لا تفعلوا، فأبوا عليه فصعد عمرو المنبر فذكر علياً ووقع فيه، ثمّ صعد المغيرة بن شعبة فحمد الله وأثنى على عثمان، ثمّ وقع في عليّ (رضي الله عنه) ثم قيل للحسن بن عليّ اصعد، فقال: لا أصعد ولا أتكلّم حتّى

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٧ ص١٢٨.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٧ ص٢٥٠.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨ ص١٣٧.

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١ ص١٠٣.

(٥) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١ ص١٠٤ ـ ١٠٥.

تعطوني، إن قلت حقّاً أن تصدّقوني وإنّ قلت باطلا أن تكذبوني، فأعطوه، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، فقال: بالله يا عمرو وأنت يا مغيرة تعلمان أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قال: "لعن الله السّائق والراكب" أحدهما فلان، قالا: اللّهم بلى، قال: أنشدك الله يا معاوية ويا مغيرة أتعلمان أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) لعن عمرا بكل قافية قالها لعنة؟ قالا: اللهم بلى، قال: أنشدك الله يا عمرو وأنت يا معاوية بن أبي سفيان أتعلمان أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) لعن قوم هذا، قالا: بلى، قال الحسن: فإنّي أحمد الله الذي وقعتم فيمن تبرأ من هذا، وذكر الحديث»[1].

قال ابن قتيبة:

«... فأتى المغيرة بن شعبة، فقال: الرأي يا أبا بكر أن تلقوا العبّاس، فتجعلوا له في هذه الإمرة نصيباً يكون له ولعقبه، وتكون لكما الحُجّة على عليّ وبني هاشم، إذا كان العبّاس معكم. قال: فانطلق أبوبكر وعُمر وأبو عبيدة والمغيرة حتى دخلوا على العبّاس (رضي الله عنه). فحمد الله أبوبكر، وأثنى عليه، ثم قال: إنّ الله بعث محمّداً (صلى الله عليه وسلّم) نبيّاً وللمؤمنين وليّاً، فمنّ الله تعالى بمقامه...»[2].

هو ذا المغيرة يريد أن يفرّق بين بني هاشم، ويفسد ذات البين ويمارس سياسة فرّق تسد، والعجب من الخليفة الذي أخذ برأيه بدل أن يعنّفه، ولكن كيف يخالفه أو يعنّفه وهو حليف ضدّ بني هاشم!

وفي المعجم الكبير:

(١) المعجم الكبير، الطبراني: ج٣ ص٧٣.
(٢) الإمامة والسّياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج١ ص٢١.

«عن قيس بن أبي حازم، أخبرني المغيرة بن شعبة، قال: كنت عند أبي بكر الصدّيق (رضي الله عنه) فعرض عليه فرس، فقال: احملني على هذا، فقال: لأن أحمل غلاماً قد ركب الخيل على عزلته[١] أحبّ إليّ من أن أحملك عليه فغضب الرجل، فقال: أنا والله خير منك ومن أبيك فارساً، فغضبت حين قال ذلك لخليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فقمت إليه، فأخذت برأسه وسحبته على أنفه، فكأنما كان أنفه عزلاء مزادة، فأراد الأنصار أن يستقيدوا مني، فبلغ ذلك أبا بكر، فقال: بلغني أن ناساً يزعمون أني مقيدهم من المغيرة بن شعبة، ولأن أخرجهم من ديارهم أقرب من أن أقيدهم من وزعة الله الذين يزعون عباده»[٢].

القصة وقعت في خلافة أبي بكر وقد أراد الأنصار أن يستقيدوا من المغيرة، فالرجل إذن صحابي أنصاري، لكن ما قيمة الصحابي الأنصاري حين يختلف مع واحد ممن شاركوا في الهجوم على بيت فاطمة؟

وقد نعت أمير المؤمنين المغيرة بما هو أهله حينما راجعه عمار بن ياسر،قال ابن قتيبة: «فقام عمار فقال: معاذ الله يا مغيرة تقعد أعمى بعد أن كنت بصيراً. يغلبك من غلبته، ويسبقك من سبقته، انظر ما ترى وما تفعل، فأمّا أنا فلا أكون إلاّ في الرّعيل الأوّل. فقال له المغيرة، يا أبا اليقظان. إيّاك أن تكون كقاطع السّلسلة: فرّ من الضّحل[٣] فوقع في الرمضاء. فقال عليّ

---

(١) هذه عبارة فاحشة جدًا ما كان يليق بالخليفة أن يتلفّظ بها، وقد تلفّظ بعبارة فاحشة أيضاً بحضرة النبي كما في صحيح البخاري: ج٣ ص١٧٩، وصحيح ابن حبّان: ج١١ ص٢٢٠، وإرواء الغليل (الألباني): ص٥٦ ونيل الأوطار: ج٨ ص١٥٨.

(٢) المعجم الكبير، الطبراني: ج٢٠ ص٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٣) الضحل: القريب القعر. والضحل: الماء الرقيق على وجه الأرض ليس له عمق، وقيل: هو كالضحضاح

لعمّار: دعه، فإنّه لن يأخذ من الآخرة إلاّ ما خالطته الدّنيا، أما والله يا مغيرة إنّها[1] المثوبةالمؤدّية، تؤدّي من قام فيها إلى الجنّة، ولما اختار بعدها، فإذا غشيناك فنَمْ في بيتك. فقال المغيرة: أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منّي، ولئن لم أقاتل معك لا أعين عليك، فإن يكن ما فعلت صوابا فإيّاه أردت، وإن يكن خطئاً فمنه نجوت، ولي ذنوب كثيرة، لا قبل لي بها»[2].

وفي تاريخ اليعقوبي:

«... ووجّه جبير بن مطعم، فمكر به المغيرة، وحمل عنه خبراً إلى عمر، وقال له:ولّني، يا أمير المؤمنين. قال: أنت رجل فاسق! قال: وما عليك منّي؟ كفايتي ورجولتي لك، وفسقي على نفسي فولاه الكوفة، فسألهم عن المغيرة، فقالوا: أنت أعلم به وبفسقه. فقال: ما لقيت منكم يا أهل الكوفة! إن ولّيتكم مسلماً تقياً قلتم: هو ضعيف، وإن وليتكم مجرماً، قلتم هو فاسق. فيقال إنّه ردّ سعد بن أبي وقاص»[3].

وفي هذا الخبر شهادة صريحة من الخليفة عمر بن الخطّاب على المغيرة بأنّه فاسق، والفسق لا يؤمّ شخصين، فكيف بمصر واسع مثل الكوفة وفيها من فيها من البدريّين. على أنّ المغيرة لم ينف عن نفسه الفسق الذي اتّهمه به عمر، بل أكّده في قوله: «وفسقي على نفسي». ويُضاف إلى شهادة عمر شهادةُ أهل الكوفة حين قالوا: «أنت أعلم به

إلا أن الضحضاح أعم منه لأنه فيما قل أو كثر، وقيل: الضحل الماء القليل يكون في العين والبئر والجمة ونحوها وقيل: هو الماء القليل يكون في الغدير ونحوه (لسان العرب ـ ابن منظور: ج١١ ص٣٩٠).

(١) كذب المغيرة في هذه فإنّه لم يكتف بالإعانة على علي عليه السلام بل صار يسبّه ويلعنه علناً.

(٢) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج١ ص٥٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص١٥٥.

وبفسقه»! فالمغيرة فاسق بشهادة الخليفة والصحابة والتابعين. ومع ذلك يسمّيه محمد بن الحسن الشيبانيّ صاحب أبي حنيفة «إماماً من أئمة المسلمين».

وفي فضائل الصحابة:

«عن سفيان بن منصور، عن هلال، عن عبد الله بن ظالم، وذكر سفيان رجلاً فيما بينه وبين عبد الله بن ظالم، قال: سمعت سعيد بن زيد، قال: لمّا قدم معاوية الكوفة أقام المغيرة بن شعبة خطباء يتناولون عليّاً، فأخذ بيَدي سعيد بن زيد فقال: ألا ترى هذا الظّالم الذي يأمر بلعن رجل من أهل الجنّة»[1].

لقد استعظم الإمام أحمد بن حنبل لعن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ولذلك هذّب العبارة فقال: ينالون من عليّ، بدل يلعنون عليّاً، لكنّه في معرض رواية الحديث لا بدّ له من روايته بلفظه، كما تقتضيه أصول الفنّ، فوقع في ما فرّ منه، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

هذه شهادة سعيد بن زيد أحد العشرة المبشّرين بالجنّة على المغيرة بن شعبة بأنّه ظالم، فهو يتحدّث عمّن أمر بلعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وفاعل ذلك هو من أقام خطباء ينالون من عليّ إرضاءً لمُعاوية، وهو المُغيرة بن شُعبة. والعجيب أنّ المغيرة نفسه يذكر أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله ينهى عن سبّ الأموات، فما أعظم احترام المغيرة لكلام رسول الله صلى الله عليه وآله!

قال الهيثمي في موارد الظمآن:

---

(١) فضائل الصحابة، الإمام أحمد بن حنبل: ص٣٢.

«... حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدّثنا الملائيّ وأبو داود الجعفريّ، قالا: حدّثنا سفيان عن زياد بن علاقة، أنّه سمع المغيرة بن شعبة يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): لا تسبّوا الأموات فتؤذوا الأحياء»[١].

يقيم المغيرة خطباء يلعنون علياًعليه السلام بعدما علم أن النبيصلى الله عليه وآله قال: «يا عليّ من سبّك فقد سبّني ومن سبّني فقد سبّ الله تعالى». ومع ذلك بقي المغيرة يتمتّع بحصانة منيعة ويتقلّد المناصب الرّفيعة، ويستمع إليه من عميت قلوبهم التي في صدورهم، ليقولوا بعد ذلك بكل وقاحة وصلافة: حدّثنا المغيرة بن شعبة عن رسول اللهصلى الله عليه وآله!!

واتّهم أبوبكر المغيرة بن شعبة، إذ ردّ خبره في ميراث الجدّة حتى أخبره معه محمّد بن مسلمة، ذكر ذلك جماعة، منهم: الغزالي في [المستصفى][٢].

وذكر أبو جعفر الإسكافيّ: أنّ المغيرة كان يضع الأحاديث القبيحة في أمير المؤمنينعليه السلام بترغيب من معاوية بن أبي سفيان. واتّهمه عمر بن الخطّاب، إذ ردّ خبره في دية الإملاص، فقد جاء في [تذكرة الحفاظ]: «وروى هشام عن أبيه المغيرة بن شعبة: أنّ عمر استشارهم في إملاص المرأة ـ يعني السقط ـ فقال له المغيرة: قضى فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بغرّة، فقال له عمر: إن كنت صادقاً فأت أحداً يعلم ذلك. قال: فشهد محمّد بن مسلمة أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قضى به»[٣] ومعلوم أنّ محمّد بن مسلمة شارك في الهجوم على بيت

---

(١) موارد الظمآن، الهيثمي: ج٦ ص٢٨٩ ح١٩٨٧.

(٢) المستصفى، الغزالي: ج١ ص١٥٣.

(٣) تذكرة الحفاظ، الذهبي: ج١ ص٨

فاطمة عليها السلام إلى جنب المغيرة.

زنا، ورشوة، وكذب، وتزوير، وغشّ، وخديعة، وسبّ ولعن لأولياء الله تعالى.. فمتى حَسُن إسلامه؟!!

وهل بعد هذا يلام أتباع أهل البيت عليهم السلام في عدم أخذهم برواية هذه الأشباه والنّظائر؟ أليس من حقّهم ألاّ يشوّهوا صحائف كتبهم بهذا وأمثاله؟ **﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾**[1].

ولقد اتّفق عليّ عليه السلام وعثمان في شهادتهما على المغيرة بن شعبة على أنّه ليس هناك، وهي كلمة عظيمة في لغة العرب يقصد بها دناءة الهمّة وقلّة المروءة. وعليّ عليه السلام وعثمان اثنان من الخلفاء الرّاشدين ومن المبشّرين بالجنّة في كتب الجمهور، فشهادتهما معاً لها وزنها، وهذا نصّ ما جرى بينهما بخصوص المغيرة ومعاوية: «فقال عثمان: قد علمت والله ليقولنّ الذي قلت، أماوالله لو كنتَ مكاني ما عنفْتك ولا أسلمْتك ولا عبْت عليْك، ولا جئْت منكراً أن وصلت رحماً وسددْت خلّة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولّي، أنشدك الله يا عليّ، هل تعلم أنّ المغيرة بن شعبة ليس هناك قال: نعم، قال: فتعلم أنّ عمر ولاّه، قال: نعم، قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته، قال عليّ: إنّ عمر كان يطأ على صماخ من ولّى، إن بلغه عنه حرف جَلَبَة، ثمّ بلغ به أقصى العقوبة، وأنت لا تفعل ضعُفت ورققْت على أقربائك، قال عثمان: وهم أقرباؤك أيضاً، قال: أجل إنّ رحمهم منّي قريبة ولكنّ الفضل في غيرهم، قال عثمان:

---

(1) الأعراف: 58.

هل تعلم أنّ عُمر ولّى معاوية فقد ولّيته، فقال عليّ: أنشدك الله، هل تعلم أنّ معاوية كان أخوف لعمر من يرفأ غلام عمر له، قال: نعم، قال عليّ: فإنّ معاوية يقتطع الأمور دونك ويقول للنّاس هذا أمر عثمان: وأنت تعلم ذلك فلا تغيّر عليه»[١].

المغيرة والصلاة:

في المعجم الكبير:

«حدّثنا أحمد بن رشدين المصريّ، حدّثنا يوسف بن عديّ، حدّثنا رشدين بن سعد، عن قرّة بن عبد الرّحمن وعقيل ويونس، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزّبيْر، أخبره عن بشير بن أبي مسعود عن أبيه أبي مسعود، أنّه قال للمغيرة بن شعبة: وأمسى بصلاة العصر، أما والله، لقد علمت أنّ جبريلعليه السلام نزل فصلّى، فصلّى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ثم صلّى، فصلّى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ثّم قال: هكذا أُمرتُ»[٢].

وفي مسند أبي داوود: «... حدّثنا المسعوديّ، عن زياد بن علاقة، قال: صلّى بنا المغيرة بن شعبة فقام في الرّكعتين الأوليين فسبّحوا له فمضى في صلاته، فلمّا فرغ سجد سجدتين ثمّ سلم وقال: هكذا فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)»[٣].

(ينسب بذلك السهو إلى رسول اللهﷺ)، ومن يدري؟ لعلّ سبب سهوه أنه كان يفكّر في أمّ جميل صاحبة العود!

---

(١) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٤٤.
(٢) المعجم الكبير، الطبراني: ج٧ ص٢٦٠.
(٣) مسند أبي داود الطيالسي، سليمان بن داود الطيالسي: ص٩٥.

وفي المُصنَّف: «عن ابن أبي ليلى، عن الشّعبيّ عن المغيرة بن شعبة، أنّه قام في الركعتين الأوليين فسبحوا به فلم يجلس، فلما قضى صلاته سجد سجدتين بعد التسليم، ثم قال: هكذا فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)»[١].

وفيه: عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن سماك بن حرب، أنّه شهد المغيرة بن شعبة في يوم عيد صلّى بغير أذان ولا إقامة، ثمّ جاء يقاد به بعيره حتى خطب بعد الصلاة على بعيره»[٢].

لقد مات المغيرة بن شعبة وهو مصرّ على لعن عليّ بن أبي طالبعليه السلام، مع أنّه سمع من رسول اللهصلى الله عليه وآله في فضائله ما سمع، وعلم أنّه من رسول الله بمنزلة هارون من موسى، وأنّ من سبّه فقد سبّ رسول اللهصلى الله عليه وآله فهل يكون بهذا السّلوك محترماً لرسول اللهصلى الله عليه وآله مراعياً حرمته في أهل بيته؟ بل هل يكون مصدّقاً له في ما قاله بخصوص عليّعليه السلام؟ وبالمناسبة، ماذا تقول صحاح المسلمين في قضيّة لعن المسلم؟

في صحيح البخاري:

«... أنّ ثابت بن الضّحّاك ـ وكان من أصحاب الشّجرة ـ حدّثه، أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قال: من حلف على ملّة غيرالإسلام فهو، كما قال: ليس على ابن آدم نذرٌ فيما لا يملك، ومن قتل نفسَه بشيء في الدّنيا عُذّب به يوم القيامة، ومَنْ لعَنَ مُؤمناً فهُوَ كقتلِه، ومن قذفَ مؤمناً بكفرٍ فهُوَ كقتلِه»[٣].

---

(١) المصنّف، الصّنعاني: ج٢ ص٣٠١.

(٢) المصنف، الصنعاني: ج٣ ص٢٨٢.

(٣) صحيح البخاري، البخاري: ج٧ ص٨٤

وفي صحيح مسلم[1]:

«... عبد العزيز (يعنى ابن أبي حازم) عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، قال: استُعمل على المدينة رجلٌ من آل مروان، قال: فدعا سهلَ بن سعد فأمره أن يَشتم عليّاً، قال: فأبى سهل، فقال له: أما إذ أبيتَ فقلْ لعنَ اللهُ أبا التّراب، فقال سهل: ما كان لعليّ اسم أحبّ إليه من أبي التراب، وإن كان ليفرح إذا دعى بها فقال له: أخبرنا عن قصّته...»[2].

عجيبٌ أمرُهمْ في التّعتيم، بحيث يصلُ إلى والي المدينة الذي يُمثّل بالنّسبة إلى أيّامنا مسؤولَ محافظةٍ! لماذا هذا التّعتيم؟ ومَن المستفيدُ منْ إخفاء أسماء هؤلاء المُجرمين الذين يتبنّوْن بشكلٍ رسميّ سبّ من قامت دولةُ الإسلامَ بسيفه؟!

هذا كلّ مارواه البخاريّ ومسلم في ما يخصّ لعْنَ المسلم، وهُما أعلمُ النّاس بما فعلتْ دولة أميّة في هذا الباب، بحيث لم تكتفِ بلعنِ أمير المؤمنين عليه السلام، وإنّما أضافت إليه سيّدي شباب أهل الجنّة وسيّدةَ نساء العالمين، كما هو معلوم في زمن الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ، فقد كان سبّ أصحاب الكساء ممّا يُتقرّب به إلى الحاكمين.

لكنّهما (البخاريّ ومسلم)، توسّعا في اللّعن الذي لا يمسّ بساحة بني أميّة وأشياعهم، كما هو الحال في الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنّامصة والمتنمّصة وأمورٍ من هذا القبيل، وما أكثر الأحاديث التي تركاها، وهي صحيحة على شرطهما، وشهد شاهد من أهلها ـ وهو

---

(١) صحيح مسلم ٧: ١٢٣ـ ١٢٤.

(٢) صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ج٧ ص١٢٣ ـ ١٢٤.

الحاكم النّيسابوري ـ واستدركها عليهما، وفي كل مرة يقول: "هـذا حـديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه".

ففي صحيح مسلم وردت عبارة "لعن" ومشتقّاتها ١٠٠ مرّة، وفي صحيح البخاريّ ١٤٤ مرّة.

وفي سنن ابن ماجه وردت ١٣٨ مرة، لكنّه كـان أشـجعَ مِنهمـا وأجـرأ ويبدو ذلك من خلال أحاديثَ تحاشَيْنا ذِكرَها من بينها:

«٢٦٠٩ ـ حدثنا أبو بشر بكر بن خلف. ثنا ابن أبى الضيف. ثنـا عبـد الله بن عثمان ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قـال رسـول الله (صلى الله عليه وسلّم): من انتسب إلى غير أبيه، أو تـولىّ غيـر مَواليـه، فعليه لعنةُ الله والملائكة والنّاس أجمعين»[1].

وفيه أيضاً:

«٢٧١٢ ـ حدثّنا أبوبكر بن أبي شيبة. حدثّنا يزيد بن هرون. أنبأنا سـعيد ابن أبي عروبة عن قتادة، عن شهْر بن حوْشب، عن عبد الرّحمن بن غـنم، عن عمرو بن خارجة، أنّ النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) خطبهم وهـو علـى راحلته. وإنّ راحلتَه لتقْصعُ بجرِتّها. وإنّ لغَامَها ليسيلُ بيْن كتفـيَّ، قـال: "إنّ الله قسمَ لكلّ وارثٍ نصيبَه من الميراث. فلا يجـوزُ لـوارث وصـيّة. الولـدُ للفراش وللعاهرِ الحَجرُ. ومَن ادّعى إلى غيرِ أبيه، أو تولّى غَيرَ مَواليه، فعليْه لعنةُ الله والملائكة والنّاس أجمعين. لا يُقبلُ منه صرْفٌ ولا عدْلٌ" (أو قـال: عدل ولا صرف)»[2].

---

(١) سنن ابن ماجة، محمّد بن يزيد القزويني: ج٢ ص٨٧٠

(٢) نفس المصدر: ج٢ ص٩٠٥.

ولا يخفى أن ذيلَ هذا الحديث ينطبقُ على زياد بن أبيـه، وإنّما حمَلَه على ذلك معاوية فهُو شريكه في اللّعْن، وهذا ما لا يُريدون التطرّق إليه.

وفي سنن أبي داود:

«ـ حدثنا محمّد بن كثير، أخبرنا سفيان،عن الأعمش،عن إبراهيم التّيميّ، عن أبيه،عن عليّ (رضي الله عنه) قال: ما كتبنا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) إلاّ القرآن، وما في هذه الصّحيفة، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم):

"المدينة حرامٌ ما بين عائر إلى ثور، فمن أحدث حدثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين، لا يُقبل منه عدْل ولا صرْفٌ، وذمّةُ المسلمين واحدةٌ يسعى بها أدْناهم، فمن أخْفرَ مُسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين، لا يُقبلُ منْه عدلٌ ولا صرْفٌ؛ ومن والَى قوماً بغير إذْن مَواليه فعليْه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين لا يُقبلُ منه عدل ولا صرف"»[1].

وفيه أيضاً:

«حدثنا أحمد بن صالح، ثنا يحيى بن حسان، ثنا الوليد بن رَباح، قال: سمعتُ نمرانَ يذكرُ، عن أمّ الدرداء، قالتْ: سمعتُ أبا الدرداء يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): (إنّ العبدَ إذا لَعَنَ شيئاً صعدت اللّعنةُ إلى السماء فتُغلَقُ أبوابُ السماء دونَها، ثُم تهبط إلى الأرض فتُغلق أبوابُها دونَها، ثم تأخذُ يميناً وشمالا فإذا لَم تَجدْ مَساغاً رجعتْ إلى الذى لَعَنَ، فإن كان

---

(١) سنن أبي داود، ابن الأشعث السجستاني: ج١ ص٤٥١ ـ ٤٥٢.

لذلك أهلاً وإلاَّ رجعتْ إلى قائلها)»[١].

وفيه:

«عن أنس بن مالك، قال: سمعتُ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلَّم) يقول: (من ادّعى إلى غيرِ أبيه أو انتَمى إلى غير مَواليه فعليه لعنة الله المتتابعةُ إلى يوم القيامة)»[٢].

وفي سنن الترمذي:

«... التّيمي عن أبيه، قال: خطبنا عليّ، فقال: من زعم أنّ عندنا شيئاً نقرؤه إلاّ كتاب الله، وهذه الصحيفة فيها أسنان الإبل وأشياء من الجراحات فقد كذب، وقال فيها: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): المدينةٌ حرمٌ ما بينَ عير إلى ثوْر، فمَن أحدثَ فيها حدثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنةَ الله والملائكة والنّاس أجمعين، لا يَقبلُ اللهُ منه يومَ القيامة صرفاً ولا عدلاً، ومن ادّعى إلى غير أبيه أو تَولّى غيرَ مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، وذمّة المسلمين واحدة يسْعى بها أدْناهُم»[٣].

وقد شدّد كثيرٌ من العلماءِ في مسألة جوازِ لعْن المسلم، إلى درجة أنّ منْهُم من ذهبَ إلى عدم جوازِ لعْنِ يزيد بن معاوية بعيْنه، لأنّه يُمكنُ أن يكُونَ مات مُوَحّدا! ولذا لا ينبغي لعْنُه وإنّ كانَ قدْ فعلَ ما فعلَ مع آل رسول الله ، فأمرُه إلى الله، إنّ شاء عذّبه وإن شاءَ غفرله.

---

(١) سنن أبي داود: ج٢ ص٤٥٧.

(٢) سنن أبي داود، ابن الأشعث السجستاني: ج٢ ص٥٠٢.

(٣) سنن الترمذي، الترمذي: ج٣ ص٢٩٧.

لكنّ هؤلاء المُشدّدين أنفسَهم حينما يتعلّقُ الأمرُ بلعْن أمير المؤمنين أخي رسول اللهﷺ ووليّه ووصيّه ووزيره ومُستودَع علْمه ومَوضع سرّه وباب حكمته والنّاطق بحجّته والدّاعي إلى شريعته وخليفته في أمّته، يتوقّفون مَبْهُوتين كأنّما قُطعتْ ألْسنتُهم! لماذا؟

الجواب بسيطٌ، وهو أنّهم بنَوا لأنفسهم مَبانيَ يعتمدون عليها في تعبّدهم وفهمهم للإسلام، فإذا عارضتْها الآياتُ المُحكَمة والأحاديثُ الصّحيحة فتحوا أبوابَ (التّأويلِ) و(التّلفيق) و(لعلّ) و(عسَى) و(ربّما) و(قد يكونْ) وما أشبهَ ذلك من تحريفات طالما مارسَها أهلُ الكتاب، وصدق فيهم حديثُ رسولﷺ لتتبعُنّ سُنَن مَنْ قبْلكُم حذوَ النّعلِ بالنّعل، وإلاّ فكيفَ يلتمسُون ليزيد ما لا يلتمسُونَه لأوّل منْ صلّى مع رسول اللهﷺ؟ ولماذا يتردّدون ويُعتّمُون ويعتريهم التّذبذُب والتّخبّط؟ أليست كلّ أحاديث النّبيﷺ ومحكماتُ القرآن الكريم مؤيدةً لهُم؟ وممّن يخافُون والله أحقّ أن يخشوْه إنْ كانُوا مُؤمنين؟

مسألةُ لعْنِ عليّ بن أبي طالبعليه السلام لا يُمكن أن تتحوّل إلى قضيّة ثانويّة، لأنّها ذاتُ علاقة بمسألة الإمامة. والذين أرادُوا أن يجْعلوها من الماضيَ المنسيّ لم يُفلحُوا ولنْ يُفلحوا، لأنّ لعنَ عليّ بن أبي طالبعليه السلام من العلامات الفاصلة بين الإيمان والكُفر، فمنْ سوّلتْ له نفسُه لعْنَ عليّعليه السلام فإنّه لا حَظّ له في الإسلام بشهادة النّبيّ الأكرمﷺ، كما جاء في كتب المسلمين:

ففي الخصائص:

«(أخبرنا) أحمد بنُ شعيب، قال: أخبرنا العباس بنُ محمّد الدّوري، قال:

حدثنا يحيى بنُ زكريّا، قال: أخبرنا إسرائيلُ، عن أبي اسحاق، عن أبي عبد الله الجدليّ، قال: دخلتُ على أمّ سَلَمَةَ، فقالتْ لي: أيُسَبّ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلّم) فيكُم؟ قلت: سبحانَ الله أو معاذَ الله. قالتْ: سمعتُ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يقول: من سبّ علياً فقد سبّني»[1].

وفي أسد الغابة:

«... قال سمعتُ أبا مرْيمَ السَلُوليَ يقولُ: سمعتُ عمّار بنَ ياسر يقولُ: سمعتُ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلّم) يقولُ لعليّ بن أبي طالب، يا عليّ إنّ الله عزّوجلّ قد زيّنك بزينة لمْ يتزيّن العبادُ بزينة أحبّ إليه منْها الزّهْد في الدّنيا فجعلك لا تنالُ من الدّنيا شيئاً ولا تنالُ الدّنيا منك شيئاً، ووهبَ لك حبّ المساكين ورضُوا بك إماماً ورضيتَ بهم أتباعاً، فطُوبَى لمَنْ أحبّك وصَدّقَ فيكَ وَوَيْلٌ لمَنْ أبْغَضَكَ وكَذَبَ عليك، فامّا الذين أحبّوكَ وصَدَقُوا فيك فهُمْ جيرانُكَ في دارِكَ ورفقاؤكَ في قصْرك، وأمّا الذين أبْغَضُوكَ وكَذَبُوا عليْك فحقّ على الله أنْ يُوقِفَهُمْ مَوْقِفَ الكذّابين يومَ القيامَة»[2].

وفيه:

«... جعْفر بن سليمان، عنْ أبي هارونَ العبْديّ، عن أبي سعيد الخدْريّ، قال: كُنّا نعرفُ المُنافقين نحنُ معاشر الأنصار ببُغْضهم عليّ بنَ أبي طالب»[3].

---

(١) خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، النسائي: ص٩٩.

(٢) أسد الغابة، ابن الأثير: ج٤ ص٢٣.

(٣) أسد الغابة، ابن الأثير: ج٤ ص٣٠.

والأحاديثُ في هذا الباب كثيرةٌ، والذي يهمّنا هو سُلوك النّاس بعدما سمعوا ذلك منْ رسول الله ﷺ مباشرةً. فإذا كانوا يحترمُون رسولَ الله ﷺ وسنّته قولاً وفعلاً وتقريراً، فما بالُهم تصرفُوا عكسَ ذلك تماماً؟ وإن كانُوا قد صدّقوا رسولَ الله ﷺ اعتقاداً فلماذا كذّبوه فعلاً؟

إنّ المؤمن الذي صدّق رسول الله ﷺ في كلّ ما جاءَ به لا يَكُونُ إمّعَةً، يقولُ أنا واحدٌ منَ النّاس إنّ أحْسنُوا أحْسنْتُ، وإنّ أساءُوا وَسعَني مَا يَسعُهُم، بلْ دليلُه ومُرشدُهُ القرآن الكريمُ، والقرآن يكرّر أنّ أكثرَ النّاس لا يعلمُون وأنّ أكثرَهُم لاَ يعقلُون وأنّ أكثرهم لا يؤمنون وأنّ أكثرهم للحقّ كَارهُون...، فلَوْ أنّ مَنْ في الأرض جميعاً كفَرُوا فإنّ ذلك لا يُغيّر من اعتقاده شيئاً، بل هُو لا يَستَوحشُ من قلّة ولا يزدادُ يقينُه بكثرة مَنْ يُشاركُه المُعتقَدَ؛ وعليه، فلَوْ أنّ مَنْ في الأرض جَميعاً سبُّوا عليّاً عليه السلام فإنّ ذلك لا يُؤثّر في ولاء المُؤمن شيئا، لأنّه متوجّه بقلْبه وضميره ورُوحه إلى نبيّه ﷺ يستلْهِمُ من حديثه ما يُنيرُ سبيلَهُ ويزيدُه بصيرةً في دينه، فإذا صادفَ قولاً يُخالفُ قولَ نبيّه ﷺ لم يفتحِ البابَ لشياطينِ الجنّ والإنس، بلْ يَمضي على بصيرة منْ ربّه ولا يَلتفتُ أصْلاً؛ فإذا كانَ رسول الله ﷺ مُصدّقاً في ما يقولُ بخصوصِ مَنْ يَسُبّ عليّاً ـ وهو بلا شكٍّ صادقٌ في كلّ ما يقول ـ فإنّ حُكْمَ الذين فعلُوا ذلك حُكْمُ مَنْ سَبّ رسولَ الله ﷺ سواء كانُوا صحابةً أو تابعينَ أو مَغولاً أوْ يَاجُوج ومَاجُوج، لا يُغيّرُ ذلك من القضيّة شيئاً. والذي يحاولُ أنّ يجدَ لذلك مَخرجاً بحَيْثُ يَجْمَعُ بيْنَ صدق النّبيّ ﷺ وصحّة فعلِ أولئك فإنّما يَكْذبُ على نَفسِه، ويتحمّلُ وزْرَ ضحَايا كَذبه لا ينْقصُ ذلك منْ أوْزَارهِمْ شيئاً.

روايات المغيرة:

في منتخب مسند عبد بن حميد: «عن أبي وائل، عن المغيرة، أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) أتى سباطة بني فلان، فَفَحَجَ رجْليْه وبالَ قائما!!»[1].

وبمَا أنّ عائشةَ روَتْ أنّ النّبيّ لمْ يبُل قائماً قطّ منْذ أنْزل عليه القرآن، فقط تكلّف ابنُ قُتيبةَ أمْراً عسيراً في محاولة الجَمع بيْن حديثها وحديث لحُذيفة في أنّه ﷺ بال قائماً، وإليك ما قالَهُ:

«ونحن نقول ليس هاهُنا بحمد الله اختلافٌ، ولم يبُلْ قائماً قطّ في منْزله والموضع الذي كانت تحضُره فيه عائشة (رضي الله عنها)، وبال قائماً [!!] في المواطن التي لا يُمكن أنْ يطمئن فيها، إمّا للثق في الأرض وطين أو قذر، وكذلكَ الموضع الذي رأى فيه رسولَ الله (صلى الله عليه وسلّم) حذيفةُ يبولُ قائماً كان مزبلةً لقوْمٍ، فلمْ يُمكنه القعودُ فيه ولا الطمأنينةُ، وحكمُ الضّرورة خلافُ حكمِ الاختيار»[2].

نعم، ولا ينبّئك مثلُ خبير!!

ويبقى تمحّلُ ابنِ قتيبةً كَبيْتِ العنكبوت، لأنّ مِن نساءِ النّبيّ وصحابته من لا يقبل ذلك:

ففي مسند أحمد «عن عائشة: مَنْ حدّثك أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بال قائماً فلا تُصدّقه. ما بالَ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قائما

---

(١) منتخب مسند بن عبد بن حميد، عبد بن حميد بن نصر: ص١٥٢.

(٢) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة: ص٨٧

منذ أنزل عليه القرآن»[١].

وفي المستدرك: «...قال: سمعتُ عائشةَ تُقسم بالله ما رأى أحدٌ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلّم) يبولُ قائماً منذ أُنزلَ عليه الفرقان. وعقّب الحاكمُ بقوله: هذا حديث صحيحٌ على شرْط الشّيخين ولمْ يُخرجاه والذي عندي أنّهما لمّا اتّفقا على حديث منصور، عن أبي وائل، عن حذيفة أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أتى سبَاطَة قوْمٍ فبالَ قائماً وَجَدَا حديث المقدام عن أبيه عن عائشة (رضي الله عنها) مُعارضاً له فتركاه والله أعلم!!»[٢].

وفي سنن ابن ماجه: «عن عُمر، قال: رآني رسولُ الله (صلى الله عليه وسلّم) أبول قائماً، فقال: ياعمر لا تَبُلْ قائماً. فما بُلت قائماً بعد»[٣].

وفيه أيْضاً ـ نفس الصّفحة ـ عن جابر بن عبد الله: «نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أن يبول قائما».

وفي سنن الترمذي: «قال أبو عيسى: حديثُ عائشة أحسنُ شيء في الباب وأصح»[٤].

وفيه: «وقد رُوي عن عبد الله بن مسعود، أنّه قال: من الجَفاء أن تبولَ وأنتَ قائم»[٥].

وقد عَلمَ جميعُ أهل القبلة أنّ أبعدَ الخلق من الجفاء رسولُ الله ﷺ بدليل قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقوله: «أدّبني ربي فأحسن

(١) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٦ ص١٣٦، ١٩٢، ٢١٣.
(٢) مستدرك الحاكم ١: ١٨١ و١٨٥.
(٣) سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني: ج١ ص١١٢.
(٤) سنن الترمذي، الترمذي: ج١ ص١٠.
(٥) سنن الترمذي، الترمذي: ج١ ص١١.

تأديبي».

وفي معجم الصحابة: «حدّثنا علي بن محمّد، حدّثنا أبـو سـلمة، حـدّثنا حماد بن سلمة، حدّثنا حميد، عن الحسن، عن مهاجر بن قنفذ، قال: أتيـتُ النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) وهُوَ يَبولُ، فسلّمت عليه، فلمْ يردّ حتّـى فـرغ، فتوضّأ وردّ عليّ»[1].

وفي سنن البيهقي الكُبرى:

«قال الإمام (رحمه الله تعالى): وقد قيـل كانـت العـرب تستـشـفي لِوَجَـع الصُّلْب بالبوْل قائماً، فلعلّه كان به إذ ذاك وجعُ الصّلب، وقد ذكره الـشافعيّ (رحمه الله تعالى) بمعناه، وقيل إنّه فعل ذلك، لأنّه لـم يجـدْ للقعـود مكانـاً أو موضعاً والله أعلم»[2].

ثُمّ إنّه روى بعد ذلك بأسطر في نفس الصّفحة حديث عائشة: «مـا بـالَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلّم) قائماً منذ أنزل عليه القرآن»[3].

«وعن سعيد بن عمرو بن سعيد، قال: «قال عمـر (رضـي الله عنـه): البـولُ قائماً أحصنُ للدّبر»[4].

وحتى يرسّخوا ذلك في الأذهان فقد نسبوا نفس الشّيء إلـى علـيّ بـن أبي طالبعليه السلام. ففي السنن الكبرى للبيهقي: «عن الأعمش عن، أبي ظبيـان، قال: رأيت عليّ بن أبي طالب بالرحبة بال قائما»[5].

---

(١) معجم الصحابة: ج٣ ص٥٩.

(٢) السنن الكُبرى، البيهقي: ج١ ص١٠١.

(٣) السنن الكبرى، البيهقي: ج١ ص١٠١.

(٤) السنن الكبرى، البيهقي: ج١ ص١٠٢.

(٥) السنن الكبرى، البيهقي: ج١ ص٢٨٨.

[والرّحبة كما لا يَخفى مكانٌ عموميّ، يجتمع فيه شيوخ العشائر والقُـرّاء والشّعراء...!!].

وقال النووي: «أمّا حكم المسألة، فقال أصحابنا يُكره البول قائماً بلا عُذر كراهة تنزيه ولا يُكره للعُذر، وهذا مذهبُنا. وقال ابـن المنـذر: اختلفـوا فـي البول قائماً، فثبت عن عمر بن الخطّاب وزيد بن ثابت وابن عمر وسهل بن سعد أنّهم بالُوا قياماً...»[١].

وفي صحيح مسلم: «... قال المغيرةُ فأقبلت معه حتـى نَجـد النّـاس قـد قدّمُوا عبدَ الرّحمن بن عوف، فصلّى لهم فأدرك رسول الله (صلى الله عليـه وسلّم) إحدى الرّكعتين فـصلّى مـع النّـاس الرّكعـةالآخرة،فلمّا سـلم عبـد الرحمن بن عوف قام رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): يتمّ صلاتَه فـأفزع ذلك المسلمين!! فأكثروا التّسبيح، فلما قضى النّبيّ (صلى الله عليـه وسـلّم) صلاته أقبل عليهم، ثم قال: أحسنتم، أو قال: قد أصـبتم يغـبطهم أن صـلّوا الصّلاة لوقتها»[٢].

أقول: هناك سؤال واحدٌ وهُـوَ: هـل كانـتْ تلـك أولَ مـرّةٍ صـلّى فيهـا أحدُهم إماماً ورسول اللهﷺ.

خلفَه مأمومٌ أم هُناك غيرُها؟ فإن يكنْ هناك غيرُها فما أكثرَ الـذين أمّـوا رسولَ اللهﷺ، وإن تكن الأولى فما أجرأ عبدَ الرّحمن بنَ عوف علـى الله وما أحرصَهُ على الرياسة! والعجبُ من عُمر كيف لـمْ يعتـرضْ عليـه!! بـل العجب أنّهم لم يقدّموا أبا بكر! وإذا كانوا يُقدّمُون ورسولُ اللهﷺ حيّ بـيْن

---

(١) المجموع، النووي: ج٢ ص٨٥

(٢) صحيح مسلم: ج١ ص٣١٧.

أظهُرهم فكيف يُتعجّب من تقديمهم بعد وفاته؟ويقول المغيرة: "فأفزع ذلك المسلمين" ولا أدري لماذا يفزعون؟! فَمَنْ قدّم عبد الرحمن بن عوف إذاً؟ ولمَ لم ينتظروا رسول الله ﷺ؟

وفي الصحيح: «... عروة بن المغيرة بن شعبة يُحدّث عن المغيرة، أنّه كان مع رسول الله ﷺ في سفَر، وأنّه ذهب لحاجة له، وأنّ مغيرة جعل يصبّ الماء عليه، وهو يتوضّأ فغسل وجهه ويديه ومسح رأسه، ومسح على الخفّيْن»[١]. [ينسب ذلك إلى رسول الله].

وفي مسند أبي داوود: «عن عمر بن وهب الثّقفي، عن المغيرة بن شعبة، قال رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) مسح على العمامة والخفّين!!!»[٢].

في مسند ابن المبارك: «... عن قطبة بن مالك قال: نالَ المغيرةُ بن شعبةَ من عليّ بن أبي طالب، فقال له زيد بنُ أرقم، أما إنّك قد علمت أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) كان ينْهى عن شتم الهلْكى فلِمَ يسُبّ عليّا وقد مات؟»[٣].

بل إنّ المغيرةَ نفسَه يروي في النّهي عن سبّ الأموات[٤]:

«...حدّثنا وكيع، حدّثنا سفيان، عن زياد بن علاقة، عن المغيرة بن شعبة، قال: نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) عن سبّ الأموات. حدّثنا عبد الله، حدّثني أبي، حدّثنا أبو نعيم، حدّثنا سفيان عن زياد، قال سمعت المغيرة

---

(١) صحيح البخاري: ج١ ص٥٣.
(٢) مسند أبي داوود: ص٩٥.
(٣) مسند ابن المبارك، عبد الله المبارك: ص١١١.
(٤) مسند أحمد بن حنبل: ج٤ ص٢٥٢.

بن شعبة، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): لا تسبّوا الأموات فتؤذوا الأحياء»[١]. حدّثنا عبد الله، حدّثني أبي، حدّثنا عبد الرّحمن، حدّثنا سفيان عن زياد بن علاقة، قال سمعتُ رجلاً عند المغيرة بن شعبة، قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلم): لا تسبّوا الأموات فتؤذوا الأحياء[٢].

وفي مسند أبي داوود: «عن الحُرّ بن الصّباح النّخعيّ، قال: سمعتُ عبد الرّحمن بن الأخنس، قال: شهدتُ المغيرة بن شعبة يخطبُ فنالَ مِنْ عليّ (رضي الله عنه) فقام سعيد بن زيد...»[٣].

وفي المُصنَّف للصّنْعانِيّ: عن عثمان بن أبي سويد، أنّه ذكر لعمر بن عبد العزيز المسح على القدمين فقال: لقد بلغني عن ثلاثة من أصحاب محمّد (صلى الله عليه وسلّم) أدناهم ابنُ عمّك المغيرةُ بنُ شُعبة، أنّ النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) غسل قدميْه»[٤].

وفيه أيضا: «عن المغيرة بن شعبة أنّه استأذن رجلٌ على النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) وهو بين مكّة والمدينة؛ فقال قد فاتني الليلة حزْبي من القرآن وإنّي لا أوثر عليه شيئا»[٥].

ورد فيه أيضاً: «... عبيد، عن زياد بن جبير، عن أبيه، عن المغيرة بن شعبة، قال: السّقطُ يُصلّى عليه ويُدعى لأبويه بالعافية والرّحمة»[٦].

---

(١) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٤ ص٢٥٢.

(٢) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٤ ص٢٥٢.

(٣) مسند أبي داود الطيالسي، سلمان بن داود الطيالسي: ص٣٢.

(٤) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني: ج١ ص٢١.

(٥) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني: ج٣ ص٣٦٣.

(٦) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني: ج٣ ص٥٣٠.

وفي الآحاد والمثاني للضحاك: «... عن قيس بن أبي حازم، عن المغيرة بن شعبة، قال: ما سأل أحدٌ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلّم) عن الدّجال أكثر ما سألته عنه!!»[1].

وفيه (ص ٢٠٠) أن رسول الله ﷺ انْتَهَرهُ فشكا ذلك إلى عمر!!

وفيه (ص ٢٠١) إنّي آخر النّاس عهدا برسول الله (صلى الله عليه وسلّم)... وقد سبق تكذيب عليّ عليه السلام له، وقوله إنّ آخر النّاس عهدا برسول الله ﷺ قُثَمُ بنُ عبّاس. ومثله في تاريخ الطبري و٢: ٢٣٩ و٢: ٤٥٣.

وروى ابن عساكر ما يلي:

«... سلمة وعلي، عن ابن إسحاق، عن عمران بن أبي كثير، قال: قدمتُ الشّام فإذا قبيصة بن ذؤيب قد جاء برجُل منْ أهل العراق، فأدخلَهُ على عبد الملك بن مروان فحدّثه عن أبيه، عن المغيرة بن شعبة أنّه سمع النّبيَ (صلى الله عليه وسلّم) يقول إنّ الخليفة لا يُناشَد، قال فأُعطيَ وكُسيَ وحُبيَ، قال فحكّ في نفسي شيءٌ فقدمْت المدينة فلقيتُ سعيدَ بن المسيّب فحدّثتُه فضرب يدَه بيَدي، ثم قالَ قاتلَ الله قبيصةَ كيف باعَ دينَه بدُنيا فانية، والله ما من امرأة من خُزاعَة قَعيدَة في بيتها إلاّ قد حفظتْ قولَ عمرو بن سالم الخُزاعي لرسول الله (صلى الله عليه وسلّم) اللهمَ إنّي ناشدٌ محمّدا حلْفَ أبينا وأبيه الأتلدا أفَيُنَاشَدُ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلّم) ولا يناشَدُ الخليفة؟ قاتل الله قبيصة كيف باع دينه بدنيا فانية»[2].

وفي تاريخ الطبري:

---

(١) الآحاد والمثاني، الضحاك: ج١ ص٥٤.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٣ ص٥١٩.

«وقال المغيرة بن شعبة لمّا دُفن عُمر أتيتُ عليّاً، وأنا أحبّ أنْ أسْمع منه في عُمر شيئاً، فخرج ينفُضُ رأسَه ولحيتَه وقد اغتسلَ وهو مُلتحفٌ بثوْب لا يشكّ أنّ الأمر يصيرُ إليه، فقال: يرحمُ الله ابن الخطّاب، لقد صَدَقَت ابنةُ أبي حثمَة، لقد ذهبَ بخيرِها ونَجا مِن شرّها، أما والله ما قالتْ ولكن قُوِّلت!!»[1].

وأيضا في تاريخ الطبري:

«ثم لقي عليّاً، فقال: إنّ عبد الرّحمن رجل مجتهد، وليس والله يبايعك إلاّ بالعزيمة فاقبل فلذلك قال عليٌّ خُدْعة، قال: ثمّ انْصرفَ بعُثمان إلى بيت فاطمة ابنة قيسٍ فجلسَ والنّاس معه، فقام المغيرة بن شعبة خطيباً، فقال: يا أبا محمّد، الحمد لله الذي وفّقك، والله ما كان لها غيرُ عثمان، وعليّ جالسٌ، فقال عبد الرّحمن: يا ابن الدبّاغ ما أنت وذاك، والله ما كنتُ أبايعُ أحداً إلاّ قلتَ فيه هذه المقالة!»[2].

هذا رأيُ عبد الرّحمن بن عوف في ابنِ الدبّاغ بمحْضر الصّحابة، ومن بينهم بعض المبشّرين بالجنة، ولم يعترض عليه أحد، ولم يَردّ عليه أحد!؟

وفي كتاب السّقيفة وفدك:

«قال المغيرةُ بنَ شعبة، لعثمان: أما والله لوْ بُويعَ غيرُك لما بايعْناه، فقال عبد الرّحمن بن عوف: كَذبْتَ، والله لو بُويعَ غيرُه لبايعْتَه، وما أنْت وذاكَ يا ابن الدبّاغة والله لو وليَها غيرُه لقلتَ لهُ مثلَ ما قلتَ الآن، تقرّباً إليه وطمعاً في الدّنيا، فاذهبْ لا أبا لك. قال المغيرةُ: لولا مكانُ أمير المؤمنين لأسمعْتُك

(١) تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٨٥.
(٢) تاريخ الطبري: ج٣ ص٣٠٢.

ما تكرهُ، ومَضَيا»[١].

وهذه شهادةٌ من عبد الرّحمن بن عوف أحد العشرة المُبشّرين بالجنّة، يقول له: [تقرّباً إليه وطمعاً في الدّنيا] وليتَ المغيرةَ أسْمعَ عبدَ الرّحمن بنَ عوف المُبشّر بالجنّة ما يُكرهُ، فيستفيد من ذلك الباحثون والمحقّقون من هذه الأمّة ممّن لا تأخذهم في الله لومة لائم.

ومن كلام المغيرة:

في المستطرف: «قال المغيرة بن شعبة: اشكُرْ منْ أنعمَ عليك وأنعمْ على من شكرَك، فإنّه لا بقاء للنّعم إذا كفرت ولا زوالَ لها إذا شكرت!»[٢].

وقد كان المغيرة من خيرة الشّاكرين وهو الأعرابيّ الذي قَتلَ رُفقاءَه في السّفر غدْراً، ثم انضمّ إلى جيش رسول الله ﷺ حقْناً لدَمه، ثم أصبحَ فيما بعدُ أميراً على الكوفة، وفيها مَن فيها من الصّحابة والقُرّاء... فكان من شُكرِه لله على ذلك أنْ وظّفَ خُطباء يلْعنون عليّ بن أبي طالب عليه السلام!

المغيرة والرّياء:

في مسند أحمد: «عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أظُنّ المغيرةَ بن شُعبة يحدّثكم أنّه كان أحدثَ النّاسَ عهداً برسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قالوا: أجلْ عن ذلك، جئْنا نسألُك، قال: أحدثُ النّاسِ عهداً بِرسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قُثَمُ بن عبّاس»[٣].

وقد روى ابنُ سعدٍ وغيرُه ما يُكذّب المغيرةَ في دعواه.

---

(١) السّقيفة وفدك، الجوهري: ص٨٧

(٢) المسْتطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي: ج١ ص٥٠٥.

(٣) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج١ ص١٠١.

والمسألةُ نفسُها في تاريخ الطبري: «قال ابن اسحاق: وكان المغيرة بن شعبة يدّعى أنّه أحدث النّاسِ عهْداً برسول الله (صلى الله عليه وسلّم) ويقول: أخذتُ خاتمي فألقيتُه في القبْر، وقلت: إنّ خاتمي قد سقطَ وإنّما طرحتُه عمْداً لأمسّ رسول الله فأكونَ آخرَ النّاس به عهْداً. حدّثنى ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن محمّد بن إسحاق، عن أبيه إسحاق بن يسار، عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن مولاه عبد الله بن الحارث، قال: اعتمرْتُ مع عليّ بن أبى طالب في زمان عُمر أو زمان عُثمان، فنزلَ على أختِه أمّ هانىء بنتِ أبى طالب، فلمّا فرغَ منْ عمْرته رجع، وسكبت له غسلا فاغْتسلَ، فلمّا فرغ من غسله دخل عليه نفرٌ من أهل العراق، فقالوا: يا أبا الحسن جئناك نسألُك عن أمرٍ نُحبّ أن تُخبرنا به، فقال: أظنّ المغيرة يحدّثكم أنّه كان أحْدثَ النّاسِ عهْداً برسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، قالوا: أجل عن ذا جئناك نسألك، قال: كَذَبَ كان أحدثُ النّاس عهْداً برسول الله قثمَ بن العباس»[1].

قال ابن عبد البرّ: «وأصحّ ذلك أنّه نزل في قبره العباسُ عمّه وعليّ رضي الله عنهما معه وقُثم بن العبّاس والفضْل بن العباس، ويقال كان أوس بن خولي وأسامة بن زيد معهم، وكان آخرَهم خروجاً من القبر قثمُ بن العباس، وكان آخرَ النّاس عهدا برسول الله، ذكر ذلك ابن عباس وغيره، وهو الصحيح، وقد ذُكر عن المغيرة بن شعبة في ذلك خبرٌ لا يَصِحّ، أنْكرَهُ أهلُ العلمِ ودفعوه»[2].

---

(١) تايخ الطبري، الطبري: ص٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(٢) الاستيعاب، ابن عبد البر: ج١ ص٤٨.

وقال أيضا في ترجمة قثم بن العباس: «واستشهد قثم بسمرقند، قال ابن عبّاس: هو آخر النّاس عهداً برسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، وذلك أنّه كان آخر من خرج من قبره ممّن نزل فيه، وقد ادّعى ذلك المغيرة بن شعبة لقصّة ذكرها، فأنكر ذلك ابن عبّاس وقال: آخر النّاس عهداً بالنّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) قثم بن العبّاس، وقد روى عن عليّ مثل ذلك سواء فى أنّه أنكر ما ادّعى المغيرة من ذلك وقال: آخر النّاس عهداً بالنّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) قثم بن العبّاس»[1].

وفي الاستيعاب أيضاً:

«عن أبي عمران الجونيّ عن أبي عسيم، قال: لمّا قبض النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) قالوا: كيف نصلّي عليه، قال: ادخلوا من هذا الباب أرسالاً أرسالاً ثم صلّوا عليه، واخرُجُوا من الباب الآخر، قال: فلمّا وضعُوه في لحْده، قال المغيرة بن شعبة، إنّه قد بقيَ من قِبَل قدميْه شيءٌ لم يصلح قالوا فادخَلْ فأصلحْه فدخل فمسْ قدمَي النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم)»[2].

تارة يقولُ المغيرةُ: أخذتُ خاتَمي فألقيتُه في القبر وقلتُ: إنّ خاتمي قد سقط، وإنّما طرحته عمْداً لأمسّ رسول الله فأكون آخر النّاس به عهداً، وتارةً يقول: إنّه قد بقيَ من قِبَل قدمَي النّبيّ شيءٌ لم يصلح [قالوا فادخل فأصلحْه] فدخلَ فمسّ قدمَي النّبيّ ﷺ.

إنّ الرجل لِضَعَته وإفلاسه من القيَم لا يُبالي أن يُحاول استغْلال أعظم مصيبة حلّت بالمسلمين لإشباع رغْبَةِ الرّياء والسّمعة في نفسِه. فهُوَ مُتّهم

(١) نفس المصدر: ج٣ ص١٣٠٤.

(٢) الاستيعاب، ابن عبد البر: ج٤ ص١٧١٥.

بالزّنا، والنّاس أمثال عبد الرّحمن بن عوف والمصريّين يُنادونه يا "أعور"، وعمر بن الخطاب يَجْبَهُه بقوله: "أنت رجل فاسق"، فأيَ سبيلٍ إلى المعالي والهِمَم بعد هذا إلاّ الكذب ولا شيء غير الكذب! وبينما يَحزنُ المسلمون لوفاة النّبيّ ﷺ وانقطاع الأخبار من السّماء، يُخطّط المغيرة كيف يفتخرُ على غيره من النّاس بأنّه آخرُهم عهداً برسول الله ﷺ.

وفي تاريخ الطبري:

«... وهم خمسة معهم ابن عمر، وطلحة غائب، وأمَرُوا أبا طلحة أن يحجبهم، وجاء عمرو بن العاص والمغيرةُ بن شعبة فجلسا بالباب فَحَصَبَهُمَا سعْد وأقامَهما، وقال: تريدانِ أنْ تقولا حضرْنا وكُنّا في أهل الشّورى ...»[1].

أقول: ما أعرفَ سعْداً بحالِ المغيرة وعمرو بن العاص، وهذه شهادةٌ تزيد المؤمنين إيماناً!

وذكر ابن عساكر ما يلي:

«... قال المعافى: وقد روينا بإسناد لم يحضر الآن، ولعلّه يأتي فيما بعد، أنّ المغيرة بن شعبة خطبَ حرقةَ هذه، فقالتْ له: إنّما أردْت أن يُقال تزوّج ابنةَ النّعمان بن المنْذر، وإلاّ فأيّ حظّ لأعورَ في عمْياء!!»[2]؟

وفي المستطرف «وحُكيَ أنّ المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة سار إلى دير هند بنت النّعمان، وهي فيه عمياء مترهّبة، فاستأذن عليها، فقالت: من أنت، قال: المغيرة بن شعبة الثقفي، قالت: ما حاجتك، قال: جئت خاطباً

---

(١) تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٩٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٢ ص٢٧٦.

قالت: إنّك لم تكن جئتني لجمال ولا مال ولكنّك أردْتَ أن تتشرّف في محافل العرب، فتقول: تزوّجْتُ بنتَ النّعمان بن المنذر، وإلاّ، فأيّ خير في اجتماع عمياء وأعور»[1].

والقصّة نفسها في الأغاني:

«... وكانتْ وفاتُها بعد الإسلام بزمان طويل في ولاية المغيرة بن شعبة الكوفةَ، وخطبَها المغيرة فردّته، أخبرني عمّي، قال: حدّثني ابن أبي سعد قال: حدثنا عليّ بن الصّباح، عن هشام بن محمّد بن الكلبيّ، عن أبيه والشرفيّ بن القطاميّ قالا: مرّ المغيرة بن شعبة لمّا ولاّه معاوية الكوفة بدير هند، فنزلَه ودخلَ على هند بنت النّعمان بعد أن استأذن عليها، فأذنت له وبسطت له مسْحاً فجلس عليه، ثم قالت له: ما جاء بك، قال: جئْتك خاطباً قالت: والصّليب، لو علمْتُ أنّ فيّ خصلة من جمال أو شباب رغّبْتك فيّ لأجبْتُك، ولكنّك أردْت أن تقول في المواسم ملكْت مملكة النّعمان بن المنْذر ونكحْت ابْنته، فبحقّ معْبودك أهذا أردْت، قال: أيْ والله، قالت: فلا سبيل إليه، فقام المغيرة وانصرف، وقال فيها:

أدركت ما منّيتُ نفسي خالياً	لله درّك يابْنةَ النّعْمَان
فَلَقَدْ رددْت على المُغيرة ذهْنَهُ	إنّ الملوكَ نَقيّةُ الأذْهَان
يا هِنْدُ حَسْبُكِ قدْ صدقْتِ فَأَمْسكي	فالصّدْقُ خيْرُ مَقَالَةِ الإنسان[2]

وفي رواية أخرى إنّ الملوكِ بطيّة الأذْعَان

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي: ج٢ ص٤٨٢.

(٢) الأغاني: ج٢ ص١٢٤.

وإلى هذه القصّة أيْضاً أشارَ ياقوتُ الحَمَويّ بقوله: «وهِنْد هـذه صـاحبة القصّة مع المغيرة بن شعبة»[١].

هذه القصّة تؤكّد سوء نيّة المغيرة وبحثَه عن السّمْعة، على مـذهبِ مـن قال: "الغايةُ تُبرّر الوسيلة"، حتى لو اقْتضى ذلك الزّواجَ مـنْ عجـوزٍ عمْيـاء؛ المُهمّ أنْ يُقال إنّه تزوّجَ بنتَ ملكٍ منْ ملوك العـرب. ولله درّ هـذه العربيّـة التي حافظت على أخْـلاق بَنـاتِ الملـوك وأوْجعـتْ قلْبـه بتلْـك الكلمـة الصّريحة القَارصَة، وأخبرتْه بما في نفْسه مَن خبْث الطّويّـة، حيـثُ قالـتْ: إنّما أردْت أنْ يُقال تزوّج بنْت النّعمان بن المنْذر! مثلُ هذه المرأة أوْعى منْ كثير منْ أهْل زماننا الذين يُطالعون بأعْيُنهم كلّ المُوبقات التـي أقْـدم عليهـا المغيرة، ومع ذلك يبْقى في أعْيُنهم جليلَ القدر، وفوقَ كلّ اعْتبار ويـسألون الله تعالى أن يرْضَى عنه ويرْفع مقامَه. يسألون الله تعالى ذلـك ولا يعتـريهم حياءٌ وهُم يتلون قوله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَـنِ الْقَـوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. وقد شهد عمر بن الخطّاب وأهل الكوفة بفسق المغيرة.

المهمّ عند المغيرةِ بنِ شُعبة أن يقال آخر النّاس عهـداً برسـول اللهﷺ، ويقال حضر الشّورى، ويقال تزوّج بنت النّعمان. المهمّ أن يقال في الأرض، لا ما يكونُ عليه الأمر في السّماء، وهذا ما يُتوَقّعُ ممّن هـو محجـوبٌ عـن السّماء.

وفي تاريخ دمشق:

«... عبدالملك بن عبيـد الله الثّقفـي، عـن أشـياخ مـن ثقيـف والهـذليّ

---

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي: ج٢ ص٥٤٢.

ويعقوب بن داود، عن أبيه وغيرهم يزيد بعضهم على بعض، أنّ المغيرة بن شعبة، قال لزياد وهو بفارس وجّهَهُ إليه معاوية: أبا المغيرة خذْ لنفسك من هذا الرجل قال أشرْ، عليَّ فإنّ المُستشار مؤتمن، قال: أرى أن تنْقلَ أصْلك إلى أصْله وتَصلَ حبْلك بحبْله، وتُعيرَ النّاس منْك أُذناً صمّاءَ، قال: قلتَ: ما لا يكونُ يا ابْنَ شُعبة مغرسٌ في غيْر منْبته لا عرق يسْقيه ولا مَدرةَ!!»[1].

لا بأسَ أنّ يُعير زياد النّاسَ منْه أذنا صمّاء، لكنْ ما العملُ مع قول النّبيّ ﷺ: الولدُ للفراشِ وللعاهرِ الحجر؟ وقولِ الله تعالى (ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ...) وهلْ هناك أرذَلُ ممّن ينتفي من أبيه لينتسبَ إلى زانٍ؟ وإنّما فضحَ اللهُ أعداءَ الإمامِ عليّ عليه السلام، فأحَدُهُم ينْتَفي منْ أبيه، والآخَرُ يرتكبُ أقْبحَ العُقوق فيَشْهدُ على أبيه بالزّنا، وثالثٌ بيْنهما يُزيّنُ ذلك ولا حولَ ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

وفي تاريخ دمشق:

«محمّد بن هارون الحضرمي أخبرنا بندار، أخبرنا ابن أبي عدي عن داود بن أبي هند، عن عامر الشعبي، قال: قال المغيرة بن شعبة لأبي عبيدة بن الجراح: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) استعمَلك عليْنا، وإنّ ابْن النّابغة قد ارتَبَع أمْر القوْم ليْس لك معه أمْر، قال: فقال أبو عبيدة: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أمَرنا أن نتطاوع، فأنا أطيعُه لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وإنّ عصى عمرو بن العاص»[2].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر: ج١٩ ص١٣٠.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢٥ ص٤٤٨.

وفيه أيضاً:

«... وأنا محمّد بن سعد، أنا محمّد بن حرب المكي، نا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن أبي جعفر محمّد بن علي، أن العبّاس جاء إلى عمر فقال له: إن النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) أقْطَعَني البَحْرَين، قال: من يعلمُ ذلك، قال: المغيرة بن شعبة، فجاء به فشهد له، فقال: فلمْ يمْض له عمر ذلك كأنّه لم يقبَل شهادته، فأغْلَظَ العبّاسُ لعُمر، فقال عمر: يا عبد الله خذ بيد أبيك، وقال سفيان عن غير عمرو، قال قال عمر: والله يا أبا الفضل لأنا بإسلامك كنت أسرّ منّي بإسلام الخطاب لو أسلم لمرضاة رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)»[1].

لقد كبُرَ على ابن عساكر أن يردّ عمر شهادة المغيرة، فقال: كأنّه لم يقبل شهادته، والحالُ أنّه لم يقبلْها فعلاً، ولكن لا بدّ من المحافظة على عدالة الصّحابة ولو بما يضحك الثكلى. ولمْ يذْكر ابن عساكر مضمونَ ما أغلظَ به العبّاسُ لعُمَر.

وفيه:

«... بن الحسين أخبرنا أحمد بن الحارث، أخبرنا أبو الحسين، عن عثمان بن مقسم، قال:قال المغيرة بن شعبة لعُمر أدلّك على القويّ الأمين، قال: بلى قال عبد الله بْن عُمر، قال: ما أردتَ بقولك هذا، والله لأنْ يموت فأكفّنه بيَدي أحبّ إليّ منْ أنْ أولّيه وأنا أعلم أن في النّاس من هو خير منه»[2].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢٦ ص٣٧١.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣١ ص١٧٨.

ولا يفوتُ التنبيهُ هُنا أنّ عُمر رشّح يوم الشّورى منْ يعلَمُ أنّ في الأمّة من هوَ خيرٌ منه، وأزاحَ بطريقةِ غيرِ مُباشرةٍ منْ هُو مِن رسول الله ﷺ بمنزلةِ هارونَ من موسى.

قال ابن شبّة في تاريخ المدينة:

«قدم المغيرة بن شعبة على عثمان (رضي الله عنه) بمالٍ من الكُوفة، فقال له أصحابُه: كيف رأيتَ سرورَ أمير المؤمنين بما قدمتَ به عليه؟ قال: رأيتُ له وجهاً لا يرُدّني على الكوفة أبداً. قال: وما يُدريك؟ قال هو ما أقول لكُم. وجعلَ المغيرةُ لِبخران حاجبِ عُثمانَ جعْلاً على أنّ يأتيَه بخبَر منْ يَستعْمل عثمانُ إذا استعمَلَ أحداً على الكوفة. فأتاه فقال: فقد استعمَل سعدَ بن أبي وقّاص. فأتى المغيرةُ عثمانَ فقال: يا أمير المؤمنين هَل شكَاني إليك أحدٌ، أو بلغَك عنّي أمرٌ كرهتَه؟ قال: وما ذاك؟ قال: لمَ عزلْتَني واستعملتَ سعْداً؟ قال: وكان ذاك؟ قال: نعم. قال: ومنْ أخبرك؟ قال: الأمر أشْيَعُ من ذاك. فأرسل عثمانُ إلى سعْد فأتاه، فقال: هل أعلمْتَ أحداً؟ قال: لا. فأرسل إلى المغيرة فقال: والله لتخبرنّي منْ أخبرك أو لأسيلَنّ دمَك قال: لأقصّنّ لك، فأخبرَه. فدعا ببخران فضربَه ستّين سوطاً، وحلَق رأسَه، وأمَر أنّ يُطاف به في السّوق. فقال هوذة السّلمي:

لا بَعْدَ بخرانَ يُفْشي سرّنا مَلكٌ ... ستّونَ سوْطاً ورأسٌ بعدُ محلوقُ
وطِيفَ في السّوقِ أعْلاهَا وأسْفِلها ... لمْ يلْقَهُ قبْلَه في النّاس مَخلوقُ

قال: فعاب ذلك ناسٌ من أصحابِ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فأعْتَقه»[1].

---

(١) تاريخ المدينة، ابن شبه النميري: ج٣ ص١٠٣٠.

يرفأ في أيّام عمَر، ثمّ بحْرانٌ في زَمَن عثمان. ويفعلُها المُغيرةُ ويدفعُ ثمنَها بحران! لأنّه لا سبيلَ على منْ شاركَ في الهجوم على بيت فاطمةَ بنت رسول الله ﷺ. على أنّ ههُنا مسألةً طريفةً، وهي قولُ المغيرة لعثمان: الأمرُ أشْيَعُ من ذاك!! يريد بذلك أنّ القضيّة شائعة دائعة بين النّاس، فهل كان الأمر كذلك؟ "أشْيَعُ من ذلك"؟ هل كان غيرُ عثمان وبحران وسعد بن أبي وقّاص والمغيرة على علم بذلك؟ أمّا سعْد فلكوْنه المُعيّنَ للولاية بحضور بحْران، وأمّا بحران فلكوْنه حاجبَ عثمان، وعثمان لكونه الخليفة الحاكمَ الذي ينصب ويعْزل، فأين محلّ المغيرةُ من الإعراب؟؟؟

لَقد تجسّس المغيرة في هذه الواقعة، وكَذب على عثمان في دعوى شُيوع الخَبر، ورمى بحران بفعلة كان هُوَ وراءَها، فهل عاتبَه عثمان على واحدة منْهن؟ وقدْ عابَ ذلك ناسٌ من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فأعْتَقَهُ لكن بعد أن طيف به في السّوق محلوقَ الرأس، وبعد أن ضُربَ ستّين سوطاً، وهو ما يعني سقوط عدالة الشّخص واخترام مروّته.

إنّ القرآن الكريم يهتفُ ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾، لكنْ إذا وقَع التجَسّس من طرَف صحابيّ تُقَدّم صيانةُ قداسة الصحابيّ ويُؤخّرُ العملُ بكتاب الله!!

قال المَقْدسيّ:

«ووقع الاختلاف في النّاسِ فانْحاز هذا الحيّ من الأنصار إلى سعد بن عبادة سيّد الخزرج، واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وانحاز عليّ ﷺ وطلحة والزّبيْر في بيت فاطمة ﷺ، وانحاز سائر المهاجرين إلى أبي بكر. كلٌّ يدّعي الإمارة لنفسه، فجاء المغيرة بن شعبة، فقال: إنْ كان لكمْ بالنّاس حاجة فأدْركوهم! فتركوا رسولَ الله ﷺ كما هُو، وأغْلقوا الباب دونَه [!]

وأسرع أبوبكر وعمر وأبوعبيدة بن الجراح إلى سقيفة بني ساعدة»[١].

ومن أخبار المغيرة بن شعبة:

سبق ذكرُ بعض ما أتى به المغيرة من زنا ورشوة ومكر وخداع وسبٍّ لأولياء الله تعالى، وغدر برفقائه في السّفر، ولا بأس أن يُضافَ إلى ذلك ما ينمّ عن سفاسف أخلاقه من بُخلٍ وشبَقٍ و...:

في الأدب المفرد: «عن أبي إسحاق، عن المغيرة بن شعبة، قال رجل: أصلحَ الله الأميرَ إنّ آذنَكَ يَعرف رجالاً فيؤثرهم بإذن، قال عذرَهُ الله إنّ المعرفة لَتَنْفَعُ عند الكلبِ العقُور وعند الجملِ الصّؤول»[٢].

لا يكتفي المغيرةَ ههنا بتصويب فعلِ آذنه، بل يضربُ لذلك الأمثال، مع ما في ذلك منَ التّشويشِ على أفكار النّاس، باعتباره رجلاً رأى رسول الله ﷺ وسمع منه. فالذين شكَوا إليه سلوكَ الآذن لو كانُوا يعلمون أنّ جوابه لنْ يعْدُوَ موافقتَه لَمَا فعلوا، والمفروضُ من باب الأدب أن يُظهر اشْمئزازهُ من ذلك، ولكنْ للمغيرةِ سوابقُ مع آذن عُمر (يرفأ) الذي قبلَ رشْوَتَه وجعل يُقدّمه على النّاس كلّما حضر ولا يبعدُ أن يكونَ يُطلعه على أمور منْ أُمور عُمر مع المُسلمين. والوجْدانُ يشهدُ بعكس ما ذهب إليه المغيرة حتى في البلدان التي لا يَدين أهلها بدين سماويّ. فقضيّةُ الصّفّ (النّوبة والدّور) في الصيدليّات والعيادات الطبيّة والمكاتب الإداريّة في عصرنا متّفقٌ عليها على الرّغم من تَبايُن الثّقافات واللّغات، وهُوَ ما يفسّر أنّ

---

(١) البدأ والتاريخ، المقدسي: ج٥ ص٦٥.

(٢) الأدب المفرد، البخاري: ص٢٧٦.

مسألة السّبق مرتكزةٌ في العقول السّليمة.

وقد قال الشعراءُ في هذا الباب فأكْثروا، وكلّ ما قالوه يشهدُ على المغيرةِ بفسادِ الذّوْق وسوءِ الفهْم والبعْد عن الخلق الكريم، قال الأبشيهي:

«ومن محاسن النّظم في ذمّ الاحتجاب قوْل بعضِهم:

سأهجُرُكمْ حتّى يَلينَ حجَابُكمْ ... على أنّهُ لا بُدّ سَوْفَ يَلينُ

خُذُوا حِذْركمْ منْ صَفْوَةِ الدّهْر إنّهَا ... وإنْ لمْ تَكنْ خَانتْ فسَوْفَ تَخُونُ

وقال آخر:

ماذا على بوّاب داركُمُ الذي ... لمْ يُعْطنَا إذْناً ولا يُستأذَنُ

لوْ ردّنَا رداً جَميلاً عنْكُمْ ... أوْ كَانَ يَدْفعُ بالتي هي أحْسَنُ

وقال آخر:

أَمرْتَ بالتّسهيلِ في الإذنِ لي ... ولَمْ يَرَ الحاجبُ أنْ يَأذَنّا

فَلَنْ تَرَاني بَعْدَهَا عَائداً ... ولنْ تراهُ بَعْدُ مُستَأذَنَا

وقال آخر:

ولقد رأيتُ بباب داركَ جَفْوةً ... فيها لحسْنِ صنيعك التّكْديرُ

ما بالُ داركَ حينَ تُدْخَلُ جَنّة ... وبِبابِ داركَ مُنْكرٌ ونَكيرُ

وقال آخر:

إذا جئتُ ألقى عند بابك حاجباً ... محيّاه منْ فرْط الجهالة حالكُ

ومِنْ عَجبٍ مَغْناكَ جنّة قاصدٍ ... وحاجبُها منْ دُونِ رضْوانِ مالِك

وقال آخر:

سأتركُ باباً أنتَ تملكُ إذْنَه ... ولوْ كنتُ أعمى عنْ جميعِ المسالكِ
فلو كنتَ بوابَ الجنانِ تركتُها ... وحولتُ رحْلي مُسْرعا نحْو مالكِ

وقال آخر:

ماذا يُفيدكَ أنْ تكونَ محجّبا ... والعبدُ بالبابِ الكريمِ يلُوذُ
ما أنتَ إلاّ في الحصارِ معي فلا ... تتعبْ فكُلّ مُحاصَرٍ مأخُوذُ

وقال أبو تمام:

سأتركُ هذا البابَ ما دامَ إذْنُهُ ... على ما أرى حتّى يلينَ قليلا
فما خابَ منْ لمْ يأتهِ مُتعمّدا ... ولا فازَ منْ قدْ نالَ منْه وُصُولا
إذا لمْ نجدْ للإذْنِ عندكَ موْضعاً ... وجدْنا إلى تركِ المجيءِ سبيلا[1]

والقولُ في هذا الباب كثيرٌ، ويدلُّ على ذوْق عالٍ وفهمٍ سليم وتَعلّق بالكرامة وترفّع عن التّملّق. والمغيرةُ أعلمُ بالنّاس بالأَدنين والحجّاب، وهو أوّل من رَشَاهُمْ، ويرفأ غُلامُ عُمر أوّلُ من استجاب له منهم.

وفي مكارم الأخلاق: «... سمعتُ عيسى بن يزيد بن بكر قال: سأل الوليدُ بن عقبة مروانَ وهُو على المدينة، فاعتلّ عليْه، فقدم على المغيرةِ بن شُعبة وهُو على الكوفة، فأمرَ لهُ بعشْرينَ ألفاً فأبى أنْ يقبَلَها، فأتى ابنَ عامر فشكا إليْه دَيْنَهُ، فقال: كَمْ هُوَ، قال: مئةُ ألفٍ، فقضاهُ عنْهُ وأعطاهُ مئةَ ألفٍ أخرى، فقال الوليد:

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي: ج٢ ص٢١٠ ـ ٢١١.

ألا جعـلَ الله المغـيرةَ وابْنَـه ومروانَ نَعْلَيْ بذْلَـة لابْـن عـامر
لكيْ تقيَـاهُ الحـرّ والقـرّ والأذى ولسْعَ الأفاعي واحتدامَ الهواجرِ[١]

وأبياتاً أخرى. وإنّما ارتحلَ الوليدُ إليه من المدينة رجـاءَ أن يُعينَـه علـى قضاء دَيْنه، كما يدلّ عليه كلامُه مع ابنِ عامر، ويَقبُح بالأمير أنْ يكـونَ فـي الرعيّةِ منْ هُوَ أجْوَدُ منه وأسْخى مع سَعَةِ اليَد. وكلّ إناء بالذي فيه يَنضحُ.

وفي سنن النسائي: «... عن ابن أبي الخليل، عن عليّ، قال: كـان المغيـرةُ بن شعبة إذا غزا مع النَّبيّ (صلى الله عليه وسـلّم) حَمَـلَ معَـهُ رُمْحـاً، فـإذا رجعَ طَرحَهُ كَيْمَا يُحْمَلَ! فقال له عليّ: لأذكرنّ هذا للنبـيّ (صـلى الله عليـه وسلّم): فقال له: لا تفعلْ، فإنّك إذا فعلتَ لمْ تُحملْ ضالّة»[٢].

وفي مسند أبي يعلى: «... عن زياد بن علاقة، قال سمعت جرير بن عبد الله حين ماتَ المغيرةُ بنُ شعبة واستُعمل، فرأيـتُ جريـراً يخطُـب، فقـال: أوصيكُم بتقوى الله وحده لا شريك له وأن تسْمعُوا وتُطيعوا حتى يأتيَكم أميرٌ، قال ثمّ ذكر المغيرةَ فقال: استغفرُوا له عفا الله عنه، فإنه كان يُحبّ العافية»[٣].

أقول: وكان يحبّ سبّ عليّ عليه السلام والنّيل منْه أيْضاً، وهو يعلم أنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله قال: من سبّ علياً فقد سبّني ومن سبّني فقد سبّ الله تعالى. فـإن ترضَوا عنهم فإنّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

في تاريخ المدينة: «قال عبد العزيز: توفيت صفيّة فدُفنت في آخر الزّقاق

---

(١) مكارم الأخلاق، ابن أبي الدّنيا: ص٤٦٠.

(٢) السّنن الكبرى، النّسائي: ج٣ ص٤١٧.

(٣) مسند أبي يعلى: ج١٣ ص٤٩٨.

الذي يخرج إلى البقيع، عند باب الدار التي يُقال لها دار المغيرة بن شعبة التي أقطعَهُ عُثمان بن عفّان (رضي الله عنهما)، لازقاً بجدار الدار ـ قال عبد العزيز: فبلغَني أنّ الزّبيْر بن العوام جاز بالمغيرة وهو يبني داره، فقال: يا مغيرة، ارفعْ مطْمرك عنْ قبْر أمّي. فأدخل المغيرة جداره، فالجدار اليوم مُنحرفٌ فيما بيْن ذلك الموْضع وبين باب الدار ـ قال عبد العزيز: وقد سمعتُ من يذكر أنّ المغيرة بن شعبة أبى أنّ يفعل ذلك، لمَكانه من عُثمانَ، فأخذ الزّبيْر السّيْف ثمّ قام على البناء، فبلغ الخبرُ عثْمانَ فأرسَلَ إلى المغيرة يأمُره بالمصير إلى ما أمرَهُ به الزّبيْر، ففَعلَ»(١).

وفي تاريخ المدينة أيْضا: «وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرّحمن: يا أبا محمّد قد أصبْتَ إذْ بايعْتَ عثمانَ، وقال لعثمان لو بايَعَ عبدُ الرّحمن غيركَ ما رضينا. فقال عبد الرّحمن: كذبتَ يا أعور! لو بايعْتُ غيْرَه بايعْتَ ولَقُلْتَ هذه المَقالة!!»(٢).

قال ابن عساكر: «أنبأنا أبو الحكم حدثني محمّد بن إدريس الشّافعيّ، قال: سمعت من يذكر أنّ المغيرةَ بن شعبة نظر إلى امرأته وهي تتخلّلُ من أوّل النّهار، فقال: والله لئن كانتْ باكرَت الغَداء إنّها لرغيبة وإن كان شئٌ بقِي في فيها من البارحة إنّها لقذرةٌ، فطلّقهاَ، فقالتْ: والله ما كان شيء مما ذكرتَ ولكنّي باكرتُ ما تُباكره الحُرّة من السّواك فبقيتْ شظيّة في فيّ، قال: فقال المغيرة بن شعبة ليوسف أبي الحجاج بن يوسف، تزوّجْها فإنّها لخليقةٌ أنّ تأتيَ بالرّجل يسُودُ، فتزوّجَها، قال الشّافعيّ: فأُخبرْتُ أنّ أبا

---

(١) تاريخ المدينة، ابن شبة النّمَيْري: ج١ ص١٢٦.
(٢) المصدر السابق: ج٣ ص٩٣١.

الحجّاج لمّا بنى بها واقعها، فنام فقيل له في النّوم ما أسرع ما ألقحت بالمُبير»[١].

تمتّع المغيرة بن شعبة بتأمّره على البدريّين، وإنفاقه المالَ على المغنّيات، وغرقَ في شهوَةِ النّساء، وتحدّى مشاعرَ المسلمين بسَبّ ولعْن عليّ بن أبي طالبعليه السلام كل ذلك بفضلِ المشاركةِ في الهجومِ على بيت فاطمةعليها السلام، وموالاة بني أميّة...

وأخيراً جاءت سكْرةُ الموْت بالحقّ، فانقطعتْ لذّاتُ المُغيرة بن شُعبة، وهلك عنْه سُلطانه، وتصرّمت أيّامه، وأقبل على الآخرة بصحيفة عنوانُها بغْضُ أهل بيت النبوّة ولعْنُ عليّ بن أبي طالبعليه السلام الذي لا يجوز أحدٌ الصّراط إلاّ بولايته.

قال الحاكم النيسابوري:

«(فحدّثني) الزّبيْر بن عبد الله البغداديّ، حدّثنا محمّد بن حماد، حدّثنا محمّد بن أبي السّريّ، حدّثنا هشام بن الكلبيّ، حدثني عبد الرحمن بن سعيدالكنْديّ، قال شهدنا جنازة المغيرة بن شعبة، فلمّا دلي في حفرته وقف عليها رجل، فقال: مَنْ هذا المَرْمُوسُ، فقلنا أميرُ الكوفة المغيرةُ بن شعبة فو الله ما لَبِثَ أن قال:

أرسمَ ديارٍ بالمُغيرة تعرف ... عليه رَوَابي الجنّ والإنس تعزفُ
فإنْ كنتَ قد أبقيتَ هامان بعْدنا ... وفرعوْن فاعْلمْ أنّ ذا العرْش يُنْصفُ

قال فاقْبلُوا عليْه يشْتمونه فوالله ما أدرى أي طريق أخذ وكانت ولايةُ

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢ ص١١٦.

المغيرة بن شعبة الكوفةَ سبع سنين»[١].

وفي البدء والتاريخ: «ذكر موتِ المغيرة بن شعبة: وقع الطّاعون بالكوفةِ فهرَب المغيرة بن شعبة ثمّ لمّا سكَن عاد فطُعن فمات، فقال أعرابيّ:

أرسم ديار للمغيرة تعرف | عليه دواني الإنْس والجنّ تعزف
فإن كنت قد لاقيْتَ هامانَ بعدنا | وفرعونَ فاعلمْ أنّ ذا العرش مُنصف[٢]

فعلى روايةِ الحاكمِ يكونُ المقصودُ بفرعونَ وهامانَ مُعاويةَ ورجلاً منْ حاشيته، وعلى روايةِ المَقْدسيّ (البدء والتاريخ) يكون المقصود بفرعون وهامانَ الجبّارين الذيْن وردَ ذكرُهما في القرآن الكريم، ويكون محلّ ملاقاةِ المغيرةِ إيّاهُما أوضحَ منْ نارٍ على عَلم.

---

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص٤٤٩.

(٢) البدء والتاريخ، المقدسي: ج٦ ص٣.

أبوبكرة

وتخصيص فصل مستقلّ لذكره إنّما هو لكونه أحد الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة بالزنا، وقد أصرّ على شهادته ولم يتراجع عنها حتّى مات. وهذا الإصرار من طرف صحابي مثله يستدعي بحثاً في جوانب شخصيته، ومن خلال تتبّع ما قيل في حقه من قبل المحدّثين والمؤرخين وأرباب التراجم والسبر يسهل الفحص في حاله للوصول إلى معرفة جواب سؤال طالما راود الأذهان. والسؤال هو: أيّ الرجلين أحرى أن يكون صادقاً أبوبكرة أم المغيرة؟

ولم يَرِدْ في كُتب الحديث وكُتب التاريخ ما يُشير إلى عداوة شخصيّة بين المغيرة بن شعبة، وأبي بكرة قبل شهادة الثاني عليه، حتّى يتسنّى تفسير موقفه بشيء منبثق عن ذلك.

قال ابن الأثير:

«أبوبكرة، وقيل مسروح، وقد تقدّم وهُو في قولٍ نفيعُ بن مسْروح، وقيل نفيع بن الحارث بن كلدة، وهو من عَبيد الحارث بْن كلدة عند من ينْسبُه إلى مسروح، وأمُه سُميّة، أَمَةٌ كانتْ للحارث بن كلدة الثّقفيّ، وهو أخو زيادٍ لأمّه، وقال الشّعبيّ: أرادُوا أبا بكرة على الدّعْوة فأبَى يغنى ينتسب إلى الحارث، وقال لبَنيه عنْد الموْت: انا مسروح الحبشيّ، وقال أحمد بن حنبل: أبوبكرة نفيع بن الحَارث، والأكثر يقولون هكذا، وقال أحمد بن حنبل، أملى عليّ هوذة بن خليفة نسبه فلمّا بلغ إلى أبي بكرة، قلت: ابن من قال لا تزدْه دعْه، وهو ممّنْ نزل يوم الطائف إلى النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم)

فأسلم، وروى عن النبيّ (صلى الله عليه وسلّم) أحاديث. روى عنه أبو عثمان النّهديّ والأحنف والحسن البصريّ، وكان من فضلاء الصّحابة وصالحيهم، وسيرد ذكره في الكُنى أتمّ من هذا إن شاء الله، أخرجه أبو نعيم وأبو عمر وأبو موسى»[(١)].

وقال: «(ب أبوبكرة) واسمه نفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزّى بن عنزة بن عوف بن ثقيف الثقفيّ، واسم ثقيف قسيّ، وقيل هو ابن مسروح، مولى الحارث بن كلدة، وقد ذكرنا في نقيع ما فيه كفاية، وأمّه سميّة جارية الحارث بن كلدة أيْضاً، وهو أخو زياد بن أبيه لامّه، وهو ممّن نزل يوم الطّائف إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) من حصن الطائف في بكرة فأسلم، وكُني أبا بكرة، وأعتقه رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وهو معدود في مواليه، وكان أبوبكرة يقول: أنا من إخوانكم في الدّين، وأنا مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وإنْ أبى النّاس إلاّ أن ينسبوني فأنا نفيع بن مسروح، وكان أبوبكرة من فضلاء أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وصالحيهم، وهو الذى شهد على المغيرة بن شعبة، فبتّ الشهادة وجلدَهُ عمر حدّ القذْف، وأبطل شهادته، ثمّ قال له: تُبْ لتقبلَ شهادتُك، فقال: إنما أتوب لتقبلَ شهادتي؟ قال: نعم، قال: لا جرم لا أشهد بين اثنين أبداً. وإنّما جلده لأنّه شهد هو واثنان معه فبتّوا الشهادة، وكان الرّابع زياداً، فقال: رأيت استاً تنبُو ونَفَساً يَعْلُو وساقَيْنِ كأنّهمَا أُذُنَا حمَار، ولا أعلمُ ما وراءَ ذلك [وماذا يَكُونُ وَرَاءَ ذلكَ يا لَبِيب؟!] فجلد عمرُ الثلاثةَ وتابَ منهُم اثنان، فقبلَ شهادتهما،

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج٥ ص٣٨.

وكان أبوبكرة كثيرَ العبادة حتّى مات، وكان أولادُه أشْرافاً في البصرةِ بكثـرة المالِ والعلْم والولايات. أخبرنا الخطيب عبد الله بـن أحمـد بـن محمّـد، أخبرنا أبو محمّد، جعفر بن أحمد، أخبرنا الحسن بن شاذان، أخبرنا عثمـان بن أحمد السّماك، أخبرنا حنبل بن إسحاق، أخبرنا الخليـل بـن عمـر بـن إبراهيم العبدى، حدّثنا أبى، حدّثنا قتادة عن الحسن، عن أبـى بكـرة، قـال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): إذا التقى المـسلمان، فقتـل أحـدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النّار، قلت: يا أبة هذا القاتلُ فكيـف المقتـولُ، فقال: سألتُ قتادة عمّا سألتنى، فقال: كلّ واحدٍ منْهما يريدُ قتلَ صاحبه كذا. روى هذا الحديث عمر بن إبراهيم، فقال، عنٍ الحسن، عن أبي بكـرة ولـمْ يسمعْه الحَسَنُ منْه إنّما سمعه من الأحنف، عن أبى بكرة، وتُوفّى أبـوبكرة بالبصرة سنةَ احدى، وقيل اثنتين وخمسين، وأوصى أن يصلّي عليْه أبوبرزة الأسلمي. قال الحسن: لم ينزل البصرة من الصحابة ممّن سكنها أفْضل مـن عمْران بن حصيْن وأبي بكرة»[1].

وقال الذّهبيّ:

«أبوبكرة الثقفي الطائفي مولى النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم). اسـمه نفيـع بن الحارث، وقيل: نفيع بن مسروح. تدلّى في حصار الطائف ببكـرة، وفـرّ إلى النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم)، وأسلم على يده، وأعلمه أنّه عبد، فأعتقـه. روى جملة أحاديث. حدّث عنه بنـوه الأربعـة: عبيـد الله، وعبـد الـرحمن، وعبد العزيز، ومسلم وأبو عثمان النّهديّ، والحسن البـصريّ، ومحمّـد بـن

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج٥ ص١٥١.

سيرين»[١].

وقال الرّازيّ:

«نفيع بن الحارث، أبوبكرة، له صحبة يُعدّ في البصريّين، روى عنه بنوه، عبد الرحمن وعبد العزيز وعبيدالله ومسلم، وروى عنه الحسن البصريّ سمعت أبي يقول ذلك»[٢].

وفي سيَر الذهبيّ:

«كان أبوبكرة ينكر أنّه ولد الحارث، ويقول: أنا أبوبكرة مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، فإن أبى النّاس إلاّ أن ينسبوني، فأنا نفيع بن مسروح. وقصّة عمر مشهورة في جلده أبا بكْرة ونافعاً، وشبْل بن معبد، لشهادتهم على المغيرة بالزّنا، ثمّ استتابهم، فأبى أبوبكرة أن يتوب، وتاب الآخران. فكان إذا جاءه من يشهده يقول: قد فَسّقوني»[٣].

في صحيح البخاريّ:

«وجلد عمر أبا بكرة، وشبل بن معبد، ونافعاً، بقذف المغيرة، ثم استتابهم، وقال: من تاب قبلت شهادته»[٤].

وقال الشافعي: «أخبرنا سفيان بن عيينة، قال: سمعت الزّهريّ يقول: زعم أهل العراق أنّ شهادة المحدود لا تجوز، فأشهد لأخبرني فلان أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لابي بكرة: "تب تقبل شهادتك" أو "إن تبت

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص٥.

(٢) الجرح والتّعديل، الرّازي: ج٨ ص٤٨٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ج٣ ص٦.

(٤) صحيح البخارى، البخاري: ج٣ ص١٥٠.

قبلت شهادتك"، قال سفيان: سمّى الزّهريّ الذى أخبره فحفظته ثمّ نسيته، وشككت فيه، فلما قمنا سألت من حضر، فقال لى عمرو بن قيس: هو سعيد بن المسيّب، فقلت: هل شككت فيما قال؟ فقال: لا هو سعيد بن المسيب غير شكّ"[١]. وقال البيهق: «أخبرنا أبو طاهر الفقيه، أنبأنا أبو حامد بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا عمر وبن محمد، عن قيس عن سالم الأفطس، عن سعيد بن عاصم، قال: كان أبوبكرة إذا أتاه الرجل يُشهده، قال أشهد غيرى فانّ المسلمين قد فسّقوني، وهذا إن صح فلأنّه امتنع من أن يتوب من قذفه، وأقام عليه ولو كان قد تاب منه، لما ألزموه اسم الفسق والله اعلم»[٢].

والعجيبُ أنّ عُمر اقترح على المغيرة بعد ذلك ولاية الكوفة. قال البلاذري في فتوح البلدان «قال عمر: من عذيرى من أهل الكوفة، إن استعملت عليهم القوي فجّروه، وإن وليت عليهم الضعيف حقروه، ثم دعا المغيرة بن شعبة، فقال: إن وليتك الكوفة أتعود إلى شيء مما قرفت به؟ فقال: لا، وكان المغيرة حين فتحت القادسية صار إلى المدينة، فولاه عمر الكوفة، فلم يزل عليها حتى توفي عمر، ثمّ أنّ عثمان بن عفّان ولاها سعداً، ثم عزله وولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط»[٣].

وفي سير أعلام النبلاء:

«وحدثنا هشام، عن الحسن، قال: مرّ بي أنس، وقد بعثه زياد بن أبيه إلى

---

(١) كتاب الأم، الشافعي: ج٤ ص١٢١ ـ ١٢٢.

(٢) السنن الكبرى، البيهقي: ج١ ص١٥٢.

(٣) فتوح البلدان، البلاذري: ج٢ ص٣٤٣.

أبي بكرة يعاتبه، فانطلقتُ معه، فدخلنَا عليه، وهو مريض، وذكر له أنّه استعمل أولاده فقال: هل زاد على أنّه أدخلهم النار؟ فقال أنس: أنّي لا أعلمُه إلاّ مجتهداً. قال: أهلُ حروراء اجتهدوا، أفأصابُوا أم أخْطأوا؟ فرجعْنا مخصومين»[١].

وهذا الكلام من أبي بكرة يدلّ على ورع وتحفّظ، فإن الرّجل لم يكنْ مرتاحاً إلى استعمال أولاده من طرف زياد بل حكَمَ عليهم بدخول النار، وهذا يفيد موقفه من الدولة أيضاً؛ لأنّ الذي يتصورّ في حقّه أن يدخل النّار لأجل العمالة إنّما يكون شأنه كذلك إذا كانت الدولة ظالمة.

وقال ابن حجر في ترجمة أبي بكرة:

«نفيع بن الحارث ويقال بن مسروح، وبه جزم بن سعد، وأخرج أبو أحمد من طريق أبي عثمان النّهديّ، عن أبي بكر، أنه قال: أنا مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فإن أبى النّاس إلاّ أن ينسبوني، فأنا نفيع بن مسروح وقيل اسمه مسروح وبه جزم بن إسحاق مشهور بكنيته، وكان من فضلاء الصحابة، وسكن البصرة وأنجب أولاداً لهم شهرة وكان تدلّى إلى النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) من حصن الطائف ببكرة فاشتهر بأبي بكرة، وروى عن النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) روى عنه أولاده»[٢].

ولَئنْ كان ابنُ حجر تردّدَ في نَسبه بيْن الحارث ومسروح ـ كما سبق ـ فإنّ خليفة يصرّ على إلحاقه بالحارث بن كلدة مع أن أبا بكرة ينفي ذلك

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص٩.
(٢) الإصابة، ابن حجر: ج٦ ص٣٦٩.

أشدّ النفي ويذكر اسم أبيه صريحا. ومع أن القرآن يهتف: ادعُوهُم لآبـائهم هو أقسط عند الله، لكنّ ابن خيّاط حينما يتحدّث عنّه يقول أبوبكرة بن الحارث بن كلدة.

يقول خليفة العصفري في طبقاته:

«وأبوبكرة نفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة، وهو عبد العزى بن غيرة بن عوف بن قسي بن منبه، مات سنة اثنتين وخمسين صلّى عليه أبوبرزة»[1].

ويقول في تاريخه:

«سنة سبع عشرة فيها خرج عمر بن الخطاب إلى سرغ، واستخلف على المدينة زيدَ بن ثابتٍ، وبها الطّاعون فرَجَعَ. وفيها شهد أبوبكرة ونافع ابنا الحارث، وشبل بن معبد، وزياد على المغيرة بن شعبة، فعزله عمر عن البصرة وولاّها أبا موسى الأشعري»[2].

إن البحث في شخصية أبي بكرة ليس من جهة عشيرته وولائه وروايته، كما قد يُتوهّم، وإنّما هو من حيث كَونه واحداً من المسلمين، كان يَتصوّرُ أنّ الدّولة آنذاك حريصة على إقامة الحدود وتعظيم الشّعائر، على الأقل في حقّ من يتولّون المسؤوليّة، لأنّهم هم المشرفون على إقامة الحدود وتعظيم الشّعائر. ولذلك فإنّه بعد إقامة حدّ القذف عليه أصرّ على ما شهد به، وقال: أشهد أنّ المغيرة زانٍ. واستنكرَ أخُوه شِبْل تصرّفَ عُمر وقال: «أتجلِدُ شهودَ

(١) طبقات خليفة، خليفة بن خياط: ص٣١١.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط: ص٩٣.

الحقّ وتعطّل الحدّ؟»[١].

لقد شهد شبل على عمر بتعطيل الحدّ. ولم يردّ عليْه أحدٌ. وهذا ثابتٌ في كُتب التاريخ والرّجالِ إلى اليوْم، لكنّ عُمر لمْ يكن المُبتَدع لذلك، فأبوبكر قبْله درأ الحدّ عن خالد بن الوليد وسمّاه مُجْتهداً. وإذا رجعْنا إلى الأيّام الأولى بعد وفاة النبيّ ﷺ، نجد أنّ خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة شاركا في الهجوم على بيتِ فاطمة ؑ، فبفضلهما ومَنْ كان معهما جميعاً أُسّست الدّولة القُرشيّة التي تسلّمها بنو أميّة فيما بعد. ومثل هؤلاء لا تنْسى لهم قريش أياديَهُم، ولا يُمكن أنّ تُفرّط فيهم ولوْ تعلّق الأمر بحدود الله تعالى. والعجيب أنّ كلّ واحد منهما (خالد والمغيرة) تورّط في فضيحة أخلاقية تتنافى والعدالة ومع ذلك بقيا يتمتّعان بالحصانة إلى يوم النّاس هذا. ومثلهما قنفذ التّيمي الذي نزل عمر في قبره يوم دفنه.

عمر الذي درأ الحد عن المغيرة بن شعبة وهو يعلم أنّه فعل ما فعل، هو نفسه أقام الحدّ على ابنه من صُلبه عبد الرحمن بن عمر وهو مريض، فكان ذلك سبب وفاته!

عمر الذي درأ الحدّ عن المغيرة بن شعبة وهو يعلم أنه فعل ما فعل، هو نفسه الذي جلد صبيغ بن عسل مئات حتى صار ظهره دبرة وحلّق رأسه وحرمه عطاءه ومنع الناس من مجالسته، كلّ هذا لأنه سأل عن معنى قوله تعالى: ﴿والذّاريات ذرواً﴾[٢]؛ وهذه مآساة يجدر بالباحثين التمعّن فيها

---

(١) فتح البلدان، البلاذري: ج٢ ص٤٢٤.

(٢) قصة صبيغ مذكورة في إكمال الكمال، ابن ماكولا: ج٥ ص٢٢١ وج٦ ص٢٠٦، والإصابة: ج٣ ص٤٥٨، معجم البلدان: ج٤ ص١٢٤، لسان العرب: ج٨ ص٤٣٩، تاريخ دمشق: ج٢٣ ص٤٠٨، سنن الدارمي: ج١ ص٥٤ ـ ٥٥، شرح نهج البلاغة: ج١٢ ص١٠٢، تفسير ابن كثير: ج٤ ص٢٩٤، الإتقان

لمعرفة جذور الإرهاب الفكريّ في دين يعتبر تفكّر ساعة خيراً من عبادة سبعين سنة، ويحثّ على تدبّرالقرآن الكريم ويعتبر الغافلين عن تدبّره أهلَ قلوب عليها أقفالُها.

قال اليعقوبيّ: «كان عمر إذا رأى المغيرة يقول: يا مغيرة ما رأيتك إلاّ خشيت أن يرجُمني الله بحجارة»[1].

[لا بأس على الخليفةِ فإنّ الله تعالى لم يرجُمْ أبا بكر بحجارة من السماء حين عطّل الحدّ في حقّ خالد!!].

لكن ما معنى خوفه هذا؟

إذا كان قد جلد مَنْ يستحقّ الجلْد ودرأ الحدّ عن البريء فما معْنى هذا الكلام؟

وإن كان شاكّاً فكيف أمضى حكْماً على شك؟

أليس هو نفسه قال للمغيرة بعد ذلك: أنتَ رجلٌ فاسق! فإذا كان معتقداً بفسقه فبأيّ حقّ يولّيه بعد ذلك على البدريّين والقرّاء، وفي نفس الوقت لا يقبل شهادة أبي بكرة الذي كان كثير العبادة حتّى مات؟!

أوليس المغيرةُ معروفاً عند القاصي والداني بتتبّع النّساء، وأرادوا أن يهذّبوا ذلك لما فيه من الشّناعة والسّفالة فقالوا أحصن ألف امرأة (على خلاف في العدد)؟

إنّ الذي لا يشكّ فيه مؤمنٌ هو أنّهم سيجتمعُون عند حكَمٍ عدْلٍ يقُصّ

للسّيوطي: ج٢ ص٥، كنز العمال: ج٢: ص٣٣١، نصب الراية، الزيلعي: ج٤ ص١١٨؛ تفسير القرآن، الصنعاني: ج٢ ص٢٤٩.

(١) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص١٤٦.

الحقّ ولا يكون فيهم إلاّ محكُومٌ، وخسر هنالك المُبطلون. ولقد مات أبوبكرة وهو مصرٌّ على مَوقفه من المغيرة، واستمرّ على سلوكٍ مُحترمٍ حتّى رحلَ من الدّنيا.. وتجدر الإشارة هنا إلى قول الحسن البصريّ، كما ذكر ذلك ابن الأثير: «لم ينزل البصرة من الصّحابة ممّن سكنها أفضلُ من عمران بن حصين وأبى بكرة»[1]. وموقفُ علماءِ الرّجال منْه أنّه كان من فضلاء الصحابة وصالحيهم.

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج٥ ص١٥١.



الفصل السابع

نماذج من التحريف



نماذج من التحريف

كثيرٌ من كُتب المسلمين تقدّم الجيل الأول من الأمّة وكأنّه معصوم من الخطإ مبرأ من كل شكّ، وفي نفس الوقت تحتوي كثير من كتب التاريخ الإسلاميّ على وقائعَ وأحداثٍ متواترة يُستشفّ من ورائها أنّه كان جيلاً كالأجيال فيه الأخيارُ والأشرارُ ومتوسّطو الحال. وأُقدّمُ ههُنا نماذجَ من مُحاولات التّحريف والتّزييف التي قام بها علماءُ مَرمُوقُون في مُجتمعاتهم دَفَعَهُم التعصّبُ المَقيتُ إلى التنكّر للحقّ.

كتاب العواصم من القواصم للقاضي ابن العربيّ، كتاب متداول في الأوساط السنّية، وطالما أوصى الإخوان المسلمون بمطالعته إلى جنب كتاب "معالم في الطريق" لـ "سيد قطب". والواقع أنّ الذي يطالع كتاب العواصم هذا بعين الموضوعية والتحرّر من التقليد يجده هو نفسه قاصمة من القواصم، فإنّ صاحبه تكلّم في التاريخ بأسلوب الوعظ، وهو أمر لا يستساغ في منهج البحث العلميّ. وأدع الحكم للقارئ الكريم بعد إيراد أقوال ابن العربي والتعليق عليها.

قال ابن العربيّ: «ورُوي أن عائشة (رضي الله عنها) قالت: غضبت لكم من السّوط ولا اغضب لعثمان من السّيف، استَعْتَبْتُمُوهُ حتّى إذا تركتُموه كالفل المُصفّى ومُصتُمُوهُ مَوْصَ الإناء، وتركتموه كالثوب المنفيّ من الدّنس، ثم قتلتموه، قال مسروق: قلت لها: هذا عملك، كتبت إلى النّاس تأمرينهم بالخروجِ عليه، فقالت عائشة: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبتُ اليهم سَوَاداً في بياضٍ، قال الأعمش فكانوا يرون أنه كتب على لسانه»[1].

---

(١) العواصم من القواصم، ابن العربيّ الأندلسي:ج١ ص١٤٢.

وقال أيضا في: «وقيل أرسل إليهم علياً فاتّفقوا على الخَمس المذكورة ورجعوا راضين. فبينما هم كذلك إذا راكبٌ يتعرّض لهُم ثمّ يُفارقُهم مراراً، قالوا: مَالَكَ، قال: أنا رسول أميرِ المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتّشُوه فإذا هم بالكتابِ على لسان عثمان عليه خاتمهُ إلى عامل مصر أن يصلبهم ويقطع أيديهم وأرجلهم، فأقبلوا حتى قدموا المدينة فأتوا عليّاً، فقالوا له: ألم تر الى عدوّ الله كتب فينا بكذا، وقد أحلّ الله دمه، قالوا له: فقم معنا اليه، قال: والله لا اقوم معكم، قالوا له: فلم كتبت إلينا، قال: والله ما كتبتُ اليكم فنظر بعضهم إلى بعض!»[١].

وقال ابن العربيّ بعد ذلك: «وأما الذي ذكرتم من الشّهادة على ماء الحواب فقد بؤتم في ذكرها بأعظم حوب ما كان قطّ شيء ممّا ذكرتم، ولا قال النّبيّ ﷺ ذلك الحديث، ولا جرى ذلك الكلام، ولا شهد احد بشهادتهم، وقد كتبت شهاداتكم بهذا الباطل وسوف تسألون»[٢].

يقول ابن العربيّ لا قال النّبيّ ﷺ ذلك الحديث، فماذا تقول كتب المسلمين؟

قال الذهبيّ في سيَره:

«ولا ريب أنّ عائشة ندمت ندامة كلّية على مسيرها إلى البصرة وحضورها يوم الجمل، وما ظنّت أنّ الأمر يبلغ ما بلغ. فعن عمارة بن عمير عمّن سمع عائشة إذا قرأتْ ﴿وقَرْنَ في بيوتكُنّ﴾[٣] بكت حتى تبلّ خمارها.

(١) العواصم: ج١ ص١٣٣.

(٢) العواصم من القواصم: ج١ ص١٦٢.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

قال أحمد في مسنده: حدثنا يحيى القطّان، عن إسماعيل، حدثنا قيس، قال: ... أقبلت عائشة فلما بلغت مياه بني عامر ليلاً نَبحَت الكلابُ فقالت: أيّ ماء هذا، قالوا: ماءُ الحوأب، قالت: ما أظنّني إلاّ أنّني راجعة، قال بعض من كان معها: بل تقْدمين فيراك المسلمون فيصلحُ الله ذات بينهم، قالت: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) قال ذات يومٍ: كيف بإحداكنّ تنبحُ عليها كلابُ الحوأب»[1].

وفي تاريخ الطبري:

«... قال: فرجعْت فأعطوني ناقةً لها مهْريّة وزادُوني أربعمائة أو ستمائة درْهمٍ، فقال لي: يا أخا عرينةَ هل لك دلالَةٌ بالطريق، قال: قلتُ نعم أنا من أدرك النّاس، قال: فسرْ معنا، فسرْتُ معَهُم، فلا أمرّ على واد ولا ماء إلاّ سألوني عنه حتى طرقْنا ماءَ الحوأب، فنبحتْنا كلابها، قالوا: أيّ ماء هذا، قلتُ، ماءُ الحَوأب، قال: فصرخَتْ عائشةُ بأعلى صوتها، ثم ضربتْ عضُد بعيرِها فأناخَتْ، ثم قالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طُرُوقاً رُدّوني، تقولَ ذلك ثلاثا، فأناختْ وأناخُوا حولَها، وهُم على ذلك وهي تأبى حتّى كانت السّاعة التي أناخوا فيها من الغد، قال: فجاءها ابنُ الزبيْر، فقال: النّجاء النّجاء فقد أدرككُم والله عليّ بن أبي طالب، قال: فارتَحلوا وشتَمُوني فانصرَفْتُ فما سرْتُ إلاّ قليلا وإذا أنا بعليّ وركب معه نَحْو منْ ثلثمائة، فقال لي عليّ: يا أيّها الراكبُ فأتيته، فقال: أينَ أتيتَ الظّعينَة، قلتُ: في مكانَ كذا وكذا، وهذه ناقتها، وبعْتهُم جَمَلي، قال: وقد ركبْتهُ، قلتُ: نعمْ، وسرْتُ معَهم حتى أتينا ماء الحوأب فنبحتْ عليها كلابها، فقالت كذا وكذا [!!] فلما

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٢ ص١٧٧؛ وأيضاً كذلك في ج١١ ص٥٣.

رأيتُ اختلاطَ أمرِهِم انفتَلتُ وارتَحَلُوا»[١].

وفيه أيضا: «حدثني أحمد بن زهير، قال: حدثنا أبي، قال: حدثني وهب بن جرير بن حازم، قال: سمعت يونس بن يزيدالأيلي عن الزّهريّ، قال: بلغني أنّه لما بلغ طلحةَ والزبيْر منزلُ عليّ بذِي قارِ انصرفوا إلى البصرة، فأخذوا على المنكدر فسمعتْ عائشةُ (رضي الله عنها) نباح الكلاب، فقالت: أيّ ماء هذا، فقالوا: الحوأب، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون إني لَهِيَهْ قد سمعتُ رسول الله يقول وعنده نساؤه، ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب، فأرادت الرّجوع، فأتاها عبدالله بنُ الزّبيْر، فزعم أنّه قال كَذبَ مَنْ قال إنّ هذا الحوأب ولم يزلْ حتّى مضت»[٢].

وعند ابن كثير في البداية والنهاية: «قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسماعيل، حدثنا قيس، قال: لما أقبلتْ عائشةُ، يعني في مسيرها إلى وقْعة الجمل وبلغتْ مياهَ بني عامر ليلاً نبحت الكلاب، فقالت: أيّ ماء هذا، قالوا: ماءُ الحوأب، فقالت: ما أظنّني إلاّ راجعة، فقال بعضُ من كانَ معها: بل تقدمين فيراك المسلمون فيُصلحُ اللهُ ذاتَ بينِهم، قالت: إنّ رسول الله قال لنا ذات يوم: كيف بإحداكُنّ تنبحُ عليها كلابُ الحوأب، ورواه نعيم بن حمّاد في الملاحم»[٣].

وفيه أيضاً: «ثم ضربتْ عضدَ بعيرِها فأناختْه وقالتْ: رُدّوني ردوني، أنا والله صاحبة ماء الحوأب. وقد أوردْنا هذا الحديث بطُرُقِه وألفاظه في دلائلِ

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٣ ص٤٧٥.

(٢) تاريخ الطبري: ج٣ ص٤٨٥.

(٣) البداية والنهاية: ج٦: ص٢٣٦، وج٧ ص٢٥٨.

النبوّة، كما سبقَ فأناخَ النّاسُ حولها يوْماً وليْلة، وقال لها عبد الله بن الزّبيْر: إن الذي أخبركَ أن هذا ماء الحوأب قد كذب، ثم قال النّاس: النّجا النّجا هذا جيش عليّ بن أبي طالب قد أقبل فارتحلوا نحو البصرة»[1].

وقال ابن حجر في ترجمة سلمى بنت مالك: «سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر الفزارية، أم قرفة الصغرى هي بنت عم عيينة بن حصن، كانت تُشبّه في العزّ بجدّتها أم قرفة الكبرى التي قتلها زيد بن حارثة لما سبى بني فزارة، وكانتْ سلمى سُبيتْ، فأعتقتها عائشةُ ودخل النّبيّ وهي عندها، فقال: إن إحداكن تستنبح كلاب الحوأب، قالوا وكان يُعلّق في بيت أمّ قرفة خمسون سيفاً لخمسين رجلا كلّهم لها مَحْرَم فما أدري هذه أو أم قرفة الكبرى»[2].

وقال الزمخشري في الفائق: «قال ﷺ لنسائه: ليت شعري أيتكن صاحبه الجمل الأدبب، تسير أو تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب»[3].

وفي لسان العرب: «فأما قول النّبيّ في الحديث لنسائه: ليت شعري أيّتكن صاحبة الجمل الأدبب، تخرج فتنبحها كلاب الحوأب، فإنّما أراد الأدبّ فأظهر التّضعيف وأراد الأدبّ، وهو الكثير الوبر، وقيل: الكثير وبر الوجه ليوازن به الحوأب»[4].

وقال اليعقوبيّ: «ومر القوم في الليل بماء يقال له ماء الحوأب، فنبحتهم

(١) البداية والنهاية: ج٧ ص٢٥٨.

(٢) الإصابة، ابن حجر: ج٧ ص١٨٦.

(٣) الفائق، الزمخشري: ج١ ص٣٥٣.

(٤) لسان العرب، ابن منظور: ج١ ص٣٧٣.

كلابه، فقالت عائشة: ما هذا الماء، قال بعضهم: ماء الحوأب، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، رُدّوني، رُدّوني، هذا الماء الذي قال لي رسول الله: لا تكوني التي تنبحك كلاب الحوأب، فأتاها القوم بأربعين رجلاً، فأقسموا بالله أنه ليس بماء الحوأب»[١].

وفي كتاب الاستقصاء: «فمرّوا في طريقهم بماء يقال له الحوأب، فنبحتهم كلابه، فقالت عائشة: أيّ ماء هذا، فقيل ماء الحوأب، فصرخت بأعلى صوتها وقالت: إنّا لله وإنا إليه راجعون، سمعتُ رسول الله يقول وعنده نساؤه، ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب، ثم ضربت عضد الجمل فأناخته وقالت: ردوني، أنا والله صاحبة ماء الحوأب، وقامتْ بهمْ يوْماً وليلة إلى أن قبل النجاء فقدْ أدرككم عليّ بن أبي طالب، وغلبوها على رأيها، فارتحلوا نحو البصرة ...»[٢].

وفي الكامل: «فسرتُ معهم فلا أمرّ على واد ولا ماء إلاّ سألوني عنه، حتى طرقنا الحوأب، وهو ماء فنبحتنا كلابه، فقالوا أيّ ماء هذا، فقلت: هذا ماء الحوأب، فصرخت عائشة بأعلى صوتها، ثمّ ضربت عضد بعيرها، فأناخته وقالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، إني لهية سمعت رسول الله يقول وعنده نساؤه: ليت شعري أيّتكن تنبحها كلاب الحوأب، ثمّ ضربت عضد بعيرها فأناخته، وقالت: ردوني أنا والله صاحبة ماء الحوأب، فأناخوا حولها يوماً وليلة فقال لها عبد الله بن الزّبيْر: إنّه كذب ولم يزل بها وهي تتمنّع...»[٣].

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢: ١٨١.
(٢) كتاب الاستقصاء: ج١ ص١٠٠.
(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٣ ص٢١٠.

وفي كتاب العَيْن: والحَوْأبُ: موضعُ [بئرٍ] وذلك حيثُ نبحت الكلابُ على عائشةَ [مقْبَلَها إلى البصرة].

وفي معجم البلدان للحموي: «وفي الحديث، أنّ عائشة لمّا أرادت المضيَّ إلى البصرة في وقعة الجمل مرَّت بهذا الموضع، فسمعت نباح الكلاب فقالت: ما هذا الموضع؟ فقيل لها: هذا موضع يقال له الحوأب، فقالت: إنّا لله ما أُراني إلاّ صاحبةَ القصّة، فقيل لها: وأيّ قصّة؟ قالت سمعت رسول الله، (صلى الله عليه وسلّم)، يقول وعنده نساؤه: ليت شعري أيّتكُنّ تنبحها كلاب الحوأب سائرة إلى الشّرْق في كتيبة! وهَمَّتْ بالرّجوع فغالطوها وحلفوا لها أنّه ليس بالحوأب!»(١).

كلّ هؤلاء ليسوا على شيء في نظر ابن العربي!

قال ابن العربيّ: «فهذه كلّها أمور جرت على رسْم النّزاع، ولم تخرجْ عن طريقٍ من طُرُق الفقه ولا تعدّتْ سبيلَ الاجتهاد الذي يؤجر فيه المصيبُ عشرةً والمخطىء أجراً واحداً، وما وقع من روايات في كتبِ التّاريخ عدا ما ذكرْنا فلا تلتفتُوا إلى حرفٍ منْها، فإنّها كلّها باطلة»(٢).

إذاً، فابنُ العربيّ مع الحقّ والحقّ مع ابن العربيّ يدورُ معهُ حيثُ دار. وكلّ ما خالفَ ما عند ابن العربيّ فهو باطل.

قال [ابن العربيّ]: «وكان أبو موسى رجلاً تقيّاً، ثقفاً، فقيهاً، عالماً، حسْبما بيّنّاه في كتابِ سراجِ المُريدين، أرسلَه النّبيّ ﷺ الى اليَمَن مع معاذ، وقدّمه عمرُ وأثنى عليه بالفهْم وزعمتِ الطائفةُ التاريخيّة الرّكيكة، أنّه كان أبْلَه

---

(١) معجم البلدان، الحموي: ج٢ ص٣١٤.

(٢) العواصم من القواصم: ج١ ص١٧٤.

ضعيفَ الرأي مخدوعاً في القوْل، وانّ ابن العاص كان ذا دهاء وأرب حتى ضُربت الأمثال بدهائه، تأكيداً لما أرادت من الفساد، وتبع في ذلك بعض الجهّال بعضاً، وصنّفوا فيه حكايات وغيْرُه من الصّحابة كان أحذقَ منه وأدهى، وإنّما بَنَوْا ذلك على أنّ عمْرا لمّا غَدَر أبا موسى في قصّة التّحكيم صار له الذّكر»[1].

قال ابن العربي: «فهذا كان بدء الحديث ومنتهاه، فأعْرضُوا عن الغاوين وازجرُوا العاوين وعرّجوا عن سبيل الناكثين، إلى سنَنِ المُهتدين، وأمسكوا الألسنَة عن السّابقين إلى الدّين، وإيّاكم أن تكونوا يوم القيامة من الهالكين، بخصومة أصحاب رسول الله ﷺ فقد هلك من كان أصحاب النّبيّ ﷺ خصمَه. دَعُوا ما مضى فقد قضى الله فيه ما قضى وخُذوا لأنفسكم الجدّ فيما يلزمكم اعتقاداً وعملاً ولا تسترسلوا بألسنتكم فيما لا يَعنيكم مع كلّ ماجنٍ اتّخذَ الدّينَ هملاً، فإنّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ورحم الله الربيع بن خثيم، فإنّه لما قيل له قُتل الحُسين، قال: أقَتَلوه، قالوا: نعم، فقال: اللهمّ فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشّهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون»[2].

أقول:

ما أشبه ابن العربيّ بواعظ، وما أقدره على السّجع، وأينَ الوعظُ من دراسة التّاريخ والتحقيق في وقائعه. وهذه من كُبرياتِ المسائلِ التي تحُول بيْن المَرءِ ومعرفةِ الحقّيقة، فإنّ كثيراً منْ أشْباهِ ابنِ العربيّ منْ شُيوخ

---

(١) العواصم من القواصم: ج١ ص١٧٦.

(٢) العواصم من القواصم: ج١ ص١٨٢.

الوهّابيّة وأعوانهم في زماننا يغْتَنِمُونَ صفاءَ النّفوس وتَوقها إلى الآخرة ليصبّوا في الآذان ماشاءوا، مما يَروقُ لهم من التعصّب الأعمى الذي يستعصي علاجُه فيما بعد. وإلاّ فَمنَ المفْروض أنّ يُحاول ابن العربيّ إبطالَ أقوالِ خُصومه بالأدلّة التي يُعرفُ صوابُها بالوجْدان. وليس من آداب المناظرة والجدال في شيء أن يستهزئ بمُخالفه وينسبَه إلى الضّلال، ويتستّر بالتّخويف من عذاب الآخرة. فهلاّ كان تَخويفُه ذلك في محلّه؟ ولعلّ ابن العربيّ يضع نفسَه فوق كلّ اعتبارٍ بحيثُ يكونُ أحرصَ النّاس على الآخرة ويكونُ غيرُه أتباعَ كلّ ناعقٍ! فلمَ لا يحتملُ هُو وأتباعُه والمُدافعون عنه أنّ الذي حمل النّاس على البراءة من أقوامٍ وولايةَ آخرين إنّما هو الحرصُ على الدّين، فإن مآل الدين إلى الولاية والبراءة ولا يكونُ القلب سليماً يوم القيامة إذا كان يعتبر أولياءَ الله تعالى وأعداءَه سواءً.

على أنّ ابنَ العربيّ هذا ينفردُ برأيه في قضيّة الحُسين عليه السلام وأنقُلُ هُنا قولَه تاركاً الحكْمَ على ذلك للقارئ. قال القاضي ابن العربيّ:

«وذكر المؤرّخون أنّ كُتب أهل الكوفة وردت على الحسين، وأنّه أرسل مسلم بن عقيل ابن عمّه إليهم ليأخذ عليهم البيعة، وينظر هو في أتابعه، فنهاه ابن عباس وأعلمه أنّهم خذلوا أباه وأخاه، وأشارعليه ابن الزّبيْر بالخروج، فخرج فلم يبلغ الكوفة إلاّ ومسلم بن عقيل قد قُتل وأسْلمَهُ منْ كان استدْعاهُ، ويكفيك بهذا عظةً لمن اتّعظ. فتمادى واستمرّ غضباً للدّين وقياماً بالحقّ، ولكنّه (رضي الله عنه) لم يقبلْ نصيحة أعلمِ أهلِ زمانه ابنِ عبّاس، وعدلَ عنْ رأيِ شيخِ الصّحابةِ ابن عُمر»[1].

(١) العواصم من القواصم: ج١ ص٢٣٦ ـ ٢٣٨.

وقال أيضاً: «وما خرج إليه أحدٌ إلاّ بتأويلٍ، ولا قاتلُوه إلاّ بما سمعوا من جدِّه المُهيمنِ على الرّسل، المخبر بفساد الحَال، المحذِّر عن الدّخول في الفتن! وأقوالَه في ذلك كثيرة، منها: ما روى مسلم، عن زياد بن علاقة، عن عرفجة بن شريح قوله ﷺ: إنّه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرّق أمرَ هذه الأمّة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان، فما خرج النّاس إلاّ بهذا وأمثاله [!] ولو أنّ عظيمَها وابن عظيمها وشريفَها وابن شريفها الحسينَ يسعُه بيتُه او ضيعتُه او إبلُه ولوْ جاء الخَلق يطلبونه ليقومَ بالحقّ، وفي جملتهم ابنُ عبّاس وابنُ عُمر لم يلتفتْ إليهم وحضره ما أنذر به النّبيّ ﷺ وما قال في أخيه، ورأى انّها قد خرجت عن أخيه ومعه جيوش الأرض وكبار الخلق يطلبونه، فكيف ترجع إليه بأوباش الكوفة وكبار الصّحابة ينهونه وينأون عنه، وما أدرى في هذا إلاّ التّسليم لقضاء الله والحزنَ على ابن بنت رسول الله ﷺ بقيّة الدهر، ولولا معرفة أشياخ الصّحابة وأعيان الأمّة بأنه أمْرٌ صَرفَهُ اللهُ عنْ أهلِ البيْتِ وحالٌ من الفتنة لا ينبغي لأحد ان يدخلها ما أسلمُوهُ أبداً. وهذا أحمد بنَ حنبل على تقشّفه وعظيم منزلته في الدّين وورعه قد أدخل عن يزيد بن معاوية في كتاب الزّهد أنّه كان يقول في خطبته: إذا مرض أحدكم مرضاً فأشفى، ثم تماثل فلينظر الى أفضل عمل عنده فليلزمه ولينظر إلى أسوإ عمل عنده فليدعه، وهذا يدلّ على عظيم منزلته عنده حتى يدخله في جملة الزّهّاد من الصّحابة والتّابعين الذين يقتدى بقولهم ويرعوى من وعظهم، ونعم، ما أدخله إلاّ في جملة الصّحابة قبل أن يخرج الى ذكر التّابعين، فأين هذا من ذكر المؤرّخين له في الخمر وأنواع الفجور. ألا تستحيون وإذا سلبهم الله

المروءة والحياء ألا ترعوون أنتم وتزدجرون وتقتدون بالأحبار والرّهبان من فضلاء الأمّةوترفضون الملحدة والمجّان من المتمين الى الملّة. هذا بيان للنّاس وهدى وموعظة للمتّقين والحمد لله ربّ العالمين»[1].

أقول: يُغنينا عن إطالة التعليق على كلام الرجل أنّه يستخفّ بحقّ الحسينعليه السلام ويضفي صفة الشرعيّة على قتله، ويلتمس العذر لقاتليه، وفي نفس الوقت يعظّم شأن يزيد بن معاوية، ويضعه في مصافّ الزهّاد وأهل الاستقامة.

ثُمّ إنّ في ما نسبه إلى أحمد بن حنبل شكّاً، وأيّ شكّ، فالباحث عن العبارة التي استشهد بها الشّيخ لا يجدها في كتاب الزّهد الذي بين أيدينا اليوم[2] اللهمّ إلاّ أن يكون الكتاب قدْ أُجْرِيَتْ له عمليّةٌ تجميليّة منذُ زمان، ولم تتفطّنْ دُورُ الطّبْع والنّشْر لذلك. وايّاً كان الأمرُ فإنّها سابقة خطيرةٌ، وقد كثُر الحديثُ في الآونة الأخيرة عن قيامِ الوهابيّين بالتعرّض لأمّهات الكتب الإسلاميّة قصْدَ تهذيبِها بما يُوافِق مَبانيَهُم.

ومن أمثلة ما وقع من التّحريف ما جاء في طبقات الفقهاء[3] من قوله: «وروي أنّ عبد الله بن الحسن مسح على خفيه، فقيل له تمسح، قال: نعم، قد مسح عمر بن الخطّاب، ومن جعل عُمر بينه وبين الله فقد استوثَق. قال الشّيخ، قلت: ولأنّ من نظر فتاويه على التفصيل، وتأمّل معاني قوله على

---

(١) العواصم من القواصم: ج١ ص٢٤٤.

(٢) لا توجد العبارة التي استشهد بها ابن العربيّ في كتاب الزهد لأحمد بن حنبل [ط دار الجتب العلمية بيروت ١٣٩٨هـ].

(٣) طبقات الفقهاء ١: ٢٠ـ ٢١.

التّحصيل وجد في كلامه من دقيق الفقه ما لا يَجدُ من كلام أحد، ولو لم يكن إلاّ الفصول التي ذكرها في كتابه إلى أبي موسى الأشعريّ لَكَفَى ذلك، في الدّلالة على فضْله فإنّه كتب إليه: أمّا بعد فإنّ القضاء فريضةٌ مُحكمة وسنّة متّبعة فافهمْ فيما أدلى إليك فإنّه لا ينفع تكلّمٌ بحقٍ لا نفاذ لهُ آسِ بين النّاسِ في لفظك ولحظك ومجلسك حتى لا يطمع شريفٌ في حيفك ولا ييأسَ ضعيفٌ من عدلك، البيّنة على المدّعي واليمينُ على مَنْ أنكر والصّلحُ جائزٌ بين المسلمين، إلاّ صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً والفهْمَ الفهْمَ فيما تلجْلجَ في نفسك ممّا ليس في بعض كتابٍ ولا سنّةٍ ثم أعرف الأشكال والأمثال فقس الأمور بأشبهها بالحق»[1].

لا ادري إن كان صاحب الطّبقات يعي ما يقول.

أولاً: إنّه يقول "ومَنْ جعَلَ عُمَرَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الله فَقَد استوثق" وقد خالفَ عُمَرُ رسولَ الله ﷺ في أكثر من ١٠٠ مسألةٍ، فهلْ يكونُ المخالفُ لرسولِ الله قد استوثق؟

ثُمَّ إنّه يصف الكتاب الذي وجّهه عمر إلى أبي موسى بأنّ «من نظر فتاويه على التفصيل وتأمّل معاني قوله على التّحصيل وجد في كلامه من دقيق الفقه ما لا يجد من كلام أحد، ولو لم يكن إلاّ الفصول التي ذكرها في كتابه إلى أبي موسى الأشعريّ لكفى ذلك في الدلالة على فضله...». وأين ذلك من كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى مالك الأشتر الذي يصلحُ دستوراً لأرقى الدّول في عصرِنا لوْ كانَ هُناك منْ يستمعُ القوْل فيتبعُ أحسنَه عليه السلام، والحكم للقارئ بعد الاطّلاعِ على محتوى الكتابين.

---

(١) طبقات الفقهاء: ج١ ص٢٠ ـ ٢١.



الفصل الثامن

معرفة الحق



معرفة الحق

محبة الحقّ مغروسة في النفوس، فلا تجد من يقول إنّه لا يحبّ الحـقّ. وما قام الكون إلاّ بالحقّ. لكنّ الدّنيا دار تزاحم، والإنسان يتعلّق ببعض ما زُين فيها ولا يزال يحبّه ويتعلّق به حتّى يعميه ويصمّه، فيغدو مستعداً للتّضحية بالقيم التي يؤمن بها من أجل المحافظة على ما تعلّق به. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في آيات عديدة يُفهَم منها أنّ الإنسان المتنكّر للحقّ لا يتنكّر له عن جهالة، وإنّما عن علم ويقين. والدّافع إلى ذلك التنكّر لا يعدو أن يكون تعلّقاً بالمال أو المنصب أو السّمعة وحبّ الرّياسة. وبعبارة بسيطة، الدافع إلى ذلك هو المحافظة على منفعة ما.

قال الله تعالى ذكره:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4].

---

(١) النمل: ١٤.

(٢) البقرة: ١٠٩.

(٣) البقرة: ٤٢.

(٤) البقرة: ١٤٦.

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

فالحقّ بيّن لمن يطلبه إذا صفَت النّفس وحسنت السّريرة، لأنّ ذلك يؤدّي إلى تحقّق البصيرة، ومن تحقّقت بصيرته شاهدَ الأمور على ما هيَ عليه، وتمّ له ما يريد من انسجامٍ بين نفسه ومُعتقَده. وليس الأمر كذلك إذا كان الهوى مستولياً على النّفس، مستحكماً متمادياً، لأنّ قوى الإنسان الحسّيّة والمعنويّة تصبح مسخّرة لخدمة الهوى، ولا أضرّ على دين الإنسان من اتّباع الهوى، فإنّه لا يزال بصاحبه حتى يتّخذه إلها؛ قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[2].

وحتى لا تكون مسالة الحقّ قضية يتلاعب بها من شاء، فإنّ الإسلام قد حدّد المعالم، وميّز الحدود ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيي عن بيّنة. وقد تمّ ذلك بوضوح من طرف النّبيّ صلى الله عليه وآله للأمّة والأجيال حيث قال: علي مع الحقّ، والحقّ مع علي. فلم يبق بعد ذلك إبهام أو غموض يتشبّث به من اتّبع هواه. عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ معناه انه إذا اختلف شخصان أحدهما عليّ بن أبي طالب عليه السلام فإن الثاني على باطل مهما كان. لأنّ كون عليّ مع الحقّ والحقّ مع علي يعني عدم المفارقة بينهما أصلا. وفي الحقّيقة هذا الحديث وحده كاف لإثبات عصمة عليّ عليه السلام لولا عناد المعاندين وأصرار الجاحدين. فالذي يكون دائماً مع الحقّ والحقّ دائماً معه لا سبيل للباطل إليه ولا سلطان للنفس والشيطان عليه. والقرآن الكريم

---

(١) آل عمران: ٧١.

(٢) الفرقان: ٤٣.

يقول: وما ذا بعد الحقّ إلاّ الضلال. وينتج من ذلك أن من يفارق علياًعليه السلام يكون على ضلال قطعا ومن دون أدنى ريب.

وقد فارقت الأمّة علياًعليه السلام يوم وفاة النّبيّصلى الله عليه وآله وبقيت على ذلك إلى اليوم، إلاّ من رحم ربّك. ومع أنّه في علم الأمّة أنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، وأنّ معصية الرسولصلى الله عليه وآله تؤدي إلى الضّلال المبين، إلاّ أنّ الكبراء لا يزالون مُصرّين على قطيعة رحم عليعليه السلام وإقصاء ولده، والدّفاع عن أعدائه، وتقديم السّفهاء والأشرار عليه. أتراهم يتوقّعون أن يتخلّى الله تعالى عن حكمته ويعطّل سُنَنَه ويتّبع أهواءهم؟! أم تراهم ينسبون الخطأ إلى رسول اللهصلى الله عليه وآله حين ذكرهُ بما ذكره به في شتّى المناسبات؟!

إنّ علياًعليه السلام لم يتعلّقْ من هذه الدّنيا إلاّ بما كان يربطه بمولاه سبحانه وتعالى؛ فهو قد تعلق برسول اللهصلى الله عليه وآله، وقال عن نفسه: ما أنا إلاّ عبد من عبيد محمّدصلى الله عليه وآله، وتعلّق بصلاة اللّيل حتى أنّه لم يدعها ليلة الهرير والسّهام تمرّ بيْن يديْه. وتعلّق بالدّفاع عن حقّه وحقوقِ المستضعفين حتى آخر لحظة من عمره الشّريف. لم يكن لنفسه حظٌ في جهاده وتفانيه في خدمة مولاه وطاعة رسول اللهصلى الله عليه وآله، بل كان يرى نفسه دون ما هو عليه اعترافاً منْه بنعَمِ الله عليه. يقولعليه السلام في دعاءٍ له ذكرَهُ الشريف الرّضيّ في نهج البلاغة: «أَصبحْتُ عبداً مملوكاً ظالما لنفسي لك الحجّة عليّ ولا حُجّة لي ولا أستطيع أنْ آخذ إلاّ ما أعطيتني، ولا أتقي إلاّ ما وقيتني. اللهمّ إنّي أعوذ بك أنْ افتقر في غناك أ وأضلّ في هداك أو أُضامَ في سلطانك أو أُضطهدَ والأمرُ لك».

ذلك المستوى من التواضع والتذلّل والاعتراف بنعَم المولى سبحانه وتعالى هو الذي جعل لعليعليه السلام في قلوب المؤمنين وداً تتوارثه الأجيال، رغم كيد أعدائه وسعيهم في إطفاء نوره، وهو مستوى لم يصل إليه أحد بعده، لأنه متميّز عن الجميع في كلّ شيء. فهو تربية رسول اللهصلى الله عليه وآله، وباب مدينة علمه، ووصيّه ووليّه وخليفته وأخوه. وهو الذي تمسّكَ بالحقّ حتّى حين يضرّه التّمسّك به، وترفّع عن أساليب لم يتورّع غيره عن الأخذ بها باسم الدّين. كلّ ذلك كان منهعليه السلام ليبقي للمسلمين خاصّة وللبشريّة عامّة صورة عن الإنسان الكامل الذي يصمد أمام كلّ شيء لتبقى صورة الحقّ مشرقة. فلا عجب أن أحبّه المسلم والمسيحيّ وغيرهما لأنّهم وجدوا فيه ما تتوق إليه نفوسهم جميعاً، ولا عجب أن يلقى الموت في حبّه رجال من أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وآله والتّابعين. وكيف لا يكون عليّ مع الحقّ وهو الذي يراقب نفسه بين يدي الله تعالى في كلّ صغيرة وكبيرة. يبصق في وجهه عمرُو بنُ عبد ودّ يوم الخندق فيقومُ عنه حتى تهدأ ثائرة الغضب، ثُمّ يعود ليحتزّ رأسَ عدوّ الله والمسلين، قاصداً بعمله وجهَ الله تعالى، بحيث لا يكون في ذلك ذرّة من الانتصار لنفسه. وتمكّنه الفرصة من قتل معاوية وأصحابه عطشاً فتأبى نفسه الكريمة إلاّ النّزاهة التّامّة حرباً وسلماً. وتمكّنه الفرصة من عبد الله بن الزّبيْر ومروان بن الحكم وجماعة من أتباعهما يوم الجمل فيأبى إلاّ التّرفّع حلْماً وكرماً. وهو الذي سعت إليه الخلافة بعد قتل عثمان وكان في وسعه أن يُبقيَ معاوية على الشّام ويستعمل طلحة والزّبيْر، حتى تستقيم له الأمور ثم يفعل بعد ذلك ما يروق له، لكنّه أبى إلاّ مواجهة الأمر الواقع بما يرضي الله تعالى، زاهداً في ما رغب فيه غيره؛ فإنّ حكومة

السّقيفة عيّنت يزيد بن أبي سفيان لترضيَ أباه وتكسبَ ثقته وثقة بني أميّة، مع أنّهما جميعاً ـ الأب والابن ـ من الطلقاء الذين لم يألوا جهدا في محاربة الإسلام، وقد ثبت أنّ رسول الله ﷺ لعنهما معاً. لكنّها المصلحة! فحينما تقتضي المصلحة تولية الطّلقاء على البدريّين لا بأس بذلك طالما سلمت المصلحة! هذا المنطق الانتهازيّ الوصوليّ غير مقبول عند عليّ عليه السلام لا نظريّاً ولا عمليّاً، لأنّه نفس رسول الله ﷺ بنصّ القرآن الكريم. فكما أنّه لو وضعوا الشمس في يمين رسول الله ﷺ والقمر في شماله على أن يترك الأمر ما فعل أو يهلك دونه، كذلك لو وضعوا الشّمس في يمين عليّ عليه السلام والقمر في شماله على أن يُداهن طرفة عين ما فعل أو يهلك دون هدفه. وبذلك المنطق النّزيه رفَضَ الخلافة التي تجعل من سيرة الشيْخيْن المتضاربة ديناً يُتعبَّد به. وبفضل مواقف عليّ عليه السلام بقي الإسلام المحمّدي منيعاً لا تضَرّه الأقلام المأجورة والحناجر المسعورة. بفضله بقي المسلمون يعرفون النّزاهة والعدل والإنصاف والتمسّك بالحقّ ومواجهة الباطل. وبعد ذلك أليس عجيباً أن يقرن هذا الرجل العظيم إلى معاوية الذي قال في محفل عموميّ: «[يا أهل الكوفة أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحجّ، وقد علمتُ أنكم تصلّون وتزكّون وتحجّون؟ ولكنّي قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إنّ كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول وكلّ شرط شرطته فتحت قدميّ هاتين]»[1].

يقول الله تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ ويقول معاوية «كلّ شرط شرطته فتحت قدميّ».

---

(١) جمهرة خطب العرب: ج٢ ص١٤.

وينسب معاوية طغيانه إلى الله تعالى فيقول: آتاني الله...

يقول الشيخ محمّد عبده:

«أن ما يمكن أن يكون عليه الإنسان ينحصر في أمرين: الحقّ والباطل، ولا يخلو العالم منهما، ولكلّ من الأمرين أهل، فللحقّ أقوام وللباطل أقوام. ولئن أمر الباطل، أيْ كثر بكثرة أعوانه فلقد كان منه قديماً، لأنّ البصائر الزّائغة عن الحقّيقة أكثر من الثّابتة عليها. ولئن كان الحقّ قليلاً بقلّة أنصاره فلربّما غلبت قلّته كثرة الباطل ولعلّه يقهر الباطل ويمحقه»[١].

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«اللهم إني أستعينك على قريش ومن أعانهم، فإنّهم قطعوا رَحمي، وصغّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هوَ لي. ثم قالوا ألَا إنّ في الحقّ أن نأخذه وفي الحقّ أن تتركه»[٢].

وفي ضوء هذا الكلام نحاول فهم تصور قريش للحقّ وتعاملها معه.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج١ ص٤٨.

(٢) نهج البلاغة: ج٢ ص٨٥

الحق في نظر قريش

ولأنّ رؤوس قريش تسبّبوا في أذى رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته وبعد وفاته، يجدر التّعرض لتاريخ قريش وموقفها من البعثة النبوية، والأحداث التي تلت رحيل النّبيّ، وتصوّرها للقيم، وفي مقدّمتها معرفة الحقّ والانقياد له.

هناك مجموعة من الأسئلة تطرح نفسها عند تناول هذا الموضوع، ومناقشتها تتطلب تجرّداً وموضوعيّة، وتحرّراً تامّاً من العصبيّة والتّقليد. وللإجابة على ذلك نمهّد بأسئلة توضيحيّة، يتبيّن من خلالها المقصود إن شاء الله تعالى.

وأول هذه الأسئلة: ما هو موقف قريش في بداية البعثة النبويّة؟

هل وقفت مع النّبيّ صلى الله عليه وآله؟

هل بقيت محايدة؟ أم أنّها انقسمت قريش بين مؤيّد ومعارض؟

أو بعبارة أخرى، كيف استقبلت قريش الدّعوة المحمّديّة؟

لا يخفى أنّ قريشاً واجهت النّبيّ صلى الله عليه وآله من بداية الأمر بما لا يليق بالعقلاء، فقطعت رحمه وآذته في نفسه وأهله،ثم تفنّنت في الاستخفاف بأمره، وتحريض السّفهاء والأوباش عليه، حتى لقي ما لقي وصبر صبراً لم يصبره أحد من الأنبياء قبله، كما يشهد بذلك قوله صلى الله عليه وآله: «ما أوذي نبيّ مثلما أوذيت قطّ». لا شكّ أنّ من قريش من استقبل الدّعوة بالقبول وبقي مع النّبيّ صلى الله عليه وآله إلى أن التحق بالرفيق الأعلى. وهذا أيضاً أمر يحتاج إلى بحث يتبين من خلاله الأسباب التي تدعو فرداً من القبيلة ذات التّقاليد المقدّسة إلى أن يعتزل القبيلة، ويضحّي بعلاقته معها ليلتحق بالدّين الجديد.

نعم كان هناك فئتان من قريش، وقريش تحلُم بزعامة العرب وتأسيس امبراطوريّة عربيّة، على غرار امبراطوريتي فارس والرّوم. كانت الفئة الأولى تنتظر موت أبي طالب لاستلام الزّعامة. وأبو طالب لم يكن غنيّاً لكنّه ابن عبد المطّلب. ويسمّى شيخ البطحاء، وقلّما يسود رجل قومَه إذا لم يكن لديْه مالٌ، ومع ذلك كان أبو طالب سيّد قريش في زمانه. فإذا مات أبو طالب لم يعدْ في بني هاشم ـ في اعتقاد قريش ـ من يصلح للزّعامة. لأنّ العباس كان مُرابياً، والرِّبا يستدعي أمورا تتنافى وعلوّ الهمّة، والرّبا نفسه قبيحٌ عند أولي الألباب، وقد أكّد القرآن ذلك فيما بعد. والذين كانوا ينتظرون موت أبي طالب لاستلام الزّعامة هم بنو أميّة وبنو مخزوم. وأحسن دليل على ما نحن بصدده ما جاء في البداية والنهاية: «قلل رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم هلمّ إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله، فقال أبو جهل: يا محمّد هل أنت منته عن سبّ آلهتنا؟ هل تريد إلاّ أن نشهد أنّك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلّغت فو الله لو أنّي أعلم أنّ ما تقول حقّ لاتّبعتك. فانصرف رسول الله، وأقبل عَلَيّ[1] فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء. إن بني قصيّ قالوا فينا الحجابة، فقلنا نعم، ثمّ قالوا فينا السّقاية، فقلنا نعم، ثمّ قالوا فينا النّدوة، فقلنا نعم، ثمّ قالوا فينا اللّواء، فقلنا نعم، ثمّ أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكّت الرّكب قالوا منّا نبيّ، والله لا أفعل»[2].

---

(١) المتحدّث هو المغيرة بن شعبة، وهذه حجة عليه فإنّه سمع أبا جهل يقسم أنّ رسول الله ﷺ على حقّ.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٣ ص٦٥.

وأما الفئة الثانية من قريش فهي التي لا مال لها ولا شرف ولا عزّة ولا منعة. بحيث يصحّ تسميتها ذَنَب قريش؛و هذه الفئة تتمثّل في تيم وعديّ وما أشبههما. هذه الفئة أيضا تحلم بالزّعامة، ولأجل الوصول إليها لا بدّ لها من طريق غير طريق المال والوجاهة القبليّة المتمثّلة في كثرة العدد والعدّة. وهذه الفئة الثّانية سمعت رسول اللهﷺ يقول: أطيعوني تملكوا العرب. وهي تعلم أنّ رسول اللهﷺ لا يهزل. وكيف يهزل من يتحدّى قبائل العرب بدين جديد؟! ويعرض نفسه للموت من أجل ذلك؟! إذن فهي الفرصة التي لا تتكرّر ولا ينبغي أن يسبقهم إليها غيرهم. والدّليل على ضعة هذه الفئة في نسب قريش ما ذكره ابن كثير من قوله: «وقد روى أبو نعيم له شاهداً من حديث كعب بن مالك (رضي الله عنه) في قصة عامر بن صعصعة، وقبيح ردّهم عليه، وأغرب من ذلك وأطول ما رواه ابو نعيم والحاكم والبيهقي والسياق لأبي نعيم رحمهم الله من حديث أبان بن عبد الله البجلي، عن أبان بن تغلب، عن عكرمة، عن ابن عبّاس، حدّثني عليّ بن أبي طالب، قال: لما أمر الله رسوله أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبوبكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبوبكر (رضي الله عنه) فسلّم وكان أبوبكر مقدّماً في كلّ خير وكان رجلاً نسّابة، فقال: ممّن القوم، قالوا: من ربيعة، قال: وأيّ ربيعة أنتم أمن هامها أم من لهازمها؟ قالوا بل من هامها العظمى، قال: أبوبكر فمن أيّ هامتها العظمى، فقال ذهل الأكبر، قال لهم أبوبكر: منكم عوف الذي كان يقال لاحرّ بوادي عوف؟ قالوا: لا، قال: فمنكم بسطام بن قيس، أبو اللّواء ومنتهى الأحياء، قالوا: لا، قال: فمنكم الحوفزان بن شريك قاتل الملوك

وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا، قال: فمنكم جسّاس بن مرة بن ذهل حامي الذّمار ومانع الجار، قالوا: لا، قال: فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة، قالوا: لا، قال: فأنتم أخوال الملوك من كندة، قالوا: لا، قال: فأنتم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا، قال: لهم أبوبكر (رضي الله عنه): فلستم بذهل الأكبر، بل أنتم ذهل الأصغر، قال: فوثب اليه منهم غلام يُدعى دغفل بن حنظلة الذّهلي، حين بقل وجهه فأخذ بزمام ناقة أبي بكر، وهو يقول

إنّ على سائلنا أن نسأله والعبء لا نعرفه أو نحمله

ياهذا إنّك سألتنا فأخبرناك ولم نكتمك شيئا ونحن نريد أن نسألك فمن أنت، قال: رجل من قريش، فقال الغلام: بخٍ بخٍ أهل السؤدد والرئاسة قادمة العرب وهاديها، فمن أنت من قريش، فقال له رجل من بني تيم بن مرّة، فقال له الغلام، أمكنْت والله الرّاميَ من سواء الثّغرة، أفمنكم قصيّ بن كلاب الذي قتل بمكّة المتغلّبين عليها وأجلى بقيّتهم، وجمع قومه من كل أوب حتّى أوطنهم مكّة، ثمّ استولى على الدّار وأنزل قريشاً منازلها، فسمّته العرب بذلك مجمّعاً وفيه يقول الشاعر:

أليس أبوكم كان يدعى مجمّعا به جمع الله القبائل من فهر؟

فقال أبوبكر: لا، قال: فمنكم عبد مناف الذي انتهت اليه الوصايا وأبو الغطاريف السادة؟ فقال أبوبكر: لا، قال: فمنكم عمرو بن عبد مناف هاشم الذي هشم الثّريد لقومه ولأهل مكّة ففيه، يقول الشّاعر:

عمرو العلا هشم الثّريد لقومه ورجال مكّة مسنتون عجاف

سنّوا اليه الرّحلتين كليهما عند الشّتاء ورحلة الأصياف

كانت قريش بيضة فتفلقت فالمحّ خالصة لعبدمناف

الرّيشين وليس يعرف رايش والقائلين هلم للأضياف

والضّاربين الكبش يبرق بيضه والمانعين البيض بالأسيافَ

لله درّك لو نزلت بدارهم منعوك من أزل ومن إقراف

فقال أبوبكر: لا، قال: فمنكم عبد المطلب شيبة الحمد وصاحب عير مكّة، ومطعم طير السّماء والوحوش والسّباع في الفلا الذي كأنّ وجهه قمر يتلألأ في الليلة الظّلماء؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الإفاضة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل السّقاية أنت؟ قال لا قال أفمن أهل الرّفادة أنت؟ قال لا قال فمن المفيضين أنت، قال: لا، ثمّ جذب أبوبكر (رضي الله عنه) زمام ناقته من يده فقال له الغلام:

صادف درّ السّيل درّ يدفعه يهيضه حينا وحينا يرفعه

ثمّ قال أما والله يا أخا قريش لو ثبتّ لخبّرتك أنّك من زمعات قريش ولست من الذّوائب، قال فأقبل الينا رسول الله يتبسم قال عليّ: فقلت له يا أبا بكر لقد وقعت من الأعرابيّ على باقعة فقال أجل يا أبا الحسن إنّه ليس من طامّة إلاّ وفوقها طامّة والبلاء موكّل بالقول»[1].

والقصة مذكورة أيضاً بين الإجمال والتفصيل في لسان العرب

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٣ ص١٧٥؛ وراجع لسان العرب، ابن منظور: ج١ ص٣٩٧؛ والإصابة: ج٢ ص٣٨٩؛ والفائق: ج٣ ص٤٢٣؛ والرياض النضرة: ج٢ ص٥٣.

والثّقات والإصابة والفائق والرّياض النّضرة وإن كان صاحب الرّياض النّضرة قد حاول بضروب من التأويل في أن يوهِم القارئ، بخلاف ما جرى محاولةً منه لرفعِ مقام من هو من زمعات قريش، فذكر كلاماً كانَ في غنىً عن ذكْره، وغايةُ ما يُقال فيه: «وهل يُصلِح العطّار ما أفسد الدهر». والمُنصِف لا يجدُ في ما ذكر دغفل النّسابة إلاَ مدحاً لآباء رسول الله ﷺ.

واندسَ هولاء (الزّمعات) ـ على حدّ تعبير دغفل النّسّابة ـ بين المؤمنين بالدّين الجديد، وتظاهروا بما لابدّ منه للوصول إلى مآربهم، ومن تتبّع أحداث تاريخ الإسلام لم تخْفَ عليه أشخاصُهم وأوصافُهم، وما تعرّضت له الأمّة على أيديهم فيما بعد.

وقد كان الأوْلى بقريش (الفئة الكثيرة المعارضة للرّسالة) أن تتمهّل وتتأنّى لا أن تحكم على النّبيّ ﷺ تلك الأحكام القاسية وتحاول اغتياله بشتىّ الوسائل. لكن النّبيّ ﷺ جاء بدين يساوي بين العباد في الحقوق والتّكليف، وفي قريش نزعة زعامة تتصورّ من خلالها أنّها الشّعب المختار، هذا والأنصاب منصوبة في (الكعبة) والبيوت، والشّرك جاثم على البلد الحرام، وما أحسن ما وصفت فاطمة الزهراء ﷺ تلك الحقْبة الزمنية الرّهيبة في خطبتها المهيبة المذكورة في بلاغات النّساء: «وكنتم على شفا حفرة من النّار، مذقة الشّارب، ونهزة الطّامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطّرق، وتقتاتون القدّ والورق، أذلّة خاسئين تخافون أن يتخطّفكم النّاس من حولكم فأنقذكم الله تعالى بمحمّد ﷺ بعد اللّتيا والتي...»[1].

وأشار إلى ذلك ابن عبّاس، كما في جمهرة خطب العرب: «... فحمد الله

---

(١) بلاغات النّساء، ابن طيفور: ص١٣.

وأثنى عليه وصلّى على رسول الله وآله، ثم قال: أيّها النّاس إنّ ابن الزّبير يزعم أن لا أوّل لرسول الله وآله ولا آخر، فيا عجباً كلّ العجب لافترائه وتكذّبه، والله إنّ أوّل من أخذ الإيلاف وحمى عيرات قريش لَهاشم وإنّ أوّل منْ سقى بمكّة عذباً، وجعل باب الكعبة ذهباً لعبد المطّلب. واللهِ لقد نشأت ناشئتنا مع ناشئة قريش، وإن كنّا لقالَتَهم إذا قالوا وخطباءَهم إذا خطبوا، وما عُدّ مجدٌ كمجْد أوّلنا، ولا كان في قريش مجْد لغيْرنا، لأنّها في كُفر ماحق ودينٍ فاسق وضلّة وضلالة في عشواء عمياء حتّى اختار الله تعالى لها نوراً وبعث لَها سراجاً فانتجبَهُ طيّباً من طيّبين، لا يُسبّ بمسبّة ولا يبغى عليه غائلة فكان أحدَنا وولدَنا وعمّنا وابنَ عمّنا، ثم إنّ أسبقَ السّابقين إليه منّا، وابنُ عمّنا، ثمّ تلاه في السّبق أهلنا ولحمتنا واحداً بعد واحد، ثمّ إن خير النّاس بعده أكرمهم أدباً وأشرفهم حسباً، وأقربهم منه رحماً. واعجبا كلّ العجب لابن الزّبيْر يعيب بني هاشم، وإنّما شرُف هو وأبوه وجدّه بمصاهرتهم، أما والله إنّه لمصلوب قريش، ومتى كان العوام بن خويلد يطمع في صفيّة بنت عبد المطّلب؟ قيل للبغْل من أبُوك يا بغْل، فقال خالي الفَرَسُ. ثمّ نزل»[1].

والذي يتأمّل في ما بدر من قريش إزاء النبيﷺ، يلاحظ توافقاً كبيراً بينها وبين بني إسرائيل في الموقف من الزّعامة بغير حقّ. وكأنّ زعماء قريش تربّوا على أيدي أولئك، لأنّهم قالوا مثلهم تماماً. وحين التأمّل في ما قالوا: يتبيّن أنّ معنى الحقّ عند قريش واليهود يخضع للهوى والرؤية القبلية الضّيقة.

---

(١) جمهرة خطب العرب: ج٢ ص١٠٧.

يقصّ علينا القرآن قصة قوم من بني إسرائيل من بعد موسى طلبوا من نبيّ لهم أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل الله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

إذاً، فقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى ذاك النّبيّ أنه قد بعث لهم رجلاً اسمه طالوت... ومن الصّفات التي أهّلت طالوت للقيادة أنّ الله زاده بسطة في العلم والجسم. فالأمّة حينئذ مطمئنة إلى قائدها في كلّ ما تحتاج إليه من الأمن والمعرفة إذا كان صاحب بسطة في العلم والجسم، لأنه بذلك لا يتردّد في الدّفاع عنها، كما أنّه لا يقصّر في تعليم الأفراد وبيان أحكام ما يتعلق بدينهم ودنياهم. لكن هل استقبل اليهود ما اختار الله لهم برحابة صدر بحيث لم يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى؟ أم أنّهم رفضوا ذلك؟

يصرّح القرآن الكريم بأنّهم استنكروا ذلك، وقالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه! ومعنى عبارة «نحن أحقّ بالملك منه» أنّ الحقّ أن يكون الملك في أحد منّا لا عند طالوت. فكأنّما هناك ظلم وغبن. وكأنّ التّعيين الذي جاء من السّماء في غير محلّه. فمِنْ أين لهمْ هذه

---

(١) البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

الأحـقّيّة؟ وما هي مبرّراتها؟

لقد برّروا ذلك بأنّ طالوتَ المصطفى لم يؤتَ سعةً من المال. فالمال إذاً أحدُ المعايير المُقدّسة للزّعامة في نظرهم. فهل توافقهم السّماء على هـذه المعايير؟

إنّهم لم ينصّبوا أحدَ أغنيائهم لأنّهُم كانوا يريدون حاكمـاً شـرعيّاً منـصّبا من السّماء، ولذلك توجّهوا إلى نبيّهم ، فلمّا جاء التّنصيبُ بغيـر مـا يوافـق هواهُم استنكروا ذلك مع اعتقـادهم بأنّـه وحـيٌ مـن الـسّماء، ولا عجـبَ فليستْ أوّل مرّة يردّ فيها بنو إسرائيل على وحـي الـسّماء. فـالحقّ عنـدهم يدور مدار موافقة هواهم. فإذا وافق هواهم فهو الحقّ، وإذا خـالف هـواهم كان أمراً يدعو إلى التعجّب. وقد نعى القرآن الكريم هذه الرؤية على أقـوام من معاصري النّبيّ ﷺ ممّن يدّعون الإيمان ونفى عـنهم الإيمـان ونـسبهم إلى الظّلم. قال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٢].

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾[٣]، ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٤].

---

(١) النور: ٤٧.

(٢) النور: ٤٨.

(٣) النور: ٤٩.

(٤) النور: ٥٠.

ثم بيّن المولى سبحانه وتعالى كيف يكون استقبالُ الحقّ من طرف المؤمنين فقال:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١]، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[٢].

إذاً فقد استنكر الملأ من بني إسرائيل أن يكون الملك في طالوت مع أنّه تنصيب من السّماء.

هذا الاستنكار نفسه صدر من قريش في حق النّبيّ ﷺ إنّها نفس المعايير التي تمسّك بها اليهود في قضيّة طالوت. وسجّلها القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. وقد ردّ المولى سبحانه وتعالى على قريش المتكبرة: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٣].

قال صاحب الميزان: «في تفسير الآية والتي بعدها: «المراد بالقريتين مكّة والطّائف، ومرادهم بالعظمة ـ على ما يفيده السّياق ـ ما هو من حيث المال والجاه الذين هما ملاك الشّرافة وعلوّ المنزلة عند أبناء الدّنيا، والمراد بقوله (رجل من القريتين عظيم) رجل من إحدى القريتين عظيم، حذف المضاف إيجازاً. ومرادهم أنّ الرسالة منزلة شريفة إلهيّة لا ينبغي أن يتلبّس

---

(١) النور: ٥١.

(٢) النور: ٥٢.

(٣) الزخرف: ٣٢.

بها إلاّ رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه، والنّبيّ صلى الله عليه وآله فقير فاقدٌ لهذه الخصلة، فلو كان القرآن الذي جاء به وحياً نازلاً من الله فلولا نزل على رجل عظيم من مكّة أو الطّائف كثير المال رفيعِ المنزلة. وفي المجمع: ويعنون بالرّجل العظيم من إحدى القريتين الوليد بن المغيرة من مكّة وأبا مسعود عروة بن مسعود الثّقفي من الطّائف. عن مجاهد، وقيل عتبة بن أبي ربيعة من مكّة وابن عبد ياليل من الطّائف... الوليد بن المغيرة من مكّة وحبيب بن عمر الثّقفي من الطّائف. عن ابن عبأس...

[ثم قال في تفسير] قوله تعالى ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ...﴾: والآية والآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ...﴾ محصّلها أنّ قولهم هذا تحكّمٌ ظاهرٌ ينبغي أنّ يُتعجّب منه فإنّهم يحكمون في ما لا يملكون. هذه معيشتهم في الحياة الدّنيا يعيشون بها ويرتزقون وهي رحمة منّا لا قدرَ لها ولا منزلة عندنا وليست إلاّ متاعاً زائلاً، نحن نقسمها بينهم وهي خارجة عن مقدرتهم ومشيتهم، فكيف يقسمون النّبوّة التي هي الرّحمة الكبرى وهي مفتاح سعادة البشر الدائمة والفلاح الخالد فيعطونها لمن شاؤوا ويمنعونها ممّن شاؤوا»[1].

وعليه، فتفكير قريش ليس بعيداً من تفكير اليهود، واستعلاؤهم وتكبرهم أيضاً من نفس النّمط. إنّهم لا يهمّهم مدى ما يكون عليه الإنسان من خلق وفضيلة، وإنّما يهمّهم ما يملكه من الحطام والعشيرة. وأصحاب مثل هذا التفكير لا بدّ أنّ ينحطّوا ويسفلوا إذ لا سبيل لهم به إلى السّموّ والكمال. وكذلك كان؛ فإنّ العرب ومنهم قريش كانوا يدفنون البنتَ لأول

(١) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: ج١٨ ص٩٨.

ولادتها، ولا يتحملون أن يعترض عليهم معترض في ذلك. كانوا يسيئون الجوار ويأكل القويُّ منهم الضّعيفَ، ويأتون الفواحش ويعبدون الأصنام، ويتصوّرون مع ذلك أنّهم أهل شرافة، لأنّ البيت الحرام موجودٌ في مكّة. كانوا يعيشون زعامةً وهميّة، يتصوّرون منها أنهُم سادة، وأنّهم وأنّهم... فكيف يقبلون ديناً جديداً يساوي بينهم وبين غيرهم ممّن ليس له بيت حرام؟ وإن هذا دينٌ يجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إنّ هذا لشيء عجاب! لماذا إله واحد، والزّعامة القبليّة ولواحقها إلى أيّ شيء تؤول؟ أيكون من المعقول نسفُ كلّ تلك الرّسوم لأجل ما يقوله رجل بسيط تربّى يتيماً، وهو الآن يدّعي أنّ الوحي نزل عليه من السّماء؟ لماذا هو بالذّات؟ ألم تجد السماء غيره ممّن هم أكثر منه مالاً وأعزّ نفراً؟

ذلك التفكيرُ الاستكباري لم يفارق قريشاً لا في حياة النّبيّ ﷺ ولا بعد وفاته. ولذلك فإنّها بعدَ أنّ أرغمت على الدخول في الإسلام لحقن دمائها راحت تخطّط لتضرب من الدّاخل، وفعلاً ضربت وأصابت ضرباتُها. لقد قبلت قريش الإسلام ظاهراً، وداهنت ونافقت وناورت مع النّبيّ ﷺ، وحاكت خيوطها في الخفاء، وقبل أن يغمض النّبيّ ﷺ عينيه لآخر مرّة، كانت النبوّة والإمامة والقرآن والسنّة وكلّ مقوّمات الإسلام تحت حصار قرشي في بيت النّبيّ ﷺ نفسه. كان اللّغط والتّنازع والفوضى تمهيداً للتّعتيم وإدخال الشّبهات على ضعفاء العقول. كان لابدّ من تضييق الخناق ولو باتهام النّبيّ ﷺ بأنّه يهجر! المهمّ أن يتمّ الأمر لقريش لأنّه أمرها وبعبارة قائد المناورة لأنّه سلطان قريش! هذا الأمر الذي طالما كادت له قريش لتطفئ نور الله، أصبح أمرَها وسلطانَها وليس لأحد أن ينازعها فيه

حتّى لو كان أخا النبيّ ﷺ.

ونفسه بصريح القرآن. من ذا ينازع قريشاً سلطان محمّد؟ أليس محمّد منها؟ فهي أولى به من غيرها أحبَّ من أحبَّ وكره من كره.

لكن التاريخ كفيلٌ بحفظ الحقائق والوقائع مهما لعب المتلاعبون، وخطّط أصحاب المقاصد والغايات، وليس للإنسان في آخر الأمر إلاّ ما سعى. والذين سعوا في المؤامرة ومنعوا رسول الله ﷺ أن يختم مسيرته بما فيه سعادة البشريّة، مع كلّ ما مارسوه من الظّلم والضّغط والكيد والمكر لم يستطيعوا أن يصلوا إلى العقول الحرّة والضّمائر الحيّة. لقد استولوا على المناصب شكليّاً، وتمتّعوا بذلك أيّاماً، لكنّ الإسلام الصّحيح لا يزال يرفضهم ويتبرأ منهم، ويشير إلى فضائحهم، ويشيد بالذين لم يخونوا ولم يبدّلوا تبديلاً.

إنّه لم يكن مع رسول الله ﷺ في شعب أبي طالب (ره) سوى بني هاشم. يعانون حصار قريش صاحبة السّلطان فيما بعد! والتّاريخ سجّل اجتماع ممثلي قريش لقتل النّبيّ ﷺ بطريقة يتوزّع بها دمه في القبائل فلا يستطيع بنو هاشم أن يصنعوا شيئاً. والتّاريخ سجّل أيضاً أنّ قريشاً جمعت الجيوش لحرب رسول الله في بدر وأحد والخندق! فما من قبيلة إلاّ وقد شاركت بمالها ورجالها في محاربةالإسلام، اللهم إلاّ قبيلة بني هاشم. يحقّ لقبيلة هاشم أن تستشعر أنّ لها في أعناق المسلمين ذمماً لا يفي بها شيء إلى يوم القيامة.كما يحقّ لها أن تشمخ أنوفها إذْ لم تنكس لرسول الله راية، بخلاف ما فعله أصحاب سلطان محمّد ﷺ ومن أنصف يقرّ أنّه لا يقاس ببني هاشم قبيلة، لا قبل الإسلام ولا بعده.

جاء في معجم قبائل العرب ما يلي: «هاشم بن عبد مناف بطن من قريش من العدنانيّة وهم بنو هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف، بن قصيّ، بن كلاب، بن مرّة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن خزينة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر. من أيّامهم يوم شطّة، كان بينَ بني هاشم وبني عبد شمس، وهو من أيّام الفجار... وكان هاشم أوّل من سنّ الرّحلتين، فكان يرحل في الشّتاء إلى اليمن وإلى الحبشة فيكرمه النّجاشيّ، ويرحل في الصّيف إلى الشّام، وبها مات. وربّما وصل إلى أنقرة فيدخل على قيصر فيكرمه. ومن خصال بني هاشم ما عبَّر عنها عليّ بن أبي طالب: خصصنا بخمس، فصاحة وصباحة وسماحةً، ونجدة وحظوة»[١].

مادامت قريش تريد العظمة فأي عربيّ أعظم ممن يستقبله النّجاشيّ في الحبشة فيكرمه، ويستقبله قيصر في أنقرة فيكرمه؟!

من غيرُ هاشم حَظِيَ بهذه المنزلة عند ملوك العجم؟

إنّ نظرة في خطبة هاشم بن عبد مناف في قريش عند اقتراب موسم الحج تعطي صورة رائعة عن هذه الشخصية العظيمة، وبينما كان غيره يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به أيمسكه على هون أم يدسّه في التراب،كان هاشم يأمر بمكارم الأخلاق، ويذكّر قريشاً بفضل الله عليها، ويدعو إلى إكرام الحاجّ، قارناً قوله بفعله؛ هو ذا يقول في خطبة مأثورة:

«يا معشر قريش، أنتم سادة العرب، أحسنها وجوهاً وأعظمها أحلاماً

---

(١) معجم قبائل العرب، عمر كحالة: ج٣ ص١٢٠٧.

وأوسطها أنساباً، وأقربها أرحاماً.

يا معشر قريش أنتم جيران بيت الله أكرمكم بولايته وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره، فأكرموا ضيفه وزوّار بيته فإنهم يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد! فورب هذه البنية لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه، ألا وإني مخرج من طيّب مالي وحلاله ما لم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام فواضعُه؛ فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل. وأسألكم بحرمة هذا البيت ألاّ يُخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلاّ طيّباً لم يؤخذ ظلماً ولم يقطع فيه رحم ولم يغتصب»[1].

ما أحوج تجّار زماننا والأثرياء إلى أخذ دروس العفّة والورع من هذا الرجل الذي كان يعيش قبل البعثة النبويّة بزمان. أليست كلماته وافية في بيان صفة المال الحلال والإنفاق الطيّب. وما أكرمه وأعظمه حين يقسم أنه لو كان ماله يفي بحاجة زوّار بيت الله لكفاهم مؤونة الإنفاق. ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**﴾[2].

وهذا عبد المطلب بن هاشم يهنّئ الملك سيف بن ذي يزن، بمناسبة استرداد ملكه من الحبشة فيقول:

«إنّ الله تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً، صعباً، منيعاً، باذخاً، شامخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعه في

(١) جمهرة خطب العرب: ج١ ص٧٥.
(٢) الأعراف: ٥٨.

أكرم معدن وأطيب موطن...»[١].

وهذا أبو طالب مؤمن قريش (ره) يخطب حين زواج النّبيّ ﷺ بالسيّدة خديجة عليها السلام، فيقول:

«الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكام على النّاس، إنّ محمّد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلاّ رجح عليه براً وكرماً وفضلاً، وعقلاً ومجداً ونبلاً، وإن كان في المال مقلا فإنّ المال عارية مسترجعة وظل زائل..»[٢].

بينما ترى قريش العظمة في المال يقول عنه أبو طالب(ره): عارية مسترجعة وظل زائل.

هل ترى هاشماً وبنيه ذكروا مع الله غيره في كلامهم؟

هل تراهم اهتمّوا لشيء سوى فعل الخير والدّعوة إلى مكارم الأخلاق؟

هذا الفكر السّليم هو وحده دون باقي قريش استقبل الرّسالة المحمّدية برحابة صدر، باستثناء أبي لهب الذي كان مرتبطا ببني أميّة عن طريق زوجته أمّ جميل حمّالة الحطب. وهذا الفكر السّليم هو وحده الذي استطاع أن يصمد في وجه كل المؤامرات، ليشعّ النّور على الأرض فيما بعد.

هذه الخصال في بني هاشم كانت تلهب قلوب قريش غيظاً وحسداً، وشواهد ذلك من التاريخ ثابتة لا تُدفع.

روى الطبري في تاريخه ما يلي:

---

(١) كنز الفوائد، أوب الفتح الكراجكي: ص٨٣؛ بحار الأنوار، المجلسي: ج١٥ ص١٨٧.
(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني: ص١٥٣.

«... فقال عمر أحسن وما أعلم أحدا أولى بهذا الشّعر من هذا الحيّ من بني هاشم لفضل رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وقرابتهم منه فقلت: وفقت يا أمير المؤمنين ولم تزل موفقاً، فقال: يا ابن عباس أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمّد؟ فكرهت أن أجيبه، فقلت:إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني، فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوّة والخلافة، فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لانفسها فأصابت ووفقت، فقلت: يا أمير المؤمنين إن تأذن لي في كلام وتميط عني الغضب تكلمت، فقال: تكلّم يا ابن عباس، فقلت: أمّا قولك يا أمير المؤمنين اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت، فلو أنّ قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عزّ وجلّ لها لكان الصّواب بيدها غير مردود ولا محسود، وأمّا قولك إنّهم كرهوا أن تكون لنا النبوّة والخلافة، فإنّ الله عزّ وجلّ وصف قوماً بالكراهيّة فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فقال عمر: هيهات والله يا ابن عباس قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أنّ أقرك عنها فتزيل منزلتك مني! فقلت: وما هي يا أمير المؤمنين، فإنّ كانتْ حقّاً فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وإن كانت باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه فقال عمر: بلغني أنّك تقول إنّما صرفوها عنا حسداً وظلماً فقلت:أمّا قولك يا أمير المؤمنين ظلماً فقد تبيّن للجاهل والحليم، وأما قولك حسداً فإنّ إبليس حسد آدم فنحن ولده المحسودون، فقال عمر: هيهات أبتْ والله قلوبكم يا بني هاشم إلاّ حسداً ما يحول وضغنا وغشاً ما يزول فقلت: مهلاً يا أمير المؤمنين لا تصب قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً بالحسد والغشّ فإنّ قلب رسول الله (صلى الله

عليه وسلّم) من قلوب بني هاشم فقال عمر إليك عنّي يا ابن عباس»[١].

لكنّ ابن ابي الحديد يروي ما يؤيّد ما ذهب إليه ابن عبّاس ويكشف عن تناقض في كلام عمر ومواقفه، ففي شرح نهج البلاغة «سأل عمر ابن عباس:

هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ [يعني علياًعليه السلام] قلت: نعم، قال: أيزعم أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله نص عليه؟ قلت: نعم، وأزيدك سالت أبي عما يدعيه فقال: صدق، فقال عمر: لقد كان من رسول اللهصلى الله عليه وآله في امره ذرو من قول لا يثبت حجة، ولا يقطع عذراً ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام، لا ورب هذه البنيّة لا تجتمع عليه قريش أبداً ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول اللهصلى الله عليه وآله أنّي علمت ما في نفسه، فامسك وأبى الله إلاّ إمضاء ما حتم»[٢].

وقال ابن أبي الحديد: «وقع بين عثمان وعليّ كلام، فقال عثمان: ما أصنع إن كانت قريش لا تحبّكم، وقد قتلتم منهم يوم بدر سبعين كأنّ وجوههم شنوف الذهب»[٣].

هو ذا الصّحابي الجليل الذي تستحي منه الملائكة لا يستحي من الله، ويدافع عن المشركين الذين قُتلوا في بدر وهم يحاربون الله ورسوله، ويقول بكلّ صلافة كأن وجوههم شنوف الذهب عن وجوه رماها رسول

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج٣ ص٢٨٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١٢ ص٢١.

(٣) شرح نهج ابلاغة، ابن أبي الحديد: ج٩ ص٢٣.

الله وقال حين رميها: شاهت الوجوه!

وفي تاريخ المدينة:

عن أبي الأزهر أنّ النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) قال:

إنّ بني هاشم فُضّلوا على النّاس بستّ خصال: هم أعلم النّاس، وأشجع النّاس، وهم أسمح النّاس، وهم أحلم النّاس، وهم أصفح النّاس، وأحبّ النّاس إلى نسائهم. حدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) قال، قلت: يا رسول الله، إن قريشاً إذا لقي بعضها بعضاً لقوا ببِشْرٍ حَسنٍ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها، فغضب غضباً شديداً فقال: والّذي نفس محمّد بيده لا يدخلُ قلبَ عبد الإيمانُ حتى يحبّكم لله ولرسوله»[1].

إنّ استشفاف حالة العرب عامّة وقريش خاصّة متيسّر من خلال تتبّع آيات القرآن الكريم.قال تعالى في معرض وصف حالهم:

إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا.

وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته...

تخافون أن يتخطفكم النّاس فآواكم وأيّدكم بنصره...

وقال بخصوص قريش:

لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. (وهي الآية الوحيدة التي ذُكرت

---

(١) تاريخ المدينة، ابن شبة النميري: ج٢ ص٢٣٩.

فيها قريش باسمها صريحا).

وقد كانت قريش على علم بصدق رسول الله في نبوّته، ولكن يمنعها من اتباعه والانقياد له كبر توارثه كبراؤها. في البداية والنهاية ٣: ٦٥: ... قال رسول الله لأبي جهل: يا أبا الحكم هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله فقال أبو جهل: يا محمّد هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلاّ أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فو الله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك. فانصرف رسول الله وأقبل عَليّ فقال: والله إنّي لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء. إن بني قصي قالوا فينا الحجابة فقلنا نعم ثم قالوا فينا السقاية فقلنا نعم ثم قالوا فينا الندوة فقلنا نعم ثم قالوا فينا اللواء فقلنا نعم ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي والله لا أفعل. اهـ

يقول أبو جهل: والله إني لأعلم أنّ ما يقول حق! فهو يعترف بأن ما يقول النّبيّ ﷺ حقّ. لكن هل ينقاد له؟ إنه يقول بعد ذلك: ولكن يمنعني شيء! وفي آخر كلامه يقول: والله لا أفعل!

لقد كانت قريش تعتبر نفسها فوق الجميع دون التفات إلى بني هاشم، واحتفظ الخليفة عمر بن الخطاب بهذه الرؤية، واحتفظ بها بنو أميّة من بعده.

يقول الشيخ علي الكوراني العاملي (الشيعي) في كتابه تدوين القرآن[١]:

نفهم من هذه الروايات الصحيحة بمقاييس إخواننا، أنّ الخليفة[٢] يرى أنّ قريشا فوق الجميع، ولا يجوز أن يُساوَى بها أحد «لقد كنت أرى أنّا

---

(١) تدوين القرآن ـ علي الكوراني العاملي ١٥٦.

(٢) الخليفة المقصود هنا هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

رُفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا» وكان يرى أنّ وجود الواو في الآيـة يجعـل الأنصار على قدم المساواة مع المهاجرين، فالحلّ أن تقرأ الآيـة المثـة مـن سورة التوبة (والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنـصار الـذين اتبعـوهم بإحسان..) فترفع كلمة الأنصار وتحذف الواو بعدها وتكون جملـة (الـذين اتبعوهم) صفة للأنصار، ليكون المعنى: أن الله رضي عن المهـاجرين وعـن أتباعهم من الأنصار!!

أخوة النبي ﷺ وعلي عليه السلام

الباعث على كتابة هذا المقطع أنّني كنت يوما في مطالعة كتاب من الكتب التي تتحدّث حول ما تعرّض له المسلمون بعد وفاة النّبيّ ﷺ، فاستوقفتني عبارة لم أكن أتوقّعها، وإن كنت الآن أتوقع كثيرا من مثيلاتها. نعم، مررت بهذه الجملة في كتاب الإمامة والسياسة(١):

[... فلما سمع القوم صوتها وبكاءها [أي فاطمة الزهراء عليها السلام] انصرفوا باكين وكادت قلوبهم تنصدعُ، وأكبادهم تنفطرُ، وبقي عمر ومعه قوم، فأخرجوا عليًا فمضوا به إلى أبي بكر، فقالوا له: بايعْ، فقال: إن أنا لم أفعلْ فمه؟ قالوا: إذاً والله الذي لا إله إلاّ هو نضرب عنقك، فقال: إذا تقتلون عبد الله وأخا رسوله، قال عمر: أما عبد الله فنعم، وأما أخو رسوله فلا، وأبوبكر ساكت]. وهنا توقفتُ، وحقّ لي أنْ أتوقّف، فالأمر خطير. هذان صحابيّان من أصحاب رسول الله يكذّب أحدهما الآخر، وأكثر من ذلك أنّهما من الخلفاء الراشدين، ومن العشرة المبشّرين بالجنة!! لقد علّمونا أن الخلفاء الراشدين فوق كل اعتبار، فإذا بالخلفاء الراشدين يكذّب بعضهم بعضا. وأخبرونا أن احترام بعضهم بعضا كان بدرجة لا توصف، وهذه السطور تحكم بخلاف ذلك، فإن فيها التهديد بالقتل، وكذب من زعم أنه يحترمك وهو يريد قتلك!!

لماذا نحتفظ بالمتناقضات والمتضاريات وقد أُمرنا بالتدبّر والتفكّر؟ ويقولون لنا ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾. أليس مُنزل ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ هو نفسه الذي أنزل ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾؟ إمّا أن يكون هذا

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري، بتحقيق الزيني ١: ٢٠.

المذكور في الكتاب صحيحا وحينئذ ينبغي علي أنّ أبحثَ وأبحثَ لأكونَ على بيّنة من أمري، فلا خير في من لا يميّز بين الحقّ والباطل، وإمّا أن يكون كذبا وساعتها يحق لي إعادة النظر في كثير من الأشياء!

إذاً لا بد من البحث للوصول إلى الحقّيقة، ولا يكفي التعلّل بعبارات ارتُجلت للتخويف من عواقب البحث بدعوى صون عقائد المسلمين واعتقادهم في السلف.

إنّ المسألة ههنا خطيرة! لأنها تتعلق بالخليفتين الراشدين، وهما في نفس الوقت مُبَشّرانِ بالجنّة. والخلاف بينهما في هذه المسألة لا يتعلق بقضية اجتهادية يمكن تأويلها كما جرت العادة، بل بقضية جوهرية ترتبط بالنقل عن رسول الله. فأحد الخليفتين يدّعي شيئا والآخر ينفيه، ولا يمكن الجمع بحال. أضف إلى ذلك أن النّبيّ قال: من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من لنار. ولم يقدُم العهد حتى يمكن الحديث عن النّسيان على رأي من لا يؤمن بعصمة الأنبياء والأئمّة، فإن الواقعة حدثت في نفس الأسبوع الذي توفي فيه النّبي؟!

وسرعان ما وجدتني أستحضر آيات قرآنية في الباب، وخطر بذهني قوله تعالى: إنما المؤمنون إخوة. فعليّ بن أبي طالب عليه السلام لا يحتاج إلى إثبات دعواه لأنها من المُسلّمات. هذا القرآن يشهد أن المؤمنين إخوة، ورسول الله سيّدهم وعليّ عليه السلام أحدهم، فأين الغرابة، ولماذا ينفي عمر ذلك؟

إن عليّا عليه السلام احتج بهذه الكلمة مستعظما فعلتهم إن هم قتلوه كما يهدّدون فهذه الكلمة إذا تنطوي على خصوصية لا يشاركه فيها غيره، وإلاّ

لقال تقتلون أحد المسلمين، فلماذا قال تقتلون عبد الله وأخا رسوله؟

روى الزرندي الحنفي في نظم درر السمطين:

«عن عمر بن عبد الله بن يعلي بن بن مرة، عن أبيه، عن جده قال:آخى رسول الله ﷺ بين المسلمين وجعل يخلّف علياً حتّى بقى في آخرهم وليس معه أخ له فقال له عليّ: آخيت بين المسلمين وتركتني فقال: إنّما تركتك لنفسي أنت أخي وانا أخوك ثم قال له النّبيّ ﷺ: ان ذاكرك أحد فقل: أنا عبد الله وأخو رسوله ولا يدّعيها بعدي إلاّ كاذب مفتر»[1].

إذاً فالذي لقّنه ذلك هو النّبيّ ﷺ بنفسه وقول النّبيّ ﷺ وفعله وتقريره حجّة.

وعن جابر بن عبد الله وسعيد بن المسيب قالا: «إنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) آخى بين أصحابه فبقي رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وأبوبكر وعمر وعليّ، فآخى بين أبي بكر وعمر وقال لعليّ: أنت أخي وأنا أخوك، فإن ناكرك أحد فقل: أنا عبد الله وأخو رسول الله، لا يدّعيها بعدك إلاّ كذاب»[2].

إذاً فقد كان عمر حاضراً حين قال النبي لعليﷺ: أنت أخي وأنا أخوك أخي فإن ناكرك أحد فقل: أنا عبد الله وأخو رسول الله، وقد ناكره الرّجلُ وقال بصريح العبارة ـ إن صحت رواية ابن قتيبة ـ: وأمّا أخو رسوله فلا. وابن قتيبة غير متّهم في المسالة، لأنه من شيوخ السنّة وقد أثنى عليه ابن تيمية.

---

(١) نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص٩٥.

(٢) من أقطاب الكذابين، أحمد بن تيمية: ص٩٩.

ههنا إذاً مسألتان: عبد الله وأخو رسوله.

١ـ عبد الله:

كل إنسان عبد مملوك من عبيد الله تعالى أحبَّ ذلك أم كره، وإنّما يختلف النّاس في تحقّقهم بمعنى العبوديّة. وحينما يتحدّث القرآن الكريم عن الذين تحقّقت فيهم العبوديّة على الوجه الأكمل، يضفي عليهم صفات عالية، ويجعلهم قدوة على مرّ الزمن، يثبّت بسلوكهم قلوب المهتدين. وأوّل ما يطالعنا من ذلك قوله تعالى لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1]. ونحن نرى في زماننا، ونقرأ ونسمع عمّن مضى، فنجد أن الأكثرية في الحاضر والماضي تحت سلطان الشيطان وإذا فليس كل النّاس عباده بهذا المعنى. ثم يأتي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[2]. هناك إذا قسم من بني آدم عبدوا الشيطان، ولم يعبدوا الله تعالى بئس للظالمين بدلاً.

ونحن في صلواتنا نشهدُ للنبيﷺ بالعبودية قبل الرسالة فنقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله. والقرآن الكريم وصف النّبيّ بهذا الوصف في أشرف المقامات ليلة الإسراء والمعراج فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾، ولم يقل بنبيّه ولاَ برسوله. وقال تعالى أيضا: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾. ويثني

(١) الحجر: ٤٢.

(٢) يس: ٦٠ ـ ٦١.

سبحانه وتعالى على أنبيائه فيقول في حق داوود (عليه الصلاة والسلام):

﴿ووَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(١).

وفي حقّ أيوب (عليه الصلاة والسلام):

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٢).

ويعرّف عيسى بن مريم (عليه الصلاة والسلام) نفسه لبني إسرائيل في المهد فيقول:

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾(٣).

هذه العبوديّة مفخرة الأنبياء والمرسلين والأولياء، وبها تحقّقت فيهم صفات الكمال، لأنّهم أبعد النّاس من الكبر والعجب وغير ذلك من الخصال الذّميمة. وحينما يمعن الإنسان النّظر في مقاصد العبادة يجدها تدور حول مسألة العبوديّة. فهي تذكّر ابن آدم بضعفه وفقره وحاجته وذلّته ومسكنته. فإذا وعى ذلك حقّ الوعي آب إلى مولاه بصدق، وحرص على أن تكون كل أيّامه أو جلها في الترقي في العبودية ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤). أما العبادة الخالية من معنى العبوديّة فإنّ صاحبها لا يزال ينمّي في باطنه الكبر والغرور حتى تعمى بصيرته ويحجب عن الحقّ، وهو مع ذلك يحسب أنه يحسن صنعاً، كما هو شأن

---

(١) ص: ٣٠.

(٢) ص: ٤٤.

(٣) مريم: ٣٠.

(٤) الأنعام: ١٦٢.

إبليس العابد. وقد تكفي لحظات من العبوديّة لينتقل الإنسان من المناوئين للحقّ إلى صفّ أولياء الله تعالى، كما هو شأن السّحرة حين أذعنوا لموسى وألقوا ساجدين.

ولم تتحقق العبوديّة في أحد من أصحاب النّبيّ، كما تحققت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكلماته تشهد بذلك، كما أنه الوحيد الذي ترك للمسلمين تراثاً يضع شخص النّبيّ في المنزلة اللائقة المناسبة لناموس النّبوّة. فحينما يقرأ القارئ ما هو منسوب إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله عن طريق فلان وفلان لا يجد تلك المسحة النبويّة والعبير الرسالي، بل ربما صدمته رائحة الوضع والكذب المتعمّد؛ لكن حينما يأخذ في قراءة شيء مما أُثر عن علي عليه السلام لا يملك إلاّ أن يخشع أمام عظمة البيان المتضمّن للقيم السامية والإرشادات الرّوحية. وعندها تطمئن نفسه أنّه إذا كان عليّ عليه السلام بهذا المستوى، ورسول الله أفصح وأعلم وأتقى وأعظم، فكيف يكون كلام وبيان رسول الله؟

لاشك أن حكومات الجور لم تزل تخفي حديث رسول الله حتى لم يبق منه إلاّ ما يصبّ في مصالحها أو لا يضرّها. ومن بين ما غُيّب من حديث النّبيّ الأحاديث والكلمات التي تشير إلى معنى العبوديّة. ففي دعاء كميل المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام هذه العبارة: [فكيف بي وأنا عبدك الذليل الحقّير المسكين المستكين...] وهي عبارة لا يكاد يوجد لها نظير في كتب الجمهور، لماذا؟

لكن نظائرها كثيرة في أدعية الأئمّة من ولد علي عليه السلام، منها على سبيل المثال قول الإمام زين العابدين عليه السلام.

في الصحيفة السجادية الكاملة:

«إلهي أصبحت وأمسيت عبدا داخرا لك لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضـراً إلاّ بك أشهد بذلك على نفسي، وأعترف بضعف قوتي وقلّة حيلتي، فأنجز لي ما وعدتني وتمّم لي ما آتيتني، فإنّي عبدك المسكين المستكين الضّعيف الضّرير الذّليل الحقّير المهين الفقير الخائف المستجير...»[1].

وقوله:

«اللهمّ وأنا عبدك الذي أنعمت عليه قبل خلقك لـه وبعـد خلقـك إيّـاه، فجعلته ممّن هديته لدينك، ووفّقته لحقّك وعصمته بحبلك، وأدخلتـه فـي حزبك، وأرشدته لموالاة أوليائك، ومعاداة أعدائك...»[2].

وقوله: «إلهي إنّ رفعتَني فمن ذا الذي يـضعني، وإن وضـعتَني فمـن ذا الذي يرفعني، وإن أكرمتني فمن ذا الذي يهينني، وإن أهنتني فمن ذا الـذي يكرمني، وإن عذّبتني فمن ذا الذي يرحمني، وإن أهلكتنـي فمـن ذا الـذي يعرض لك في عبدك...»[3].

٢ـ أخو رسول الله:

في بلاغات النّساء:

«افتتحت (أي فاطمة الزهراء) الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاه على رسول اللهﷺ فعاد القوم في بكـائهم فلمـا امـسكوا عـادت فـي كلامهـا، فقالت: لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حـريص علـيكم

(١) الصحيفة السجادية الكاملة: ص١١٤.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة: ص٢٥٩.

(٣) الصحيفة السجادية الكاملة: ص٢٨٤.

بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعرفوه تجدوه أبي دون آبائكم وأخاً ابن عمّي دون رجالكم فبلغ النذارة صادعاً بالرسالة مائلاً على مدرجة المشركين[(١)].

وهي كما لا يخفى مطهرّة بنص الكتاب العزيز.

وقالت أيضاً في نفس الخطبة

«كلما حشوا ناراً للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه في لهواتها فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهيبها بحدّه مكدوداً في ذات الله قريباً من رسول الله سيّداً في أولياء الله وانتم في بلهنية»[(٢)].

وفي تاريخ الطبري:

«حدثنا أحمد بن الحسن الترمذي، قال حدثنا عبيد الله بن موسى، قال أخبرنا العلاء، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله، قال: سمعت عليّاً يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدى إلاّ كاذب مُفترٍ، صلّيت مع رسول الله قبل النّاس بسبع سنين»[(٣)].

وفي السيرة النبوية لابن كثير:

«فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت وإني لأحدثهم سناً وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأخمشهم ساقاً: أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي فقال: "إنّ هذا أخي وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا»[(٤)].

---

(١) بلاغات النّساء، ابن طيفور: ص١٣.

(٢) بلاغات النساء، ابن طيفور: ص١٣.

(٣) تاريخ الطبري: ج٢ ص٥٦.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير: ج١ ص٤٥٩.

ولا يفوتنا هنا أن نتعجّب من نسبته كذا وكذا إلى رسول الله ، وهو الذي أرسل إلى النّاس ليبيّن لهم ما نزل إليهم. فهل كذا وكذا من البيان في شيء. لا شك أن ابن كثير يتعبّد وفق مبانيه المذهبيّة الطائفيّة ولو اقتضى منه التّحريف، وليس هذا محل مناقشة ذلك؛ فعلى العاقل ان يتأمّل كيف يتلاعبون بحديث رسول الله.

وفي سيرة ابن كثير أيضا:

«محمّد بن إسحاق: وآخى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: ـ فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل ـ تأخوا في الله أخوين أخوين ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: "هذا أخي". فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلى بن أبى طالب أخوين. وكان حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله وعم رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وزيد بن حارثة مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحد، وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين ومعاذ بن جبل أخوين. قال ابن هشام: كان جعفر يومئذ غائباً بأرض الحبشة[1]».

لكن نزعة ابن كثير الأموية لا تسمح له بقبول الحديث، لذلك فإنّه سرعان ما يشكّكّ فيه. حيث يقول في البداية والنهاية.

«قلت: وفي بعض ما ذكره نظر، أمّا مؤاخاة النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم)

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج٢ ص٣٢٤ ـ ٣٢٥.

وعليّ فإنّ من العلماء من يُنكر ذلك ويمنع صحته ومستندُه في ذلك، أنّ هذه المؤاخاة إنّما شُرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض، وليتآلف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) لأحد منهم، ولا مهاجري لمهاجري آخر كما ذكره من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة اللهم إلاّ أن يكون النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) لم يجعل مصلحة عليّ إلى غيره فإنه كان ممّن ينفق عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) من صغره في حياة أبيه أبي طالب، كما تقدم عن مجاهد وغيره. وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار والله أعلم»[1].

من الذي ينكر حديث المؤاخاة ويمنعه من أهل العلم؟ هلاّ ذكره ابن كثير؟

وعلى فرض وجوده ما قيمةُ إنكاره بعد أن اتفق عليه هذا العدد الهائل من أهل الفن؟

في ينابيع المودة لذوي القربى ـ القندوزي

«في أحاديث المواخاة أحمد في مسنده: بسنده عن زيد بن أبى أوفى قال: لما آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فقال عليّ: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تواخ بينى وبين أحد؟! فقال: والذي بعثنى بالحقّ نبياً ما أخر تك إلاّ لنفسي، فأنت منى بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنه لا نبي بعدي، وأنت أخى ووارثي. [قال: وما أرث منك يا رسول الله؟ قال: ما

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٣ ص٢٧٨.

ورث الأنبياء قبلي. قال: وما ورث الأنبياء قبلك؟ قال: كتاب الله وسنة نبيهم وأنت معي في قصري في الجنة مع ابنتي»[1].

وفي المناقب:

«عن عامر بن سعد، عن سعد، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي: أنتَ منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه ليس معي نبي، قال سعيد: فأحببت أن أشافه بذلك سعداً فلقيته فذكرت له الذي ذكر لي عامر، فقال: نعم سمعته يقول، قلت: أنت سمعته؟ فأدخل إصبعيه في أذنيه ثم قال: نعم وإلاّ فاستكتا»[2].

ومعلوم أن هارون أخ لموسى.

قال ابن حجر:

«أول النّاس إسلاماً في قول كثير من أهل العلم، ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح فربي في حجر النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) ولم يفارقه وشهد معه المشاهد إلاّ غزوة تبوك، فقال له بسبب تأخيره له بالمدينة: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، وزوجه بنته فاطمة، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد، ولما آخى النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) بين أصحابه قال له أنت أخي، ومناقبه كثيرة حتى قال الإمام أحمد لمْ يُنقلْ لاحدٍ من الصحابة ما نُقل لعلي»[3].

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي: ج١ ص١٧٧.

(٢) المناقب، للموفق الخوارزمي: ص١٣٣.

(٣) الإصابة، لابن حجر: ج٤ ص٤٦٤.

وقال الحاكم الحسكاني:

«حدثني سليمان بن الربيع، أنبأنا كادح بن رحمة الزاهد، أنبأنا مسعر بن كدام عن عطية: عن جابر، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يقول: رأيت على باب الجنة مكتوباً: لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله علي أخو رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)»[1].

قال في هامشه:

«رواه ابن عساكر في ترجمة محمّد بن موسى المراغي من تاريخ دمشق قال: أخبرنا أبو الحسن الفرضي وأبو القاسم بن السمرقندي قالا: أنبأنا أبو نصر بن طلاب الخطيب، أنبأنا أبو الحسين بن جميع، أنبأنا محمّد بن يونس بن حبسون المراغي الطرموسي أبوبكر أمير ساحل الشام بصيدا، أنبأنا أبو نصر فتح بن أبلح بطرسوس [كذا] أنبأنا داود بن سليمان، حدثني سليمان بن الربع، أنبأنا كادح بن رحمة الزاهد، أنبأنا مسعر بن كدام عن عطية: عن جابر، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) يقول: رأيت على باب الجنة مكتوبا: لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله عليّ أخو رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)»[2].

وفي أنساب الأشراف: «المدائني عن يونس بن أرقم، عن أبي حرب، عن أبي الأسود عن أبيه عن زيد بن أرقم قال: آخى رسول (صلى الله عليه وسلّم) بين أصحابه فقال علي: يا رسول الله آخيت بين أصحابك وتركتني؟ فقال: أنت أخي، أما ترضى أن تدعى إذا دعيت، وتكسى إذا كسيت

---

(١) هامش شواهد التنزيل، الحسكاني: ج١ ص٢٩٦.

(٢) هامش شواهد التنزيل، الحسكاني: ج١ ص٢٩٦.

وتدخل الجنة إذا دخلت؟ قال: بلى يا رسول الله ﷺ»[1].

وفيه أيضاً:

«المدائني، عن حماد بن سلمة، عن أيوب، عن عكرمة: أن علياً لما بنى بفاطمة عليها السلام أتاهم النبيّ (صلى الله عليه وسلّم) فقال: أين أخي؟ فقالت أم أيمن: أتزوج أخاك ابنتك؟ فدعا لهما [بخير]»[2].

وفي أسد الغابة في ترجمة زيد بن أبي أوفى:

«زيد بن أبى أوفى واسم أبى أوفى علقمة بن خالد بن الحارث بن أبى أسيد بن رفاعة بن ثعلبة بن هوازن بن أسلم الأسلمي، له صحبة، وهو أخو عبد الله بن أبى أوفى، قال أبو عمر: كان ينزل المدينة، وقال أبو نعيم، كان ينزل البصرة، روى عن النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) حديث المؤاخاة بين الصحابة بالمدينة، فآخى بين أبى بكر وعمر، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين طلحة والزّبيْر، وبين سعد بن أبى وقاص وعمار بن ياسر، وبين أبى الدرداء وسلمان الفارسى، وبين عليّ والنبى (صلى الله عليه وسلّم)»[3].

وفي المستدرك:

(اخبرنا) عبد الله بن اسحاق بن ابراهيم العدل ببغداد، ثنا عبد الرحمن بن محمّد بن منصور الحارثى، ثنا على بن قادم، ثنا على بن صالح بن حي، عن حكيم بن جبير، عن جميع بن عمير، عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال:

---

(١) أنساب الأشراف، البلاذري: ص١٤٤ـ ١٤٥.

(٢) أنساب الأشراف، البلاذري: ص١٤٥.

(٣) أسد الغابة، ابن الأثير: ج٢ ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

لمّا ورد رسول الله ﷺ المدينة آخى بين أصحابه، فجاء عليّ رضى الله عنه تدمع عيناه، فقال: يارسول الله آخيت بين أصحابك ولم تواخ بيني وبين أحد، فقال رسول الله ﷺ: يا علي أنت أخي في الدّنيا والآخرة * تابعه سالم بن ابي حفصة عن جميع بزيادة في السياق * (حدثنا) أبو سهل أحمد بن محمّد بن زياد النحوي ببغداد، ثنا أحمد بن محمّد بن عيسى القاضى، ثنا إسحاق بن بشر الكاهلى، ثنا محمّد بن فضيل، عن سالم بن ابي حفصة، عن جميع بن عمير التيمى، عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: إن رسول الله ﷺ آخى بين اصحابه فآخى بين ابي بكر وعمر، وبين طلحة والزّبيْر، وبين عثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عوف، فقال علي: يارسول الله إنّك قد آخيت بين أصحابك فمن اخي، قال رسول الله ﷺ: اما ترضى يا علي أن أكون اخاك، قال ابن عمر: وكان علي رضى الله عنه جلداً شجاعاً فقال علي: بلى يارسول الله، فقال رسول الله ﷺ: أنت أخي في الدّنيا والآخرة»[١].

وفي نظم دُرر السمطين ـ الزرندي الحنفي:

«وعن عمر بن عبد الله بن يعلي بن بن مرة، عن أبيه، عن جده، قال: آخى رسول الله ﷺ بين المسلمين وجعل يخلف عليّاً حتى بقي في آخرهم وليس معه أخ له، فقال له علي: آخيت بين المسلمين وتركتني، فقال: إنّما تركتك لنفسي أنت أخي وانا أخوك، ثم قال له النّبيّ: ان ذاكرك أحد فقل: أنا عبد الله وأخو رسوله ولا يدعيها بعدي إلاّ كاذب مفتر»[٢].

---

(١) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤.

(٢) نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص٩٥.

وفي تاريخ الخطيب البغدادي:

«أخبرنا أبو عبد الله محمّد بن مخلد العطار ببغداد، حدثنا أحمد بن غالب بن الأجلح بن عبد السلام أبو العباس، حدثنا محمّد بن يحيى بن الضريس، حدثنا عيسى بن عبد الله بن عمر بن على بن أبي طالب، حدثني أبى عبد الله بن عمر، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبى طالب، قال: قال رسول اللهﷺ: سألت الله فيك خمساً فأعطاني أربعا ومنعنى واحدة، سألته فأعطاني فيك أنّك أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة وأنت معي، معك لواء الحمد وأنت تحمله وأعطانى أنّك وليّ المؤمنين من بعدي»[1].

وفي الرياض النضرة: «فقال علي: لقد ذهبت روحي وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت غيري، فإن كان هذا من سخط علي فلك العتبى والكرامة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): والذي بعثني بالحقّ ما أخّرتك إلاّ لنفسي، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي، وأنت أخي ووارثي، قال: وما أرث منك يا نبيّ الله، قال: ما ورثت الأنبياء من قبل، قال وما ورثت الأنبياء من قبلك، قال: كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأنت في قصري في الجنة مع فاطمة ابنتي، ثم تلا رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): إخْوانا على سرر متقابلين المتحابون في الله عز وجل، ينظر بعضهم إلى بعض، خرجه الحافظ أبو القاسم الدّمشقي في الأربعين الطّوال[2].

وفيه أيضاً: «وخرج ابن إسحاق ذكر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار،

---

(١) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج٥ ص١٠٠.

(٢) الرياض النضرة، أحمد بن عبد الله الطبري: ج١ ص١٩٨.

فقال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلّم): فيما بلغنا تآخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) بيد عليّ فقال، هذا أخي، فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) وعليّ أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أخوين، وجعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخو بني سلمة أخوين، وأبوبكر وخارجة بن زيد أخو بني الحارث بن الخزرج أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخو بني سالم بن عوف أخوين، وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل أخوين»[١].

وفي صفوة الصفوة: تحت عنوان ذكر اخاء النّبيّ عليّاعليه السلام، عن سعد بن أبي وقّاص، قال: خلف رسول الله عليّ بن أبي طالب في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله تخلفني في النّساء والصبيان، فقال أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لانبي بعدي، أخرجاه في الصحيحين»[٢].

وفي فضائل الصحابة: «حدثني من سمع بن أبي عوف، قال: ثنا سويد بن سعيد: ثنا زكريا بن عبد الله الصهباني، عن عبد المؤمن، عن أبي المغيرة، عن عليّ بن أبي طالب، قال: طلبني رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) فوجدني في حائط نائماً، فضربني برجله، قال: قم فوالله لأرضينّك أنت أخي وأبو ولدي تقاتل على سنّتي، من مات على عهدي فهو في كنز الله، ومن مات على عهدك فقد قضى نحبه، ومن مات يحبك بعد موتك ختم

---

(١) الرياض النضرة، أحمد بن عبد الله الطبري: ج١ ص٢٠٠.

(٢) صفة الصفوة، ابن الجوزي: ج١ ص٣١٢.

الله له بالأمن والإيمان ما طلعت شمس أو غربت»[1].

تهميش عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وإنما قلت «تهميش» لأنّ هذه العبارة شائعة في زماننا ويقصد بها تجاهل قدر الشخص والتعامل معه كأنّه ليس شيئاً مذكورا. وهذا السّلوك من التّعذيب النّفسي لا يمارسه إلاّ من كان خالياً من المروءة والنّزاهة، لأن النّزيه لا يحيف في الحكم، بل يعرف الفضل لأهله حتى لو كانوا من أعدائه.

قال البلاذري في الأنساب: «لما بلغ عثمانَ موتُ أبي ذر بالربذة قال: رحمه الله. فقال عمار بن ياسر: نعم فرحمه الله من كل أنفسنا. فقال عثمان: يا عاض أير أبيه أتراني ندمت على تسييره؟ وأمر فدفع في قفاه وقال: الحقْ بمكانه فلما تهيأ للخروج جاءت بنو مخزوم إلى عليّ فسألوه أنّ يكلّم عثمان فيه فقال له علي: يا عثمان! اتّق الله فإنك سيّرت رجلا صالحاً من المسلمين فهلك في تسييرك، ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره، وجرى بينهما كلام حتى قال عثمان: أنت أحق بالنفي منه، فقال علي: رُمْ ذلك إنّ شئْت. واجتمع المهاجرون فقالوا: إن كنْت كلّما كلّمك رجلٌ سيّرته ونفيْته فإنّ هذا شئ لا يسوغ فكف عن عمار»[2].

من خلال هذه الواقعة يتبيّن موقف الجماعة الحاكمة من شخص عليّ بن أبي طالب عليه السلام. فالقضية مدروسة ممهّدة وليست عفوية مزاجيّة، لأن هؤلاء بايعوا عليّاً عليه السلام أنه مولاهم، كما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مولاهم، ولازمُ

---

(١) فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ج٢ ص٦٥٦ ح١١١٨.

(٢) كتاب جمل من أنسا الأشراف، البلاذري: ج٦ ص١٦٩.

ذلك أنّ يتأدّبوا معه كما أُمروا بأن يتأدّبوا مع رسول الله ﷺ فلا ينبغي لهم تقدّمه، والتّقديم بين يديه ورفع الأصوات بحضرته ولا إلحاق الأذى بشخصه الكريم، لكنّهم لم يفعلوا ما أمروا به ولم ينتهوا عمّا نهوا عنه. وإلاّ فكيف جاز لعثمان أن يقول لمولاه أنت أحق بالنّفي منه؟ وبم استحق علي عليه السلام النفي؟ أترى رسول الله ﷺ لو كان حاضراً يقبل منه هذا التصرّف؟

في فضائل الصحابة: حدثنا عبد الله قال حدثني أبي قثنا الفضل بن دكين قال قال بن أبي غنية عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن بريدة قال غزوت مع علي إلى اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله ذكرت عليّا فتنقّصته فرأيتُ وجهَ رسولِ الله يتغيّر فقال يا بريدة ألستُ أوْلى بالمؤمنين من أنفسِهم قلتُ بلى يا رسول الله فقال من كنتُ مولاه فعليّ مولاه[1].

وفيه أيْضاً: «حدثنا عبد الله، قال: حدثني أبي، نا بن نمير، قال: حدثني اجلح الكندي عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه بريدة، قال: بعث رسول الله بعثين إلى اليمن، على أحدهما عليّ بن أبي طالب وعلى الآخر خالد بن الوليد، فقال إذا التقيتما فعلي على النّاس، وإن افترقتما فكل واحد منكما على جنده، قال: فلقينا بني زيد من أهل اليمن فاقتتلنا، فظهر المسلمون على المشركين، فقتلنا المقاتلة وسبينا الذّرّيّة فاصطفى عليّ امرأة من السّبي لنفسه قال بريدة فكتب يعني خالد بن الوليد إلى رسول الله يخبره، بذلك فلما أتيت النّبيّ دفعت الكتاب فقرىء عليه، فرأيت الغضب في وجهِ

(١) فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ج٢ ص٩٨٩.

رسول الله فقلت يا رسول الله: هذا مكانُ العائذ بعثتني مع رجل وأمرتني أن أطيعه قد بلغْتُ ما أُرسلتُ به، فقال رسول الله لَا تقعْ في عليّ فإنه منّي وأنا منه، وهو وليّكم بعدي»[1].

نعم، إنّ وجه رسول الله صلى الله عليه وآله يتغير حينما يذكر أحد علياً عليه السلام بسوء، ويُرى فيه الغضب، ولا يكتفي بذلك بل يعلّله ويذكّر الصحابي بريدة أنه عليه السلام كرسول الله صلى الله عليه وآله فتنقّصه بمنزلة تنقّص رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد علم الصّحابة ذلك فلم يجرؤْ أحدٌ بعدها على محاولة تنقّص عليّ عليه السلام أو شكايته إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله. لكن بعد أن غاب شخص النّبيّ الكريم لم يروا مانعاً من لعن الإمام على كل منابر المملكة الإسلامية التي كانت ممتدّة من المشرق إلى المغرب، ولا يستطيع عاقل يحترم نفسه أن يجدَ لهم عذراً في ذلك بعد ما صحّ لديهم، ومن طريقهم أن النّبيّ يغضب إذا ذُكر عليّ عليه السلام بسوء. وإذا كان وجه النّبيّ يتغيّر ويُرى فيه الغضب لتنقّص علي، فكيف لو سمعهم يلعنونه ويتبرؤون منه ويحملون النّاس على البراءة منه؟ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون. وقد جاء في صحيح البخاريّ وفي صحيح مسلم أيضًا انّ النّبيّ قال في حق علي عليه السلام: يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. ومع ذلك لم يحترم الصحابة مشاعر رسول الله صلى الله عليه وآله ولا رعوا حرمةَ الله تعالى، فآذوا الله تعالى في حبيبه، وآذوا رسول الله صلى الله عليه وآله في حبيبه. وهذا حديث قدسيّ مشهور يردّدونه بمناسبة وبغير مناسبة «مَنْ عَادَى لِي وَلِيّا آذَنْتُهُ بِحَرْب»، ولم يعملوا به في حقّ عليّ عليه السلام.

نعم، لقد همّشوا علياً عليه السلام فهمّشوا العلم والأخلاق وسنّة النّبيّ وبيان

---

(١) فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ج٢ ص٦٨٨.

كتاب الله تعالى، وانفسح المجال لكعب الأحبار والخوارج وأبي هريرة الدوسي وعبد الله بن عمرو بن العاص فانقسمت الأمّة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كل واحدة منها تدّعي أنها الناجية:

وكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً بِلَيْلى ... ولَيْلى لاَ تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكا

الخاتمة

تبيّن مما سبق أنّ مخالفة جماعة من الصّحابة للنبي ﷺ قد تحققت بحيث لا سبيل إلى إنكارها. وتبيّن أيْضا أنّهم ليسوا معذورين في ما ذهبوا إليه، لأن الحجّة عليهم قائمة ومن أنذر فقد أعذر، فدون إثبات براءتهم خرط القتاد. وتبيّن أيْضا أنّهم ماتوا مصرّين على مخالفته قولاً وعملاً. كما تبيّن أن الأمّة لم ترع حرمة النّبيّ في أهل بيته مع أن مودّتهم واجبة في القرآن الكريم، ولم يزل النّبيّ ﷺ يذكّر معاصريه ذلك ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة. ولكنّ النفوس أبت إلاّ الانصياع لدواعي الجاهلية، فاستخفّت بالدّين وأدخلت فيه ما ليس منه وأخرجت منه ما هو من صميمه، واستخفت بحق عليّ بن أبي طالب عليه السلام أعلم الأمّة وأقضاها، ومن هو من رسول الله ﷺ بمنزلة هارون من موسى، وزرعت بذور الشقاق والفرقة والنزاع وآثار ذلك بادية إلى يومنا هذا لا ينكرها إلاّ مكابر؛

فهل يكون من الحكمة تمديد عمر الخطيئة والدفاع عن مرتكبيها؟

وهل يكون من التديّن الدفاع عن الباطل وأهله؟

وهل يسوغ لنا نسبة النقائص إلى النّبيّ ﷺ لتلميع وجوه معاصريه؟

وهل يصح الاستمرار في الدفاع عن أفراد قلائل من قريش على حساب عالَميّة الرسالة ونجاة البشرية؟

وأنّى للعاقل أن ينكرالانحراف والانقلاب على الأعقاب بعد النّبيّ ﷺ وهو يرى آخر القرشيين إعلاناً لإسلامه يصبح في أعلى منصب في الدّولة، وأولّهم إيماناً وأعظمهم نصيباً في الدّفاع عن الإسلام وأهله يُلعَن على كافّة منابر الدولة الإسلاميّة الممتدة شرقاً وغرباً. وإنما جاءالإسلام لتتميم مكارم

الأخلاق وإيتاء كل ذي فضل فضله، ونهانا أن نبخس النّاس أشياءهم، فأين تاريخ المسلمين من كل تلك القيم؟

إن المتتبع لسلوك المغيرة بن شعبة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وعبد الله بن عامر بن كريز ومروان بن الحكم وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وعثمان بن عفّان والوليد بن عقبة بن أبي معيط وقنفذ التيمي وبسر بن أرطاة والضّحّاك بن قيس الفهري وعبد الرحمن بن عوف الزّهريّ وأبي هريرة الدوسي... ليستحي أن يتصوّر نفسه مكان أحد من هؤلاء، لكن هذا إذا كان ذا دين، وعارفاً بحرمة مولاه؛ فإن الإسلام الحنيف لا يقيم وزنا للاعتبارات الوهمية المترسّخة في قلوب أبناء الدّنيا. ومن علامات ذلك أنه ينسف كل الأعمال التي قام بها الشخص إذا ارتدّ، في اللّحظة التي يرتد فيها، ولو كانت كالجبال، كما أنّه يجبّ ويمحو كلّ خطايا الشخص المقبل على الله تعالى من عالمِ الشّرك والضّلال، ولو كانت كالجبال أيضاً. وذلك لأن العبرة بما انطوت عليه القلوب وأضمرته الصدور.

ختاماً، أدعو من يقرأ هذه السطور إلى ا لتّأمّل في كلمة قالها أحد علماء الشيعة في بحث له تحت عنوان «ما استدل به لإمامة أبي بكر»، قال السيّد:

«نحن نريد البحث عن أمر حقيقي واقعي يتعلّق بمن نريد أن نقتدي به بعد رسول الله، نريد أن نجعله واسطة بيننا وبين ربّنا، في أمورنا الاعتقادية وفي أمورنا العملية، أي في الأصول والفروع وفي جميع الجهات، نريد أن نبحث عن الحقّيقة ونتوصل إليها، فإذا وصلنا إلى الحقّيقة وعثرنا على الحقّ حينئذ نقول لربّنا إنا قد نظرنا في الأدلّة وبحثنا عن الحقّيقة، فكان هذا ما توصلنا إليه، وهذا إمامنا، وهذا منهجنا ومسلكنا، ليكون لنا عذراً عند الله

سبحانه وتعالى، وكل هذا البحث لهذا وليس لحبٍّ أو بغض، ولـيس لـدينا أي غرض، وما الداعي إلى الشتم؟ وإلى متى تكون الحقيقة مرة؟ وإلى متى لا يريدون استماع الحقّ وأخذ الحقّ وقبول الحقّ؟ ولماذا الشتم؟».

فهرس الآيات القرآنية

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ۝ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[2].

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[4].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[5].

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[6].

---

(١) التوبة: ٦١.

(٢) التوبة: ٧٥ ـ ٧٧.

(٣) التوبة: ٩٨.

(٤) التوبة: ١٠٧.

(٥) التوبة: ٥٨.

(٦) التوبة: ٤٧.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(١).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾(٢).

﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(٣).

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(٤).

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾(٥).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(٦).

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٧).

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ

---

(١) التوبة: ٥٣.
(٢) التوبة: ٦٥.
(٣) التوبة: ٧٤.
(٤) التوبة: ٩٥.
(٥) التوبة: ١٠١.
(٦) التوبة: ١٢٥.
(٧) الأحزاب: ٣٣.

يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۞ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[١].

﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٢].

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۞ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾[٣].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٥].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٦].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن

---

(١) الإنسان: ٥ـ ٨.

(٢) الشورى: ٢٣.

(٣) النور: ٣٦ـ ٣٧.

(٤) المائدة: ٥٥ـ ٥٦.

(٥) الصف: ٤.

(٦) الأعراف: ١٧٥ـ ١٧٦.

كُنتُمْ تَعْقِلُونَ۝ هَاأَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ۝ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(١).

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(٢).

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾(٣).

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٤).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٦).

---

(١) آل عمران: ١١٨ـ ١٢٠.

(٢) آل عمران: ٦٩.

(٣) المائدة: ٨٢

(٤) آل عمران: ٧٨.

(٥) المائدة: ١٣.

(٦) المائدة: ٥٧.

فهرس المصادر

١. **السيرة النبوية**، ابن هشام مكتبة محمّد علي صبيح ـ ١٣٨٣هـ.

٢. **الدر المنثور**، جلال الدين السيوطي. مطبعة الفتح، جدة، نشر دار المعرفة ـ ١٣٦٥هـ.

٣. **أسباب نزول الآيات**، الواحدي النيسابوري، مؤسسة الحلبي، القاهرة ـ ١٣٨٨هـ.

٤. **الرياض النضرة**، المحب الطبري، دار الغرب الإسلامي بيروت ـ ١٩٩٦م.

٥. **العبر في خبر من غبر**، الذهبي، مطبعة حكومة الكويت ـ ١٩٤٨م.

٦. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي الدمشقي، دار الكتب العلمية بيروت.

٧. **المنتظم** لابن الجوزي [دار الكتب العلمية ١٩٩٢].

٨. **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، القاضي عياض، دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٠هـ.

٩. **في تاريخ مدينة دمشق**، ابن عساكر، دار الفكر ـ ١٤١٥هـ.

١٠. **تاريخ الطبري**، مؤسسة الأعلمي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٧هـ.

١١. **الطبقات الكبرى**، محمّد بن سعد، دار صادر بيروت.

١٢. **الإمامة والسياسة**، ابن قتيبة الدينوري، انتشارات دار الشريف الرضي ـ ١٤١٢هـ.

١٣. **تاريخ اليعْقوبيّ**، دار صادر بيروت.

١٤. **الحلة السيراء**، للقضاعي، [ط دار المعارف ١٩٨٥].

١٥. **كتاب وصايا العلماء**، الربعي، دار ابن كثير بيروت ـ ١٤٠٦هـ.

١٦. **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية بيروت ـ ١٤١٥هـ .

١٧. **سير أعلام النبلاء**، الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٤١٣هـ .

١٨. **البداية والنهاية** ابن كثير، مكتبة المعارف، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت ـ ١٤٠٨هـ .

١٩. **نظرية عدالة الصحابة** (أحمد حسين يعقوب)... النصائح الكافية، لمحمّد بن عقيل.

٢٠. **صحيح مسلم**، مسلم النيسابوري، دار الفكر بيروت، دار إحياء التراث العربيّ بيروت.

٢١. **معجم قبائل العرب**، عمر كحالة، دار العلم للملايين بيروت ـ ١٣٨٨هـ

٢٢. **نهج البلاغة** (ابن أبي الحديد، دار إحياء الكتب العربيّة).

٢٣. **تاريخ المدينة** ، ابن شبة النَّمَيْريّ.

٢٤. **تدوين القرآن** (علي الكوراني العاملي(الشيعي) دار القرآن قم.

٢٥. **الكفاية في علم الرواية** (الخطيب البغدادي). دار الكتاب العربيّ ـ ١٤٠٥هـ .

٢٦. **الميزان في تفسيرالقرآن** الطباطبائي (الشيعي) مؤسسة النشر الإسلامي قم ـ إيران.

٢٧. **مجمع الزوائد** (الهيثمي)، دار الكتب العربيّة، بيروت لبنان ـ ١٤٠٨هـ.

٢٨. **مستدرك الحاكم** (الحاكم النيسابوري) دار المعرفة، بيروت ـ ١٤٠٦هـ

٢٩. **فضائل الصحابة**، الإمام أحمد، دار الكتب العلمية، مؤسسة الرسالة بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

٣٠. **الإصابة**، ابن حجر، دار الكتب العلمية، دار الجيل، بيروت ـ ١٤١٥هـ ـ ١٤١٢هـ .

٣١. **فتوح البلدان** (البلاذري) مكتبة النهضةالمصرية، القاهرة، دارالكتب العلمية ١٣٧٩ ـ ١٤٠٣هـ .

٣٢. **وقعة صفين**، المنقري، المؤسسة العربيّة الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ ١٣٨٢هـ .

٣٣. **الخصائص**، السيوطي، دار الكتب العلمية بيروت ـ ١٩٨٥م.

٣٤. **تفسير القرآن الكريم**، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت ـ ١٤١٢هـ .

٣٥. **العلل**، لأحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي بيروت ـ ١٤٠٨هـ .

٣٦. **التاريخ الصغير**، للبخاري، دار المعرفة بيروت ـ ١٤٠٦هـ .

٣٧. **الثقات**، لابن حبان، حيدر آباد، مؤسسة الكتب الثقافية ـ ١٣٩٣هـ

٣٨. **التاريخ الكبير**، للبخاري، دار المعرفة بيروت ـ ١٤٥٦هـ .

٣٩. **الموطأ، الإمام مالك**، ط بيروت ـ ١٤٠٦.

٤٠. **الصحاح الجوهري**، دار العلم للملايين ـ ١٤٠٧هـ .

٤١. **أسد الغابة**، ابن الأثير.

٤٢. **السنن الكبرى**، للنسائي، دار الفكر بيروت ـ ١٣٤٨هـ .

٤٣. **المعجم الكبير**، للطبراني، دار إحياء التراث العربيّ، مكتبة ابن تيمية القاهرة.

٤٤. **بلاغات النّساء**، ابن طيفور، مكتبة بصيرتي، قم ـ إيران.
٤٥. **جمهرة خطب العرب**، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية بيروت.
٤٦. **النهاية في غريب الحديث**، المكتبة العلمية بيروت ـ ١٣٩٩هـ.
٤٧. **مأساة الزهراء**ﷺ، جعفر مرتضى (الشيعي).
٤٨. **الاحتجاج**، الشيخ الطبرسي (الشيعي) دار النعمام للطباعة والنشر.
٤٩. **البيان والتبين**، الجاحظ، دار صعب بيروت ـ ١٩٦٨م.
٥٠. **تاريخ ابن معين**، دار المأمون للتراث دمشق.
٥١. **موارد الظمآن**، الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٢. **المستصفى**، الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤١٣هـ ـ ١٤١٧هـ.
٥٣. **سنن ابن ماجة**، محمّد بن يزيد القزويني، دار الفكر بيروت.
٥٤. **سنن أبي داود، ابن الأشعث السجستاني**، دار الفكر بيروت ـ ١٤١٠هـ.
٥٥. **البدء والتاريخ**، المَقْدِسِيّ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.
٥٦. **تاريخ خليفة بن خياط**، العصفري، دار الفكر بيروت ـ ١٤١٤هـ ـ دار القلم.
مؤسسة الرسالة ـ ١٣٩٧هـ.
٥٧. **وفيات الأعيان**، ابن خلكان، دار الثقافة، بيروت ـ ١٩٦٨م.
٥٨. **ينابيع المودة لذوي القربى**، للقندوزي الحنفي، دار الأسوة ـ ١٤١٦هـ.
٥٩. **الفهرست**، ابن النديم، دار المعرفة بيروت ـ ١٣٩٨هـ.
٦٠. **العواصم من القواصم**، ابن العربيّ، دار الجيل بيروت ـ ١٤٠٧هـ.

٦١. **الفائق**، الزمخشري، دار المعرفة، لبنان.
٦٢. **المستطرف في كل فن مستظرف**، الأبشيهي، دار الكتب العلمية بيروت ـ ١٩٨٦.
٦٣. **لسان العرب**، ابن منظور، دار إحياء التراث العربيّ ـ ١٤٠٥هـ.
٦٤. **كتاب الاستقصاء**، دار الكتاب، الدار البيضاء ـ ١٩٩٧م.
٦٥. **طبقات الفقهاء**، دار القلم بيروت.
٦٦. **المناقب**، للموفق الخوارزمي، مؤسسة النشر الإسلامي ـ ١٤١١هـ.
٦٧. **نظم درر السمطين**، الزرندي الحنفي، مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ ١٣٧٧هـ.
٦٨. **شرح المقاصد**، التفتازاني، منشورات الشريف الرضي إيران ـ ١٤٠٩هـ
٦٩. **حاشية ابن القيم**، دار الكتب العلمية بيروت ـ ١٤١٥هـ.
٧٠. **تلخيص الحبير**، ابن حجر العسقلاني، المدينة المنورة ـ ١٣٨٤هـ.
٧١. **فتح الباري**، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة بيروت ـ ١٣٧٩هـ.
٧٢. **الملل والنحل**، الشهرستاني، مطبعة حجازي القاهرة ـ ١٣٦٨هـ.

فهرست المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

منشورات مؤسسة الكوثر

عنوان الكتاب	المؤلف	الطبعة وسنة الطبع
موسوعة الإمام علي عليه السلام (٤) جلد	الشيخ محمد باقر القرشي السيد	ط٢ـ ١٤٢٩هـ
الصلاة البتراء	محمد هاشم المدني	ط١ ـ ١٤٢٨هـ
عصمة الأنبياء	الشيخ قيصر التميمي	ط١ـ ١٤٢٨هـ
ظلامة الزهراء	الشيخ يحيى الدوخي	ط١ ـ ١٤٨٢هـ
الأجوبة الوافية في رد شبهات الوهابية (٢) جلد	الشيخ قيصر التميمي ـ الشيخ علي حمود العبادي ـ الشيخ شاكر الساعدي	ط١ـ ١٤٢٨هـ
حديث الاثني عشر في كتب أهل السنة	الشيخ قيصر التميمي	ط١ـ ١٤٢٨هـ
المنهج الجديد والصحيح في الحوار مع الوهابيين	الدكتور عصام يحيى العماد	ط٢ـ ١٤٢٩هـ
الصحيح من الإنجيل	الدكتور علي الشيخ	ط١ ـ ١٤٢٥هـ
السلوك الإنساني (٢) جلد	حسين السلمان	ط١ ـ ١٤٢٤هـ
زلال ما قبل الظهور	إعداد وتأليف تراب إمامي	ط٢ ـ ١٤٢٨هـ
المصلح العالمي	الدكتور السيد نذير الحسني	ط٢ ـ ١٤٢٤هـ
الفتنة الكبرى	الشيخ محمد مهدي	ط١ ـ ١٤٢٤هـ
الصلاة عمود الدين	السيد طلال فخر الدين	ط٢ ـ ١٤٢١هـ
الدفاع عن التشيع	الدكتور السيد نذير الحسني	ط٢ ـ ١٤٢٣هـ
تشريع الخمس	الشيخ أبو خمسين	ط١ ـ ١٤٢٢هـ
آية الإعجاز	أبو محمد الربيعي	ط١ ـ ١٤٢١هـ
بحوث في الاجتهاد والتقليد	السيد كامل الحسن	ط١ ـ ١٤٢٨هـ
حقيقة لله ثم للتاريخ	الشيخ لؤي المنصوري ـ الشيخ محمد عبد الجليل	ط١ ـ ١٤٢٤هـ

أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في كتب أهل السنة	الشيخ حكمت الرحمة	ط١ ـ ١٤٢٤هـ
غيبة الإمام المهدي (عليه السلام) (رؤية تحليلية)	الشيخ علي حمود العبادي	ط١ ـ ١٤٢٨هـ
دور الدين	الشيخ آية الله محمد مهدي الآصفي	ط١ ـ ١٤٢٨هـ
الحسين وارث الأنبياء (عليهم السلام)	الشيخ عبد المحسن النمر	ط١ ـ ١٤٢٥هـ
روش نو وصحيح در كفتكو با واهبيت (فارسي)	الدكتور عصام العماد ـ ترجمة حميد رضا غريب رضا	ط١ ـ ١٤٢٨هـ
الأمويون وثورة الإمام الحسين (عليه السلام)	الشيخ أبو مصعب البصراوي	ط١ ـ ١٤٢٢هـ
عبقرية مبكرة	توفيق أبو خضر	ط٢ ـ ١٤٢٥هـ
قراءة في سلوك الصحابة	الدكتور عبد الباقي قرنة الجزائري	ط٢ ـ ١٤٢٩هـ
حب أهل البيت (عليهم السلام)	محمد تقي يوسف الحكيم	ط١ ـ ١٤٢٤هـ
ذكريات مشرقة	أحد تلامذة الإمام الخميني (رحمه الله)	ط٢ ـ ١٤٢٣هـ
قرة العين	زكريا بركات	ط١ ـ ١٤٢٢هـ
الفتاوى الواضحة (باللغة الهولندية)	آية الله العظمى السيد علي السيستاني (دام ظله)	ط١ ـ ١٤٢٨هـ
المرجعية الشيعية والقضية الفلسطينية	الشيخ محمد عبد الجليل	ط٢ـ ١٤٢٤هـ
الهجرة بين الالتزام والانحراف	الشيخ علي السبيتي	ط١ ـ ١٤٢٤هـ
رائد المنبر الحسيني	السيد محمد الشخص	ط١ ـ ١٤٢٨هـ
بقية السلف وقدوة الخلف	السيد هاشم محمد الشخص	ط١ ـ ١٤٢٨هـ